
http://www.dvd4arab.com
عذاب
رواية
الهارب
بقلم : اورهان كمال
ترجمة : فاروق مصطفى

الهارب

ترجمة
فاروق مصطفى

تأليف
أورهان كمال

الهارب

رواية

أورهان كمال
١٩١٤ ـ ١٩٧٠

هو من الأدباء الأتراك المعاصرين. ولد في جيحان. واسمه الحقيقي محمد رشيد أوكوتجو. عاش أياماً قاسية حين هرب والده إلى سورية لأسباب سياسية. وفي الثامنة عشرة من عمره عاد إلى تركيا.

دخل الحياة الأدبية بكتابة الشعر في الصحف والمجلات، ثمّ اتجه إلى كتابة القصة والرواية. وبدأ يكتب بشكل دائم في صحيفة " Varlı k ـ الوجود". وبإبداعه لروايتيه " Baba Evi ـ بيت الأب" و"Ekmek Kavğası ـ نزاع على الخبز" طارت شهرته. وفي عام ١٩٥٧ نال جائزة سعيد فائق عن عمله بعنوان " Kardeş Payı ـ حصة الأخ". بعد ذلك وبكتابة رواياته " "Sokaklardan Bir Kız ـ فتاة من الأزقة"، " Üç Kağı tçı ـ النصَّاب". " Yalancı Dűnya ـ الدنيا الكذابة". "El kı zı ـ بنت الناس". "Kötű Youl ـ ـ الطَّريق السَّيِّء " Vukuat Var ـ توجد أحداث". Honımm çiftligi" ـ مزرعة السيدة". " Suçlu ـ المذْنب"، " Kaçak ـ الهارب". وبكتابة مذكراته بعنوان:

" Nazim Hikmetle Üç Buçuk Yı l ـ ثلاث سنوات ونصف مع ناظم حكمت". رسَّخ مكانته في الحياة الأدبية التركية.

***

I

أشرقت الشمس منذ مدّة طويلة.

أمّا هذه البلدة الشبيهة بالقرية الكبيرة، المستلقية على سفوح جبال كاوور، فيصل الصَّباح إليها متأخراً جداً عن وصوله إلى بقية البلدات والقرى في السهل. هذه البلدة رغم قرميد أسطحة منازلها الأحمر، ومآذن جوامعها، وضجيج الشاحنات الصغيرة المتنقلة بين البلدات والقرى المجاورة، في كل ساعة من ساعات اليوم، ورغم أصوات ميكروفونات دارَي السينما المرتفعة خاصة في ليالي الصيف. كانت أشبه بقرية كبيرة، والشمس المشرقة خلف الجبال الشاهقة تُطل عليها بوجهها المنير بعد عدّة ساعات على الأقل من شروقها.

كانت جبال كاوور كأنها تحتضن هذه البلدة.

وكانت أشجار غاباتها بجذوعها الضخمة التي لم تمتد إليها فأس، تتعالى سامقة، وحين يلتهب السهل بحرارة الصيف الصفراء، تنعم البلدة ببرودة رطبة. وفي الشتاء تصد هذه الأشجار الضخمة المتطاولة إلى عنان السماء، العواصف وتردّ الصقيع الحاد كالسكين عن البلدة. كانت الغابة تحمي أهالي البلدة من تقلبات الطقس القاسية.

هبَّت هاجر مذعورة من فراشها الممدّد على الأرض في بيتها المكوَّن من غرفتين محاطتين بجدران من الصفيح المهترئ، كانت تتصبَّب عرقاً، وقد أفاقت من خدرها اللذيذ على أصوات قطيع الأبقار والجواميس التي ما زالت تتزاحم وتتدافع وتخور.

حقاً ما أجمل ذلك الحلم الذي حلمته ولم تشبع منه!

تنهَّدت. وتوقفت نظراتها الزائغة على ستارة الغرفة البيضاء، ما زال الحلم الذي رأته قبل قليل يداعب مخيلتها... تساقطت أشعة شمس الصباح الصفراء الباهتة على الستارة. لم تلاحظها. ولا يمكن أن تلاحظها. فالحلم الذي رأته قبل قليل مَلَكَ عليها فؤادها. إذ كانت كلما استيقظت وقد حلمت بزوجها يصعب عليها أن تستجمع عقلها وتلملم نفسها. وكانت نظراتها الزائغة لا ترى ما حولها، حتّى لو صادفت هذه النظرات ابنها، رفيق روح أمه، الصغير بعمره الكبير بعقله، فإنها لم تكن لتراه.

نعم لقد رأت زوجها في الحلم، وقد جاء محمّلاً بالهدايا، وسدَّ ببنيته الفارعة باب الدار المحاط بجدران من الصفيح المتآكل، أيْ باب بيته الذي لم يسأل عنه ولو برسالة من سطرين منذ أن غادره قبل سبع سنوات.

اغرورقت عيناها وتبللت أجفانها.

هو، جاء بوجهه الحليق للتوّ كما كان صبيحة مغادرته الأخيرة لبيته، وبشاربيه الأسودين الشائكين الكثَّين، لكن اللائقَين جداً به، وقال لها مقهقهاً: "ـ لقد جئت!"، "لماذا تنظرين إلي هكذا باستغراب؟ ها قد جئت. جئت من مسافات بعيدة. الغبار والتراب يلفّني. هيّا سخِّني ماء. وأجلسيني أمامك واغسلي رأسي بالماء والصابون كما كنت تفعلين سابقاً!".

غصَّت هاجر.

قبل سنوات عديدة ومنذ أن كانت عروساً جرجرت نفسها ومشت خلف زوجها وجاءت معه إلى هنا من مدينتها التي تضج بالحياة، توفي والدها وهي لا تزال في المهد، فعملت أمّها في بيوت الناس لكي تربيها، وغسلت أغطية وملاءات الفنادق وملابس الزبائن الداخلية، ثمّ ولعدم قدرتها على تحمّل عبء المعيشة الثقيل تزوّجت من شخص لا تعرف الكثير عنه ظناً منها بأنها ستصل بذلك إلى الرغيف الجاهز.

لكن من أين؟

كان الرجل يَجني، ويُنفق ما يجنيه في اليوم نفسه في دور السينما وفي الملاهي وعلى شهواته وملذاته الجنسية، وعلى خمره وشرابه ولكونه بهذا

الانحطاط اضطرت المرأة إلى ترك ابنتها هاجر وحيدة في البيت والعودة إلى طرق أبواب الناس لغسل ملابسهم. كانت سابقاً تعمل من أجل هاجرها. أمّا فيما بعد، فصحيح أن زوجها منحط الأخلاق، لكنه ما أن يضمّها بين ذراعيه حتّى يطقطق عظامها، ويمنحها بسخاء لذّة ونشوة لا حدود لهما، لذلك صارت تعمل بحب ورضا من أجل تأمين خمر وشراب زوجها المنحط!

كانت هاجر حينها في حوالي الثامنة أو العاشرة من عمرها. طفلة غير مكترثة بالحياة، تداوم على الصف الثالث في إحدى مدارس المدينة الابتدائية. وجسمها الصغير تحت طيّات الصدرية السوداء ذات القبّة البيضاء يحمل رأساً مليئاً ببهجة الأحلام الطفولية البهيّة الزاهية. كانت مبهورة بين القطط التي تُطارد بعضها كالصواعق، وطيور الأبابيل التي ترسم تعرجات قاسية وهي تطير في الفضاء الأزرق. وربما كانت ستستمر في انبهارها هذا طيلة عهد طفولتها الذهبي. لكن حين صحت يوماً على صراخ أمها وهي تتلوى تحت وطأة ألم مخيف، وحين حملوا أمها ونقلوها على عَجَل إلى مستشفى المدينة الكبير، لامست قدما هاجر الأرض، وكأن أجواء الفضاء الأزرق، المُشبعة بالأحلام الزاهية، قد طارت وارتحلت بعيداً.

حسناً ولكن أمها؟ أين هي ماماتها؟ هي تعرف، لقد نقلوها إلى المستشفى، ولكن، ما كل من يذهب إلى المستشفى يرفض العودة! هم وإن فقدوا نضارتهم، وإن غارت وجناتهم، يعودون إلى أولئك الذين تركوهم في البيت، ويضمّون أبناءهم بين أذرعهم. هي ذي أم آيلا التي عادت من المستشفى مع شقيق صغير، وهي ذي خالة فيليز التي عادت من المستشفى بعكازين، وأم عائشة، وأم فاطمة، وأم نرجس...

وفي إحدى الأمسيات، عاد زوج أمّها إلى البيت، وهو يترنّح مخموراً كعادته، وغمغم قائلاً:

"ـ إي... كفى!"

قطعت بكاءها فوراً. وأجرت دموعها إلى أحشائها، ولكن أين أمها؟ أين هي ماماتها؟ لماذا لا تعود كأمهات وخالات الآخرين؟ لتعد ولو بدون نضارة، ولو بوجنتين غائرتين، يكفي أن تعود، حتّى ولو بعكّازين!

"ـ أَبَتي؟".

"ـ ماذا هناك؟".

"ــ كنت سأسأل سؤالاً ولكن...".

كان الرجل يحتسي الخمر، وبعينين نصف مغمضتين غمغم من فوق الطاولة:

"ــ ماذا ستسألين؟ هل ستسألين عن أمك؟ أمك لن تعود، لقد ماتت. انسيها، وسوف أحضر لك أمّاً شابّة عمّا قريب!".

"ــ ....؟".

هنا، في هذه اللحظة ولَّت أيام هاجر الزاهية، وصارت الدنيا مظلَّلة، بل لقد اسودَّت الدنيا في عينيها. فهي لا تريد أماً أخرى. إنها مستعدّة لتحمُّل تأنيب أبيها، وحتى لتحمُّل ضرباته، على أن لا تأتي أم أخرى. لكنَّ أباها لم يصغ إليها.

أحضر في البداية شابّة طائشة على أنّها زوجة أب، وبعد شهر... خمسة أشهر، وفي أحد الأيام، هل هربت المرأة؟ أم أن أباها أرسل المرأة إلى بيت أبيها؟ لم تقطع هاجر بذلك، وماذا يعنيها؟

وبعد ثلاثة أشهر، زوجة أب جديدة. هذه كانت أكبر سناً من تلك لكن هذه كانت تُدخل إلى البيت رجلاً يتسلّل كاللصوص في غياب أبيها وتقول لهاجر:

"ــ اذهبي والعبي في الزقاق يا بنت، وإياك أن تفتحي فمك وتقولي شيئاً لأبيك، فإن فعلت، والله، بالله سوف أفرم لحمك فرماً!".

ولخوفها لم تكن هاجر تتفوّه بكلمة واحدة، فهي تعرف أنه ليس أباً حقيقياً، بل هو زوج أمّها، ومعاملته لها سيئة، ولأنه يحب المرأة حباً شديداً فهو لن يصدّق هاجر، والأسوأ من ذلك أنه سوف يقتنع بكلام المرأة ويوافقها، وعندها من الواضح أنه سوف يضرب ابنته الصغيرة بلا رحمة ولا شفقة.

وفي أحد الأيام، عندما اختفت تلك المرأة المتّجهمة من الوجود مع ذلك الرجل الذي كان يتردّد على البيت كاللصوص باستمرار في غياب أبيها، فإن أباها شفى غليله كلّه من ابنة زوجته:

"ــ تعالي إلى هنا يا بنت!".

"ــ تفضلوا يا أبتي...".

"ــ زوجة أبيك... تلك المرأة، يُقال إنها كانت تُدخل إلى البيت رجلاً

خفية...".

"ـ نعم كانت تدخله يا أبتي...".

"ـ ولِك أنا لست أباكِ، فلا تنادني يا أبتي!".

"ـ حاضر يا أبتي...".

"ـ انظر، ما زالت تقول أبتي!".

"ـ لن أقولها ثانية يا أبتي!".

جذبها من رسغيها بشدة واحتواها بين ذراعيه. كان فمه يفوح كريها بروائح الخمرة وبقايا الطعام، نظر إلى وجهها نظرات غريبة، وضحك، وغمغم بكلمات. أخاف هاجر، فقالت:

"ـ لا تنظروا إليَّ هكذا...".

"ـ كيف؟".

"ـ هكذا. إني أخاف...".

"ـ ممَّ تخافين؟ لا تخافي، لن آكلك. ولكن جسدك كَبُرَ فجأة يا بنت... وصدرك أيضاً... أنت أيتها... مَن سيعصر هذين؟".

كان الوقت ليلاً، وكانت ساعة متأخرة من الليل. لم تفلح في إفلات رسغيها من بين يدي الرجل القويتين، لكنها وكأنها فهمت قصده ونيّته. كان بإمكانها أن تقيم الدنيا، وبمقدورها أن تزلزل الأرض. ويبدو أن الرجل أدرك ذلك، فدفعها عنه قائلاً: "ـ لِمَ تتكالبين هكذا يا قاذورة؟ ألن تَدعي ابن الناس يفعل بك كل شيء غداً؟".

كانت لا تزال في الثالثة عشرة من عمرها. وقد تركت المدرسة منذ زمن طويل، بلا أم، وبلا زوجة أب. تطهو الطعام، وتجلي الأواني، وتغسل الغسيل، وتمسح خشب المنزل. وفي أغلب الليالي يصطحب أبوها معه إلى البيت نساء شتَّى، شابّات، كحيلات العيون، ذوات قهقهات جارحة. أولئك لم يكنَّ يضحكنَ وهنَّ ينظرن إلى هاجر، وحين يضحكن كنَّ يغمغمن ويتمتمن.

سمعت إحداهنَّ وهي تحدِّث أباها حديثاً مكشوفاً:

"ـ لماذا تمسكها في بيتها، طالما هي ليست ابنتك الفعلية؟".

ضحك أبوها وأجاب:

"ــ فلتتم الخامسة عشرة...".

"ــ وماذا سيحدث؟".

"ــ وماذا لا يحدث؟ ما زالت فجَّة الآن، وإذا ما أتمّت الخامسة عشرة...".

"ــ خنزير. وتعرف جيداً طعم فمك!".

"ــ وهل الذنب ذنبي؟".

"ــ وهل هو ذنبي؟".

"ــ ذنب مَن؟".

قالت وهي ترسم بيديها شكل صدر هاجر المكتنز:

"ــ إنك تربِّيه...".

وحين دخلت سنتها الخامسة عشرة، استيقظت ذات ليلة على لمسات تداعب فخذيها تحت اللِّحاف. إنه أبوها، أي زوج أمّها. كان يرتجف بوجهه الأحمر القذر المخمور.

"ــ ولكن يا أبتي!"

"ــ اسكتي!".

"ــ حسناً ولكن أنا، أنا...".

"ــ ألا تعرفين أنك لستِ ابنتي فعلاً؟".

"ــ لكنكم تخيفونني هكذا؟".

"ــ إما أن تقولي نعم، أو تقولي لا. إن قلت لا، فهيّا اتركي بيتي... وإن قلت نعم... فأنا لست وحشاً، لا تخافي. مجرّد مداعبة فقط...".

لم يُجْدِ البكاء والتوسّل نفعاً، وبما أنه كان ثملاً جداً، فقد دفعته دفعة قوية، ثمّ وثبت كالصاعقة تصعد السلالم بقدميها الحافيتين، وبرداء نومها الفضفاض، إلى الطابق العلوي، حيث يقطن أصحاب البيت، وكانا زوجين عجوزين مسنَّين. هل كانا مستيقظَين؟ أم أنهما أدّيا صلاة التراويح وعادا إلى البيت لتوّهما؟ استقبلا هاجر برأفة وحنان. وأخبرتهما أنها تود البقاء معهما اعتباراً من هذه الليلة، فأبدى العجوزان تفهماً، فهي فتاة ناضجة ممتلئة تملأ العين، والرجل ليس أباها الحقيقي، ثمّ إنه سكِير، لذلك قالا:

"ــ حسناً يا ابنتي، ابقي هنا...".

"ـــ لا أريد رؤية وجه ذلك الرجل!".

اكتفى العجوزان بتبادل النظرات، ولم يسألا عن السبب حتّى بعد ذلك اليوم، خاصة وأن زوج أمها غاب وتوارى عن الأنظار مع إحدى عشيقاته.

وفي صباح أحد الأيام، انتصب أمامها زوجها الشاب الذي كانت تحلم به وتتخيّله. كان قادماً من بعيد للعمل، عاملاً موسمياً في أحد مصانع المدينة. حاجباه، عيناه، قوامه، سرعان ما ملك على هاجر كيانها. هو أيضاً أُعجب بها. كانت هاجر تنزل إلى هذه القرية الكبيرة ـــ البلدة، للعمل، فلماذا لا تربط قدرها ومصيرها بقدر ومصير هذا الشاب؟

وفي أحد الأيام، وبتوقيعيهما على سجل كبير في دائرة الزواج في المدينة، وبشهادة صاحبي البيت... تزوجا. لكنها لم تستطع مصاحبة زوجها فوراً. استأجرا بيت الطابق السفلي الذي شُغر برحيل زوج أمها. وضع الزوج الشاب في أحشاء زوجته الشابَّة حسينه، الذي يغفو الآن بجانبها، وانطلق إلى عمله الجديد، وصار يأتيها كل أسبوع محمّلاً بالعلب الملأى، ويظل عندها يوماً، يومين ثمّ يعود إلى عمله. مرَّت الأسابيع والأشهر هكذا. ولم تستطع هاجر مصاحبة زوجها إلاَّ بعد أن وضعت حسينَها.

صاروا الآن ثلاثة على وجه الأرض، هاجر، وزوجها الشاب، وابنهما الوليد!.

زوجها الشاب يكبرها بثمانية أعوام، وكان يعمل طيلة النهار، وعند المساءات يهرع إلى زوجته وابنه، فلا خمرة، ولا نساء غريبات ساقطات. وما إن يضم زوجته الشابة بين ذراعية ليلاً، حتّى يطيِّرها إلى عالم الأساطير، والحكايا الملوّنة بألوان زاهية، الذي افتقدته هاجر منذ زمن بعيد جداً. أمّا هي فكانت تُمضي نهارها في إرضاع طفلها وتنظيفه، وفي طهو الطعام وتجهيزه لزوجها، وفي جلي الأواني، وغسل الملابس، وتقوم بذلك كله بمتعة وبهجة. فقط كان هناك دُوران الأعرج ابن أخت هاشم آغا صاحب معمل حلج الأقطان الذي يعمل فيه زوجها.

كان دُوران يدَّعي بأنه أقرب أصدقاء زوجها، لكن نظرات الرجل لم تكن تلك النظرات. لم ترتح هاجر لنظراته تلك المعروفة لدى النساء، وخاصة الشابّات منهنَّ. وصارت تخشى من أن ينتهز أي فرصة سانحة فيتعلّق بها

ويُسمُعها كلاماً ما، وصار هذا الهاجس يؤرّقها ويطرد النوم من عينيها.

وهذا ما حدث فعلاً في أحد الأيام، إذ نُقل زوجها إلى مشفى المدينـــة إثـــر إصابته بإصابة عمل بسيطة في المعمل. وفيما كانت هاجر تبكي بلوعة وهـــي في طريقها إلى المدينة، رافقها دُوران الأعرج. أوَ لم يكـــن صـــديق زوجهـــا المقرَّب؟ ثم ألم تحدث الإصابة في معملهم؟ وفي الطريق جلسا جنباً إلى جنـــب في السيارة الصغيرة، ووليدها حسين في حضنها، التصق الرجل بها ما وســـعه الالتصاق، وانطلق لسانه من فمه الذي يفوح بروائح الخمر:

"ــ هاجر، اسمعيني، إنك جميلة جداً، ألا تفهمين ذلك من نظراتي؟ زوجك رجل وسيم، أعرف ذلك، لكنه ليس أكثر من هذا يا أمي. وافقيني، واطلبي مني ما تشائين. تعرفين أنني عازب، ولم أتزوج أبداً. وسوف أُســـعدك ســـعادة لـــم تخطر لك ببال....".

لكن هاجر صدَّته بحدّة، وهددته بأن بإمكانها أن تُخبر زوجها إذا ما أعـــاد الكرَّة، ثمّ بعد ذلك...

"ــ وماذا سيحدث بعد ذلك؟ أنا غني. يدي طويلة، وذراعي طويلة...".

"ــ لا جعل الله رجلاً آخر غير زوجي من نصيبي يا دُوران أفندي...".

"ــ فكِّري جيداً، ولا تتسرَّعي!".

"ــ لا داعي لأن أفكر، فقد قلت لك في البداية، ما سوف أقوله فـــي آخـــر الأمر".

"ــ لا ضير في ذلك، فأنا رجل صبور، وسوف أنتظر. وسوف تأتين إلـــيَّ مهرولة يوماً ما، هاجر تعالي متى تشائين، فسوف أنتظر!".

لم تُطل الحديث، وقطعته قائلة:

"ــ تنتظر بلا جدوى طيلة حياتك. وليعميَ الله عينيَّ هاتين إن قلـــت نعـــم لغير زوجي طالما كان على قيد الحياة، هل سمعت؟".

تماثل زوجها للشفاء، وغادر المشفى بعد أسبوع، لكنّه فقد عمله في محلجة عم دُوران. وكان دُوران غائباً عن الساحة، إذ غادر إلى استنبول، ليأكل المـــال هناك.

حارَ الشاب في أمره، ثمّ خطرت بباله تَرِكة وَرِثها عن أمّه في منطقة مـــا

في الشرق. وراح يتحدَّث في أمر الذهاب:

"ــ إذا وافقت أخواتي وأنسبائي، وبعت حصّتي، فإما أن نذهب إلى المدينة، وإما أن أفتح دكاناً هنا وأعمل فيه لحسابي الخاص، فلا حياة لي أو لغيري على أبواب الآخرين، لا يمكن!".

"ــ خذنا معك، لنذهب سويّة!".

لكن الشاب أكَّد أنه لن يمكث هناك طويلاً، بل سوف يُنجز أعماله خلال أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر، ويعود إلى زوجته الشابة وإلى طفله، ولا داعي للانزعاج، فهو يعيش لأجلهما، وهل يمكنه أبداً أن ينسى طفله الجميل؟

"ــ وأنا؟"

"ــ سوف أشتاق إليك أكثر من اشتياقي إليه...".

وهكذا بقيت الزوجة الشابة، وهي تكتم في صدرها خوفها من دُوران الأعرج، ودون أن تحدِّث زوجها عنه بكلمة.

وما زال بقاؤها هذا هو ذلك البقاء.

سبع سنوات، سبع سنوات تامّات مرّت وانقضت على بقائها ذلك.

أجهشت هاجر بالبكاء ثانية.

في هذه اللحظة تماماً تقلَّب طفلها في نومه من جنب إلى جنب. وماذا لو استيقظ ولاحظ عينيَ والدته الدامعتين؟

نظرت إليه بخوف، ولاحظت حاجبيه اللذَين يذكرانها بأبيه ولاحظت أنفه، وشَعره البني الذي يُشبه أيضاً شعر أبيه...

الحمدلله أنه لم يستيقظ... وبانفعال سوَّت وضع ثدييها المنفلتين من صدر ثوب نومها الرقيق. بانفعال... لأنه، ألم يكن قادراً على أن يكتب ولو سطرين؟ سبع سنوات. ولم تكن تعرف متى وكيف سينتهي هذا الفراق الذي استمر سبع سنوات طويلة. ألن يعود أبداً؟ لو لم يكن في الأمر موت لعاد. فعلاً لعاد. وبما أنه لم يَعُد، ولم يسأل ولو بسطرين...

لم يكن ذهنها خالياً من أفكار سيّئة: إذ ربما صادف في البلدة التي قصدها لتحصيل ميراث أمّه، فتاة جميلة جداً وبقي معها. ثمّ إنه لم يعطِ زوجته الشابّة

وطفله الرضيع الذي تركه في حضنها، أي عنوان والسبب أنّه هو نفسه لا يعرف العنوان تماماً بشكل واضح.

تنهَّدت من جديد.

لم تستطع نسيانه. بشاربيه الكثَّين، وضحكته الرجولية، ونظراته الجانبية، ورائحة تبغه، وضمّه لها بين ذراعيه، وغمره إيّاها بالقبلات...

وعندما سعل طفلها سعلة خفيفة، انقطع شريط الخيالات. فنظرت إليه، ورتَّبت وسادته. سيأتي يوم يكبر فيه هذا الطفل، والأسوأ أنه سوف يصبح رجلاً مثل أبيه، وعندما يبدأ بالوعي ألن يسأل عن أبيه؟ ألن يطلب منها معلومات عن أبيه؟

"ــ كذا، كذا، ذهب لتحصيل حصّته من تركة أمّه، ولم يَعُد!" هل ستكون مُقنعة إذا قالت له ذلك؟ وبإمكانه أن يطيل الموضوع فيسأل "ــ لماذا لم يَعُد؟" فأي واحد في مكانه سوف يطيل الموضوع ويبحث ويدقّق ويُقسم الشَعرة أربعين قسماً، وعندما يبدأ ابنها بقطع الشَعرة إلى أربعين قطعة ــ بل إنه بدأ بذلك فعلاً منذ الآن ــ كيف ستطمئنه؟".

"ــ لا أعرف، هكذا ذهب وراح!".

"ــ لماذا؟".

"ــ ليبيع حصّته من ميراث أمّه..."

"ــ طيب، وهل باع حصّته؟".

"ــ لا أعرف.".

"ــ ألم يكتب ولا رسالة واحدة؟".

"ــ لم يكتب.".

"ــ هل نشبت بينكما مشادّة أو ملاسنة؟".

"ــ لا شيء أبداً."

"ــ طيب، كيف يُعقل أن لا يسأل ولو برسالة واحدة؟".

وهذه كانت المشكلة. إذ سوف تخطر ببال ابنها خواطر سوداء، وسوف يسأل يميناً ويساراً. وسيعمل على أن يتلقّى إجابة شافية، حتّى الناس كانوا يتساءلون "لماذا لم يسأل عنها؟"

"... أيمكن أن لا يسأل عنها أبداً، لو كان ممنوناً منها؟ من يــدري، ربمــا طرقت مسامعه مسألة دُوران، فاشمأز ونفر منها، وابتعد عنها!".

وهذا كان همّاً آخر، فإذا لم يسمع أحد بما قالته لدُوران، ولم يعرف بأنّهــا صدَّته وطردته، فإن الله في الأعالي يعرف!

وبعينيها الدامعتين نظرت مجدّداً إلى ابنها. كان مستغرقاً في نوم طفــولي هادئ جميل. كان نقياً كالملائكة، ونظيفاً كالملائكة. هذا الطفل النقي النظيــف، والمتعلّق جداً بأمّه، هل سيحقد على أمّه يوماً ما لهذا السبب؟

أجفلت منه، ثمّ حنقت على نفسها، وراحت تداعب خصلات شَعره البنــي، فيما دموعها الساخنة تنهمر غزيرة من عينيها دون إرادتها. "... يا روحي أنا. يا خروفي أنا. ألا يمكن أن لا تشكّ في أمّك؟ أنت مازلت طفلاً صغيراً. لماذا لم أتزوج ثانية لَوْ لم أكن أحب أباك حتّى الآن أكثر من روحي؟ أنا عانيت كثيــراً من زوج الأم. ولم أشأ لكَ أن تتسحق بين يدي زوج أم، إني أشفق عليكَ، فزوج الأم يضربك، ويجبرك على العمل، ويرهقك. إفهم أمّك، وثق دائماً بأنها لم تشمّ وردة بعد أبيك!".

وفجأة تغيَّرت ملامح الرقّة والحنان في وجهها إلــى عبــوس وتجهــم، إذ تذكَّرت دُوران الأعرج ابن أخي هاشم آغا أحو أكبر الصناعيين الأغنيــاء فــي البلدة، وصديق زوجها حسبما يدَّعي... وعندما غادر زوجها، ربما كــان قــد أسمعه بلسان أحد المقربين منه، إن لم يكن بلسانه هو: "ــ تلك المرأة لا تليــق بك يا سَبعي..." وعندما تساءل زوجها عن السبب، ألا يمكن أن يكون قد أجابه قائلاً: "ــ تلك لها علاقة بابن أخي هاشم آغا!".

لاحقَها وتعقَّبها لسنوات.

وفي إحدى المرّات، كان الليل قد أرخى سدوله بينما كانت عائدة إلى بيتها بعد أن وزّعت الملابس التي غسلتها على بيوت أصحابها وعند حــدود الغابــة ظهر أمامها دُوران الأعرج!

وصلت روحها إلى حلقها. أن تصرخ، أن تصيح، أن تقيم الدنيا وتُقعدها... نعم، ولكن عندها سوف يتجمّع الناس ويتساءلون: "ماذا هناك؟ ماذا يجــري؟". ودُوران الأعرج غني وميسور، وعمّه ذو مكانة في البلدة، وسوف يقفون فــي صفّه فوراً. لذلك عدلَت عن فكرة الصياح والصراخ. حسناً، ماذا تفعل؟ يجــب أن تهرب. فكرة حسنة. كان دُوران الأعرج قد بدأ يحثّ الخُطــا حــين قفــزت

واجتازت الخندق إلى الطرف الآخر، وأسرعت بالفرار.

حسناً ولكن، عندما يكبر ابنها غداً ويسألها عن أبيه، كيف ستفهمه هذه وأمثالها من الحوادث؟ أفهِمَتْه، كيف ستُقنعه؟

حركة بجانبها.

التفتت. ابنها يناديها ضاحكاً بوجه مشرق مضيء:

ـ ماما!

أجابته وقد نسيت كل شيء:

ـ روحي؟

ـ مادَتي!

كانت المرأة الشابّة تضحك كل صباح من مناداة طفلها لها عند استيقاظه كل صباح بقوله "مادَتي" وهو يقصد "ماسَتي". كذلك راحت تضحك اليوم أيضاً ناسيةً بكاءها قبل قليل:

ـ ماسَتي وليست مادَتي!

حاول الطفل جاهداً لكنّه لم يستطع:

ـ ما...د...تي!

أصرّت المرأة على التصحيح، بلا كلل:

ـ ما...سا...تي.

ـ ما...دا...تي.

ـ .....

ـ .....

استغرق ذلك بضع دقائق، ورغم نيّة الطفل الصادقة لم يفلح في لفظ الكلمة لفظاً سليماً. وكانت المرأة ستستمر في تصحيح لفظه، لكنها عدلَت عن ذلك فجأة، ونادته:

ـ حسين!

ـ ها؟

ـ إحزر من رأيت في منامي!

ودون أي تفكير أجاب الطفل:

ـــ أبي...

ثمّ وبعينين ملتهبتين سألها متلهّفاً:

ـــ هل كان قادماً؟

ـــ نعم كان قادماً.

ـــ ماذا أحضر لي معه؟

ـــ أكلات لذيذة.

ـــ وبندقية؟

ـــ وبندقية.

ـــ ودرّاجة بثلاث عجلات؟

- ودراجة بثلاث عجلات.

وبفرح جنوني صفّق بيديه وصاح:

ـــ يعيش أبي!

ثمّ توقّف فجأة. وككل مرَّة سألها:

ـــ متى سيأتي حقيقة؟

وككل مرَّة أجابته المرأة:

ـــ حينما تنتهي أشغاله.

رفع الطفل ناظريه، وجال ببصره في السقف أولاً، ثمّ في جدران الغرفة العارية. منذ سنوات وأمّه تطمئنه هكذا: "حينما تنتهي أشغاله.." ما هذه الأشغال التي لا تنتهي ولا تنفد؟

ـــ لماذا لا تنتهي أشغاله أبداً؟

ـــ لأنها كثيرة.

ـــ إذا كانت كثيرة... فهل سيربح مالاً كثيراً؟

ـــ طبعاً.

ـــ أكثر من أي واحد في هذه البلدة؟

ـــ أكثر.

توقّف ثانية، وجال ببصره مرَّة أخرى في السقف، وفي جــدران الغرفــة، وفي ستارة النافذة البيضاء الملطّخة ببقعة الشمس الصــفراء، وأخيــراً توقّــف ببصره على وجه أمّه، وسألها:

ــ وأكثر من آل علي؟

ــ ومن آل علي...

انفعل، وبسرور بالغ صفَّق بكفّيه الصغيرين:

ــ يعيــ يــ يــ ش!

ــ لماذا؟

ــ عندها لا يجرؤ أحد أن ينظر إلي نظرة جانبيه، أليس كذلك؟

ــ لا يجرؤ.

ــ ....

ــ ....

كان حديث الأم وطفلها سيمتد ويطول كما في كل صباح. لكــن انشــغال الطفل بما في مخيّلته من بواريد ملونة، ومن ألعاب تسير بالبطاريــة كالســيارة والقطار وسيارة الجيب والدرّاجة النارية، ومن أنواع العلكة ببالوناتها، ســرعان ما أنساه أمّه. فاستفادت الأم من الفرصة ونهضت لتجهيز الفطور، ولــم ينتبــه الطفل لذلك، فأبوه سيأتي يوماً ما على كل حال، وليقل من يشاء ما يشاء، فإنــه سيأتي في إحدى الليالي محمَّلاً بشتّى أنواع الألعاب الملونة، ولو كان ابنه يغــطّ في نوم عميق حينها فإنه سوف يداعب رأسه ويوقظه من نومه ويجلسه علــى ركبته ويضمّه ويقبّله.

لكل أبناء الجيران آباء يعودون إلى بيوتهم كــل مســاء، وكــان الأبنــاء ينتظرون على الطريق كل مساء عودة آبــائهم، ثــمّ يهرعــون إلــيهم وهــم يتصايحون: "بابا، باباتي!" ويأخذون ما في أيديهم، ثمّ يسير كــل واحــد مــنهم بجانب أبيه متبختراً مثل بطل صغير، متّجهين إلى بيوتهم. إلاّ حسيناً الذي يبقى وحيداً حتّى وقت متأخر. وحين يبقى وحيداً هكذا يضع يديه خلف ظهره ويستند بكتفيه إلى الجدار، ويفكّر في سبب عدم وجود أب لــه هــو أيضــاً، وتتملّكــه الرغبة في البكاء.

بل كان الطفل يبكي أحياناً، حين يحل المساء ويشاهد أصدقاءه الذين يلعب

معهم مختلف الألعاب من الصباح حتّى المساء، وهم ينسحبون واحداً إثر الآخر بصحبة آبائهم إلى بيوتهم، ويجد نفسه وقد بقي وحيداً. آه لو كان لــه أب هــو أيضاً، آه لو يذهب إلى بيته هو أيضاً مثل الآخرين، آه لو يطلع القمر. فلا يجــد حسيناً في عتمات الليل!

وفي إحدى المرّات راقب بحذر عليّاً ابن الجيران المقابلين لهــم. يومهــا تأخر أبو علي في العودة عن آباء بقية الأولاد، فتملّك القلق والخوف عليّاً وقال لحسين بارتياب: "ــ أيمكن أن يكون قد ظهر لأبي عمل، وأنّه هو أيضــاً لــن يعود بعد اليوم، مثل أبيك؟" لكن أباه أقبل في تلك اللحظة، فهــرع إليــه علــي كالمجنون، وأخذ الصُّمن من يده، ثمّ سارا باتّجاه البيت تحــت ضــوء النجــوم الأزرق الخافت. وحين كان حسين سيبقى وحيداً مثل كل مساء، ســار بحــذر خلف علي وأبيه، ثمّ اجتاز ساحة بيتهم دون أن يلمحاه، وراح من إحدى الزوايا يراقب تحابب الأب والابن، ويسمع حديثهما.

استقبلت أم علي الأب والابن عند الباب، ثمّ دخلوا ســويّة إلــى الغرفــة، وأخذت الأم الخبز من يد ابنها، وجلس الأب والابن على الأريكة مقابل النافذة. كان أبو علي متعباً، والعرق يتصبّب منه، لكنه مع ذلك أجلس ابنه في حضــنه، وداعب شعره، وقبّل وجنيته. وكاد حسين يجهش بالبكاء، لكنه تماسك، إذ يجب أن لا يبكي، فأمّه كانت لا تفتأ تردّد عليه قولها: "ــ يا روحي، أنت أبي، وأنــا أبوك وأمّك معاً، لا تنظر إلى الأطفال الآخرين، فأولئك حفنة صغار مدلّلين. أمّا أنت فقد كبرت بلا أب، لذلك فأنتَ أعقل منهم جميعاً!".

لذلك لم يبكِ.

انسحب من تحت النافذة، وقد احلولك الظلام في الخارج. ومن خلف الغابة الكثيفة والجبال المحيطة بالبلدة بدا القمر مثل كرة حمراء ترتفع رويداً رويــداً، ثمّ صار يجري مُسرعاً في أعماق السماء حتّى ابتعد وصغُر، ومن هنــاك راح يتلألأ بلونه الفضي كأنه الماء الرقراق.

وقف حسين طويلاً، بظهره المستند إلى جدران بيته، الصفيحية المهترئــة، وبضياء القمر المبتعد مسرعاً في أعماق السماء، وبقلبه الصغير المكتوي بنــار غياب الأب.

لماذا ذهب أبوه لإنجاز أعمال لا نفاد لها؟ هو يعرف أنه ذهب ليبيع حصّته

من ميراث أمّه، أي من ميراث جَدّة حسين، ويعود بمال وفير. سمع ذلك كثيراً من أمّه. حسناً، ولكن هل إنجاز هذه الأعمال كلّها ثمّ العودة إلـى البيـت أمـر صعب لهذه الدرجة؟ والد علي أيضاً ذهب ليبيع أرضه الواقعة في إحدى القرى البعيدة، فأنجز أعماله في غضون أسبوع وعاد. لو كان بيع الأرض أو الحصّة المتبقية للإنسان من تركة أمّه صعباً، لذهب والد علي ولـم يعـد بشـكل مـن الأشكال، لكنّه عاد. أمّا والد حسين فإنّه لا يعرف العودة بأي شكل. كانت أمّـه ترى أباه باستمرار في أحلامها، وفي كل مرّة تراه عائداً محمَّلاً بألعـاب أكثـر من ألعاب حفيد الصناعي هاشم آغا.

كانت تراوده أحياناً فكرة أن يكون هو حفيد هاشم آغا. آه لو أنّه كذلك، آه لو أمكن حدوث ذلك، إذن لاشتُرِيَت لــه هو أيضاً درّاجة بثلاث عجلات مثـل درّاجة زَيْنَل. عندها كان سيمتطي دراجته مثل زَينل، وسيتجوّل بها فـي أزقـة البلدة، طبق الأصل مثل زَينَل...

ــ هيا يا روحي، الشاي جاهز...

هل هذا وقته الآن؟ ما معنى "ــ هيا يا روحي، الشاي جاهز..."

فيما هو يتجوّل في أزقة البلدة بدرّاجته ذات العجلات الثلاث؟ إنّـه الآن لا يشتهي الشاي ولا الخبز ولا الجبن، وأمّه تناديه بلا توقّف وكأنّها تتقصَّد تشتيت خيالاته!

لِمَ لَمْ يكن حفيداً لهاشم آغا؟ لو كان، وبالأحرى لو كان كذلك منـذ زمـن بعيد، لكانت لــه هو أيضاً مثل زَينل دراجة بثلاث عجلات، وبـارودة خشـبية صفراء، ودمىً ملوّنة، وعساكر من رصاص، وسيارات رائعة تسير من تلقائها عندما يُشَد نابضها وتوضع على الأرض، ومصباح يدوي يضيء بعينه الواحدة مثل عين الشيطان بمجرّد ضغطه على الزر...

ــ تعال يا ولدي، إني أنتظرك!

زحف نحو خرقة المائدة الممدودة عند طرف الفراش الذي كان جالساً فيه على ركبتيه. وهناك على حافة المائدة استوى وجلس متربّعاً. لا، لاــ لم يكـن حفيداً لهاشم آغا، ولم يكن لديه أب مثل بقيّة الأطفال، كانت لديه أم فقط، وهـذا كل ما في الأمر. حسناً ولكن، هل كان زَينل حفيد هاشم آغا أعقل منه؟ أم أقوى منه؟ أم أسرع منه في الجري؟ لا شيء من هذا أبداً. بل لقد تسـابقا ذات مـرّة فسبقه في الجري. مع ذلك زَينل لديه ألعاب كثيرة، ودرّاجة بـثلاث عجـلات،

وسيارات ودراجات تنطلق مسرعة من تلقائها بعد شدِّ نابضها ووضعها على الأرض، وعساكر من رصاص...

فجأة خطر بباله عمّه دُوران الأعرج. بما أنه عم زَينل الحقيقي فإن أولاد الحي جميعاً كانوا يدعونه "عمّي دُوران"، كذلك كان حسين مثل الآخرين يدعوه "عمّي دُوران".

كان ذلك أيام اشتُريت لزَينل درّاجة حمراء جديدة بثلاث عجلات وكان حسين يتفرَّج مع الأطفال الآخرين بحسرة وانبهار، على دراجة زَينل الجديدة. فهذه الدرّاجة أكبر من سابقتها الزرقاء، وعجلاتها أغلظ، وهي ذات زَرَد. لم يستطع زَينل قيادتها حينذاك، هل ساقاه قصيرتان يا ترى بحيث لم تصلا إلى البدَّالات؟ وقع أرضاً مع الدرّاجة، فأسرع عمّه دُوران الأعرج ورفعه عن الأرض، ثمّ ثبَّت ناظريه في حسين وناداه: "ــ تعال". فأسرع حسين مسروراً، وأركبه "العم دُوران" على دراجة زَينل، فقادها قيادة مدهشة أدهشت حتّى زَينل مرَّة، مرَّة ثانية، ثمّ من جديد مرَّة أخرى...

ــ حرِّك السُّكَّر!

سمع أمّه، لكنه لم يلتفت إليها. أمّا أمّه فقد أحسَّت بأنه يفكّر فيما لا يعرفه أحد، فلم تزد. وماذا ستزيد؟ ألا تعرف أن الطفل يبدأ بالتفكير والشرود في كل مرَّة تُفتح فيها سيرة أبيه؟ وأنّه ليس على لسانه سوى كلمة "بابا" ولا شيء آخر. لنفترض أنَّ أباه غضب منها فلم يعد إليها ثانية. أو أنه صادف في قريته التي ذهب إليها فتاة أجمل منها، أو أكثر منها غنىً ومالاً، فتزوجها ورُزق منها بأولاد. ولكن ما ذنب هذا الطفل البريء ليسحقه سحقاً هكذا، ويتركه وعيناه معلّقتان على الطريق؟

ــ ماما!

تنهَّدت:

ــ روحي؟

ــ عم زَينل ذاك..

تخيَّلت هاجر حاجبي دُوران الأسودين الغليظين، وعينيه اللتين تلمعان بشهوة حيوانية مجنونة، فقالت بحدَّة:

ــ اي، ما به؟

أجفل الطفل وقال:

ــ لا شيء.

ــ كيف لا شيء؟

ــ يعني لا شيء، هكذا...

ــ ألم أطلب منك أن لا تذهب إلى ذلك الرجل الوسخ؟

قال بارتباك:

ــ لكني لم أذهب إليه.

ــ إذن؟

ــ هو جاء إلي.

فسألته وكلها انتباه:

ــ لماذا؟

ــ لقد اشترى جد زَينَل درّاجة جديدة بثلاث عجلات لزَينل، فلم يستطع قيادتها، ووقع. فأركبني عمي دُوران على الدرّاجة، وقُدتها قيادة!

مع اعتراض المرأة ضمناً على ركوب ابنها دراجة زَينل ذات العجلات الثلاث، إلاَّ أنها لم تستطع رفع صوتها، وبدت كأنها اقترفت ذنباً أوقعها في موقف حرج أمام ابنها.

تابع الطفل قائلاً:

ــ أمَّا علي ذاك، فقد جنّ جنونه عندما امتطيت الدرّاجة، نظرَ الوَسِخ إليّ نظرات اشمئزاز، وشتمني!

رفعت المرأة رأسها بحدَّة وسألته:

ــ شتمك؟

ــ شتمني.

ــ لماذا؟

ــ لأن عمّي دُوران أركبني الدراجة، ولم يُركبه هو...

ــ ماذا قال.

هل يكرر ما قاله علي؟ ألن تغضب أمه إذا ردَّد ما قاله علي؟

ـــ ها؟ ماذا قال؟

انطلق السهم من القوس، وما عاد يستطيع السكوت.

ـــ لو كانت أمي أيضاً جميلة مثل أمك...

ـــ هل قال علي ذلك؟

ـــ طبعاً.

ـــ نعم؟

ـــ... لو كانت أمي جميلة، لأركبني عمّي دُوران الدرّاجة أنا أيضاً. فقلت له، لا تلفظ اسم أمي على لسانك، فسوف يأتي أبي، وسوف يجلب لي معه درّاجة ذات ثلاث عجلات. فقال: هيهات، أبوك لن يعود أبداً ولن يجلب شيئاً.

وبعد أن حدَّق في أمه طويلاً، قال:

ـــ سوف يأتي، أليس كذلك يا أمي؟

تأثّرت هاجر أشدَّ التأثّر، وراح صدرها العامر يعلو ويهبط، بحيث كانت ستنفجر بالبكاء لو مسَّها أحد. آه من زوجها، آه من زوجها عديم التفكير، الذي جعل من زوجته مضغة تلوكها ألسن الكلاب دون أن تقترف ذنباً أو ترتكب إثماً.

ـــ ثمّ تشاجرنا أنا وعلي، وفرَّق العم دُوران بيننا، وقال لي...

سكت خائفاً. فسألته أمه بوجه عابس:

ـــ ماذا قال؟

ـــ ألا تحتدِّين؟

ـــ لن أحتدَّ.

ـــ بل سوف تحتدِّين، ألا أعرفك؟

ـــ لن أحتدَّ، فقل.

ـــ قال: لو كنت ولدي لاشتريت لك دراجة مثل هذه، ولما تفوَّه أحد عنك بكلمة.

انتصبت هاجر فجأة مثل لبؤة وسألته:

ـــ بمَ أجبته عندما قال ذلك؟

ـــ ....؟

ـــ ألم تقل لـــه أنا لدي أب مثل الأسد، وسوف يأتي يوماً، وسوف يجلـــب لي معه ألعاباً أجمل وأحلى من كافة ألعاب الآخرين؟ هـــا؟ ألـــم تقـــل ذلـــك؟ أجبني يا!

وقف الطفل حائراً، مرتبكاً أشدَّ الارتباك، إذ كان يعرف أنه أمّــه ســـوف تحتدَّ هكذا تماماً.

ـــ إني أخاطبك!

وكمقترف ذنباً نظر إلى أمّه وسألها:

ـــ ماذا؟

ـــ ألم تستطع أن تقول أبي كذا وكذا، وسوف يعود، وسوف يشـــتري لـــي أجمل الألعاب، ولا أريد أباً آخر غير أبي؟

ورغم أنه لم يقل ذلك، أجابها:

ـــ قلت، أيمكن أن لا أقول؟

**

II

كانت الأيام تمضي مسرعة بلا توقّف.

لم يكن هناك قمر فوق، في هذه الليلة. هناك نجوم كبيرة تتلألأ في السماء اللازوردية الصافية. وعلى ضوء هذه النجوم المتلألئة في السماء، كان هو يجري لاهثاً، يجري والأعشاب والشجيرات تحفّ حفيفاً.

إلى أين سيصل به هذا الجري؟

هل هناك مكان يجب عليه الوصول إليه؟

لا يعرف. فقط كان يجري، والأصح، كان يجري هارباً، خوفاً من الاعتقال.

كانت الدغلة كثيفة، والشجيرات كثيرة متراصّة، وكانت دغلة الشجيرات هذه تسمى "مرعى النمر"، وأوراق شجيراتها تلمع برّاقة تحت ضوء النجوم.

توقّف برهة، يلتقط أنفاسه، ونظر فيما حوله، ثمّ التفت بغتة إلى الخلف، وراح ينظر إلى ما خلّفه بعيداً وراءه، يلفّه حَذَر وحشٍ مجفل، وفي وجهه المتصبّب عرقاً لهيب حرائق، وفي عينيه ألسِنة من ذلك اللهيب...

هل هو خائف؟

لا يعرف، لأنه لم يكن يفكر في شيء تقريباً في تلك اللحظة. الشيء الوحيد الذي يفكر فيه هو أن لا يُعتقل بسبب قيادته للفلاحين الذين أقدموا على إحراق المزرعة.

وماذا بعد؟

بعد... قد يسهل الأمر، قد يعبُر جبال كاوور، ويجتاز أرض الوطن، ويُلقي بنفسه إلى عربستان. كانت سورية تعني لديه عربستان، وكذلك العراق عربستان، ومصر عربستان، والأردن، ولبنان. محصّلة الكلام، كل ما خلف جبال كاوور من أوّله إلى آخره يعني لديه عربستان. وما أن يُلقي بنفسه إلى عربستان، يكون قد نجا. خمس سنوات، عشر سنوات، عشرين سنة إذا اضطره الأمر...

ولابد من صدور عفو حتّى ذلك الحين، عندها يعود إلى وطنه. طبعاً سوف يعود. واستهان بكل شيء. استهان حتّى بعبور جبال كاوور، وحتى بغربته في عربستان، واختبائه هنا وهناك، وجوعه وعطشه، وطول شَعره ولحيته بسبب اختفائه حتّى عن عيون الطيور الطائرة.

كان بطوله وبمنكبيه العريضين يبدو كعملاق، يحسب الناظر إليه أنه يأكل خروفاً صغيراً مشوياً مع عدّة أرغفة من الخبز، ثمّ يشرب بعد ذلك سطلاً كبيراً من الماء. وجهه غير الواضح القسمات تحت ضوء النجوم، لم يكن جميلاً، لكنه لم يكن قبيحاً أيضاً، إنما ينمّ عن رجولة تامة. أمّا جسمه الضخم فيعبِّر عن بأس وقوة رجل حقيقي، يبدو كأنه لو أمسك بيده بلطة ودخل الغابة، لرمى الأشجار المتطاولة ذوات الجذوع الضخمة، أرضاً واحدة إثر الأخرى، لوحده ودون أية صعوبة. أو أنه يستطيع أن يرفع بكتفيه عربة محمَّلة سقطت في الوحل، وعجزت الثيران عن سحبها وانتشالها.

كان يبعث في النفس هذا الشعور!

فهل هو كذلك تماماً؟

وهل يستطيع القيام بكل ذلك فعلاً؟

بحذر غير محدود، مجفل من أدنى حركة، حاول التقاط أنفاسه، ثمّ دخل وغاب في غياهب ظلام بحر الدغلة الكثيفة.

وحين خرج كان على أطراف بلدة كبيرة خالها قرية. أنفاسه تتتابع. توقَّف. رائحة غريبة. استمع إلى نباح بعيد لكلاب كبيرة. كل الكلاب التي على وجه الأرض تتشابه تقريباً. إنه يعرف الكلاب جيداً! حذار من أن تشمَّ رائحة غريبة... فإذا ما شمَّ أحدها هذه الرائحة يبدأ بالنباح. وعندها، فكأن أمراً قد صدر إليها، إذ يبدأ كلب آخر بالنباح، وبعد قليل آخر غيره، وفي النهاية تنبح الكلاب جميعاً، كبارها وصغارها، ذكورها وإناثها. كائناً من كان الغريب،

وأينما كان مختبئاً أو مختفياً، حتّى لو أشهر مسدسه وصوَّبه عليها!

كان قد نسي مسدسه العاري الذي يحمله في يده، حقيقة نسي هذا المسدس الأسود الذي بقيت فيه رصاصة واحدة أخيرة، مع أنه نفعه كثيراً في الهرب والإفلات من مطارديه، بعد أن أحرق المزرعة.

وفجأة شعر بألم جرح الرصاصة في كتفه، وبلا إرادة منه تسلَّلت يده من تحت قميصه الممزق الدامي وزحفت نحو الجرح الذي في كتفه، سحب يده، ونظر: دم!

أهو من الرصاص الذي أطلقه عليه رجال الدرك، أم من رصاص حرّاس المزرعة التي أحرقها؟ كائناً ما كان، لا وقت لديه للتفكير بهذا أيضاً. فهو مُنهك جداً، وحالته لا تسمح له بمتابعة الهرب ولكن، عليه أن يجري هارباً، عليه أن يتخلّص من الاعتقال، ومن الرمي في السجن، ثمّ من حبل المشنقة بسبب جريمته الكبرى!

ومن أعماق البعيد، إنما أقرب كثيراً من ذي قبل، تعالى فجأة نباح كلب. طار صوابه، وازداد اضطرابه إذ لاحظ أن هذا النباح كأنه جواب للنباح الأول. وزاد حذره، فشهر المسدس الذي في يده. حسناً ولكن ألن يكون في استعمال المسدس ضد الكلاب مخاطرة كبيرة؟ هذا النباح الذي يقترب ممزقاً هدوء ليل القرية ــ لم يكن يعرف أنها بلدة، وكان يظنّها قرية ــ والذي يتضخم كلّما اقترب بانضمام نباح كلاب أخرى وأخرى، ألا يعني أن خطراً ما يقترب منه؟ إذن فقد شمَّت الكلاب رائحته، وعليه الآن أن يعرض عن استعمال المسدس أو غيره، وأن يطلق ساقيه للريح من جديد.

غاب ثانية في غياهب ظلام بحر الدغلة الكثيفة.

وحين خرج كان قد وصل إلى مشارف البلدة، ونباح الكلاب المتكاثرة خلفه. وقف متقطع الأنفاس. جرحه يؤلمه، ورأسه يدور، وعيناه تسودَّان، وساقاه تعلنان العصيان وعدم قدرتهما على حمل جسمه الضخم. جلس القرفصاء. جرحه يؤلمه بشدّة. هل كان خَوَرُ قواه ناجماً عن جرحه يا ترى؟ ربّما كان ناجماً عن نزفه للدم. نزيف الدم، والجرح الذي بدأ يبرد، والذي لن يستطيع تحمّل آلامه المُبرحة إذا ما برد تماماً، والذي قد تسوء حالته، وقد ينتن ويلتهب إذا ما بقي بضعة أيام بلا عناية وتنظيف، وإذا لم يُدهن بالمراهم.

وللحظة خطرت بباله زوجته التي تركها في قريته مع طفله الوليد."ــــ

حبيب" كانت قد قالت له: "... إني أرى أن عاقبة هذا الأمر ستكون وخيمة. سوف تفتح على رأسك باباً. أنا فداك. لقد قتلت مظفَّر بيك وألقيت به جثّة هامدة، لأنه صفعك، ونمت على ذلك ومرَّت المسألة ولم تُكشف. لكن دعك من إحراق مزرعته. فيد الحكومة طويلة، وذراعها طويلة. وسوف يكشفون ويعرفون الذي حرَّض الفلاحين، وسوف تُلقى تبعة الجريمة على كاهلك وحدك، وسوف تنفجر القرعة فوق رأسك. وغداً عندما تحلّ المصيبة، فإن أباك وأشقاءك سوف يجد كل منهم مبرراً ويتنصّلون منا. إن كنت لا تهتم بي فارحم ابنك!".

لم يكن هذا وقت التفكير بهذه الأمور، فقد صار الذي صار، ومضى الذي مضى. الشيء الوحيد الذي يجب التفكير فيه الآن هو كيفيّة إيجاد مكان له للاختباء فيه بضعة أيام، ثمّ الفرار من أراضي الوطن!

نظر إلى المسدس الذي في يده: هذا هو المسدس الذي أدّى حق المزارع الكبير مظفّر بيك!

المزارع الكبير، مظفّر بيك الذي وصل طنينه ورنينه إلى السماء!

فعلاً كان الرجل أشبه بملك خلق الجبال الصغيرة. فهو يملك آلاف الدونمات من الأرض، ومثلها من أراضي أملاك الدولة، وبقدرها أراضي الفلاحين. جُهْدُ وتعب آلاف العمال سنوياً. آلاف بالات القطن التي تباع وتُوضع أثمانها مئات آلاف الليرات في حسابه الجاري في المصرف. سيارته الخاصة الحديثة، اليوم هنا، وغداً في أنقره، وبعد غد في استنبول، باريس، روما، مونت كارلو... أمامه كل ما يشتهيه من طعام وشراب، وخلفه ما لا يشتهيه. أعلى وأرقى مظاهر الأبّهة والترف. الأسبوع ثمانية وأيامه تسعة والسيارات الخاصة الملأى بالنساء الفاتنات لا تفتأ تنقلهن إلى المزرعة التي تمور بهن وتضجّ بأصواتهن الناعمة الساحرة.

فعلاً كان الرجل يظن نفسه مَلِكاً، ويتصرف على هذا الأساس.

وكان الفلاحون يغضّون الطرف نوعاً ما عن كل هذا. لكن الرجل ازدادت غطرسته، وازداد جبروته، ولم يعد بالإمكان إيقافه عند حد، ولو لم يضم أراضي وأملاك الفلاحين المسجلة بأسمائهم في سجلات الطابو إلى أراضيه وأملاكه، ثمّ ينتسب أخيراً إلى الحزب الديمقراطي المؤسَّس حديثاً...

امتقع وجه حبيب.

مع أنهم كم من الإنجازات كانوا ينتظرون من هذا الحزب الجديد. فكم وكم من الظالمين الكُثر أمثال مظفّر سوف يحاسبهم هذا الحزب، وسوف يُخرج من أنوفهم الحليب الذي رضعوه من أمهاتهم، حسبما يقال. ولكن عندما نشرت إحدى الصحف الديمقراطية في المدينة في صبيحة أحد الأيام بعنوان عريض نبأ انتساب مظفّر إلى الحزب... خاب أمل حبيب وأمثاله ممّن كانوا يفكرون مثله، وأيقنوا أنه "لا فائدة من هؤلاء أيضاً!" إذ كيف يمكن للمظلومين أن يروا أولئك الذين ظلموهم على مدى سنين طويلة، وقد صعدوا فجأة فوق رؤوسهم في قيادة حزب "الحق" الذي تجمّع فيه المظلومون؟

كانت هذه هي القطرة الأخيرة.

ورغماً عنه، تذكَّر حبيب صقرَ الظالمين مظفَّر، وتذكَّر الليلة التي قُتل فيها صقر الظالمين هذا. كانت ليلة كهذه الليلة تتلألأ سماؤها بالنجوم، بلا قمر. وكانت هناك دغلات مكوَّرة كثيرة في الفضاء الممتد بين قريتهم والمدينة. كَمُن حبيب للرجل في إحدى هذه الدغلات. ودخل الرجل البدين القصير بسيارته الكاديلاك السوداء في الطريق الذي يمرّ بين الدغلات. وقبل مضي وقت طويل أنيرت المنطقة وصارت نهاراً بفعل أضواء السيارة الكاديلاك القوية. في تلك اللحظة أبصر الرجل كيساً مليئاً ببذور القطن مُلقى على الأرض على بعد أمتار قليلة أمام سيارته، ضغط على الفرامل بشدّة. وقفزَ من السيارة، يريد أن يسحب كيس بذور القطن إلى حافة الطريق، ويفتح الطريق لمرور سيارته. كان الدَّيوث مثل البهلوان، فبسحبة واحدة سحب الكيس إلى حافة الطريق تماماً، لحظتها أيضاً هكذا كان في يده هذا المسدس نفسه الذي في يده الآن، وعلى بعد خمسة أمتار من الكاديلاك، ومن خلف إحدى الدغلات صرخ به حبيب:

"ـــ مظفَّر**!**"

استدار مظفّر القوي البدين القصير ربما بخوف من هذا الصوت الهادر، في هذه الساعة من الليل، وتحت ضوء النجوم، ربما كان سيمدُّ يده إلى مسدسه، لكن حبيباً لم يُمهله، إذ سرعان ما ضغط على زناد المسدس الذي في يده.

طار صوابه وقد انتبه فجأة إلى نباح كلاب. أواه. الكلاب مرَّة أخرى، ولكن بمجموعات أكبر من المرّات الأخرى، وأقرب كثيراً هذه المرّة.

إنها قادمة وهي تنبح. ليست قادمة، بل مهاجمة. عليه أن يهرب وينجو. الشيء الوحيد الذي يتوجب عليه فعله هو الهروب والنجاة. وإلاَّ فهناك رجال الدرك، والسجن، والمحكمة، والمحاكمة، والحبل في صبيحة إحدى الليالي!

كان متعباً، منهكاً، خائر القوى، لكنه رغم ذلك، نهض من مكانه، وبقوة فوق طاقة البشر، التقط أنفاسه واستجمع قواه المتهالكة، ومن جديد راح يجري هارباً.

كان يظن أنه هرب ونجا من الكلاب. ولكن من أين؟ وليس هناك مكان يلجأ إليه. يكاد يسقط، وعيناه تسودّان، وخيالات سوداء تتطاير أمام عينيه المسودّتين.

وفيما هو يجري في طرف البلدة التي لا يعرف أحد في أي درجة من درجات النوم تغط بيوتها المُعتمة النوافذ. لفت انتباهه فجأة ضوء أصفر. توقف.

هناك إذن بيوت مستيقظة في هذا الحي المتطرّف من البلدة الغافية.

* *

III

كان ضوء البيت المستيقظ الأصفر، ينبعث من مصباح صيد لدى هــاجر. وهو بالكاد يضيء صدرها نصف المكشوف وهي منحنيــة تغســل الغســيل، ويضيء طست الغسيل الذي أمامها.

كانت هاجر، كما هي دائماً تغسل فرش ولحف ووســائد ومــلاءات أحــد فنادق البلدة، وتغسل غيارات زبائن الفندق المتّسخة. فتأخذ بين قبضيتها قطعــة الغسيل المنقوعة جيداً بالماء والصفية وتفركها وتدعكها بقوّة، ثمّ تغطســها فــي الماء وتقلّبها، ثمّ تأخذها ثانية بين قبضتيها...

مسحت بظاهر قبضتها الملأى بالصابون حبّات العــرق المتجمّعــة علــى نحرها. بعد أن استلم هؤلاء "الديمقراطيون" من أمثــال عــم الخنزيــر دُوران الأعرج، السلطة، أثروا واغتنوا بحصــولهم بســهولة علــى اعتمــادات مــن المصارف، فاستبدلوا بيوتهم العتيقة المهترئة، وبنوا أبنية من طابقين أو ثلاثــة، واقتنوا السيارات، والبرادات، وأجهزة الراديو، واشتروا لأولادهــم ولأحفــادهم درّاجات بعجلتين وبثلاث عجلات، ولأنهم اشتروا فــوق كــل ذلــك غســالات كهربائية، ما عادوا يسمحون للنساء الغسالات أمثال هاجر بغسل غسيلهم، مــع أنها كانت سابقاً تذهب إلى بيت هاشم آغا عم دُوران الأعرج، وتغســل جبــال غسيلهم، من طلوع الفجر حتّى ساعات متأخرة من الليل ثمّ تغادر.

لو وضعنا دُوران الأعرج على طرف، فإن هاشم آغا وزوجتــه وبناتــه، أناس كرماء لطفاء يقدّرون مشاعر الآخرين. فقط دُوران... وهــاجر ترغــب دوماً في الذهاب إليهم، لولا وجود ذلك السافل الكبير. فهناك على الأقل يلعــب

حسين مع زَينل إبن إبن هاشم آغا كأخوين، ويمتطي درّاجة زَينل من الصباح حتّى المساء فيبتهج ويُسَرُّ.

هل كان يبتهج ويُسَرُّ فعلاً؟

لا تعتقد. لأنه في مساءات مثل تلك النهارات كان يعود إلى البيت مقطِّباً، فلا يأكل ولا يشرب، ويندس في فراشه، فسند رأسه إلى صدر أمّه الواسع، ويغفو.

نصبت جذعها فوق طست الغسيل. اوووووف ظهرها... يا للوجع القاسي! عدم وجود زوج من ناحية، وهذا الغسيل الذي لا ينفد ولا ينتهي من ناحية أخرى، والتعب...

مَمَّن، ومن زوجة من هي أبشع؟

وكما في كثير من الليالي، اجتاحتها بقوة نيران رغبة أنثوية عارمة...

لقد رأت زوجها في الحلم ليلة البارحة أيضاً.

هل كان زوجها عائداً من حيث ذهب، أم أنه لم يذهب أبداً؟ لا تعرف. الرجل عندها، وابنها حسين يغفو نائماً بقربهما.

يدا زوجها المفتولتان المشعّرتان بساعديهما القويّين تتجوّلان في جسدها، وتتحسَّسان أكثر الأماكن الأنثوية حساسية وأكثرها إثارة، وأكثرها تهييجاً. فكادت تجن هيجاناً وقد التصقت بالرجل التصاقاً شديداً. ومن ناحية أخرى كانت تعرف أنها إنما ترى حلماً، وتجاهد نفسها كيلا تفيق منه، لذلك لم تسأله "ــ لقد ذهبت لتحصيل حصّتك من ميراث أمك، فمتى عدت؟". فهي تريد لهذا الحلم أن يطول ويطول ويستمر، وأن تبقى يداه القويتان تتجوّلان في المنابع الأكثر حساسية وإثارة وتهييجاً.

ما صار. صوت ابنها حسين: "ــ ماما!"

استوت مرّة أخرى فوق طست الغسيل، ثمّ مالت عليه ثانية وعادت تغسل. ففي كل مرَّة ترى فيها زوجها في الحلم، وفي اللحظة التي يهمَّان فيها بفعل الحب، يأتي صوت ابنها ويبعثر الحلم:

"ــ ماما!"

وقد علمت من أحاديث الجارات العرائس الشابات، والأرامل المسنَّات أنهنَّ جميعاً يعانين من هذه الحالة. فما أن يدخل زوج إحداهنّ أو عشيقها أو حبيبها

في حلمها وما أن يبدأ بالعربدة حتّى يظهر من لم يكن في الحسبان ويبعثر الحلم ويشتته. فهل هذا هو سحر الحلم يا ترى؟

لكنها وإلى أن صاح حسين "ــ ماما!" كانت في منتهى الهيجان بلمسات زوجها. ولو لم يصرخ الطفل في اللحظة المناسبة تماماً، لكان الرجل...

استوت مجفلة فجأة فوق طست الغسيل. إذ دلف أحدهم من باب الحوش مثل طائر ضخم وسقط عند المدخل. قفزت من مكانها وهي تردّد "بسم الله الرحمن الرحيم!". كان رجلاً غريباً ممدَّداً على ظهره على الأرض بلا حراك، عند الطرف الداخلي لباب باحة الدّار المفتوح، ومصباح الصيد المعلّق بمسمار على باب الغرفة، يضيء الغريب بضوئه الأصفر الباهت، وبالأصح يضيء التلّة الصغيرة الغريبة التي سقطت وتمدَّدت على الأرض.

قفزت هاجر من مكانها وهي ترتعد، وصاحت:

ــ من أنت يا هذا؟ من أنت؟

نظرت فيما حولها حائرة مذعورة، ويداها مغطاتان برغوة الصابون وصدرها الواسع يعلو ويهبط. راودتها فكرة الاستغاثة وطلب النجدة من الجيران. وتبيّنت على ضوء مصباح الصيد المضيء من بعيد، أن هذا الممدّد على ظهره على الأرض رجل ضخم. وبرق في ذهنها بريق: حذار، هل هي حيلة من حيل دُوران الأعرج؟

نظرت فيما حولها خائفة، وقبضتاها مضمومتان بقوة. لماذا لم تغلق باب باحة الدار هذه الليلة، وهي التي تغلقه بإحكام كل ليلة؟ ألا تعرف كيف يدور دُوران الأعرج الكلب حولها؟ لو كان الباب مغلقاً لما استطاع هذا الرجل كائناً من كان أن يدخل إلى الداخل، ويرتمي عند حافة الباحة. فدّوران الكلب ابن الكلب لا يفتأ يدور حولها ويلاحقها تماماً مثل كلب ضال، ويهدّدها قائلاً: "ــ هاجر... تعالي بالحسنى، وإلا والله، بالله لأكنَّ زانياً بأمي سوف آخذك بالقوة وبالشر!".

ولشدّة حنقها تنقلب هاجر إلى مجنونة هائجة وتصيح فيه:

"ــ امشِ في طريقك أيّها الكلب الضال، فأنا لست ممّن تعرفهنّ، يدك طويلة، وذراعك طويلة، ألم يبق في هذه البلدة الكبيرة غيري؟".

"ــ لم يبقَ يا هاجر. إن كان هناك أحد فأنتِ، وإن لم يكن فأنتِ!"

"ــ اغسل يديك مني، فلا خير لك مني يا دُوران، عملك هذا لن يوصلك إلى نتيجة حسنة. أنا لن ألتفت وأنظر إلى رجل غريب، طالما أن لي زوج مثل الأسد على قيد الحياة!".

فيطلق دُوران قهقهة ويقول:

"ــ لو كان حيًّاً لسأل عنك بسطرين يا ساقطة!"

"ــ إن كان ميتاً يجب عليّ أن أتأكد من موته. لكني عندئذ أيضاً لن أقول لك نعم، لتعلم هذا!"

"ــ لماذا؟ ما الذي لا يعجبك في شخصي؟".

"ــ أنا أيضاً لا أعرف، لكني أحسّ عندما أراك كأنني أرى خطيئة أمي...".

"ــ خلاصة القول؟".

"ــ لا خير لك مني!".

"ــ حسناً، إن كنتُ دُوران فسوف أوقع بكِ...".

"ــ ... ...".

"ــ ... ...".

تذكّرُها لكل هذه الأمور كوميض البرق، زاد من خوفها، وراحت ترتعد، كيف لا، وها هو قد أوقع بها، وأدخل شخصاً غريباً إلى باحة دارها. ومن يدري أنه لن يحضر هو بعد قليل، وربما مصطحباً معه بعض أصدقائه السفلة أمثاله، ويحدث إساءة ما؟ وماذا لو أمسكت بالرجل الآن، وصاحت وصرخت وجمعت الجيران جميعاً في باحة دارها، وألقي القبض عليه، وفي المخفر قال الرجل: "ــ هاجر هي التي أدخلتني إلى بيتها!"؟

احتدّت وتأثرت لدرجة البكاء. "ــ الوحدة، أه من الوحدة، وعدم وجود أحد!" قالت في نفسها وأردفت: "ــ لو كان لي زوج أو أب أو أم أو أخ مثل الأخريات، فمن كان يستطيع أن يخدشني؟ بل من كان يجرؤ على ذلك؟".

لسنوات وسنوات لم تُدخل إلى هذا البيت رجلاً آخر غير زوجها إذ كانت واثقة أن زوجها سوف يظهر ويعود في يوم من الأيام، وهي ما زالت على عصمته، بمعنى أنها شرفه، والمحافظة على هذا الشّرف حتّى النهاية دَين في عنقها. والله يعلم دخيلة نفسها. ولم تكن على غير علم بالتصرّفات الشائنة التي

تتصرفها النساء اللواتي لا أزواج لهنَّ، بل وبعض الزوجات مِن خلف أزواجهن. لكن ليكن، فهي مع غير زوجها....

نظرت مجدَّداً بخوف وارتياب إلى الرجل الممدَّد على الأرض.

من هذا الرجل؟ ما شأنه؟ إذا كان مأجوراً لدُوران فلماذا ينام؟ لماذا لا يتحرك؟ لماذا لا يتكلم؟ هل هو جريح ينازع؟ هل رموه بالرصاص؟ لو أنهم رموه بالرصاص لكان المفروض أن تسمع صوت إطلاق الرصاص.

حسناً وبعد؟

وتحسُّباً لأي طارئ تناولت بهدوء فأساً صدئاً مرمياً في أحد الجوانب وبحذر شديد اتَّجهت نحو الرجل الممدَّد على الأرض بلا حراك قُرب الجهة الداخلية للباب. فإذا كان الرجل مأجوراً لدُوران الأعرج، ونهض وأراد أن يحتضنها فسوف تعمل اللازم بالفأس دون أي تردّد أو تفكير.

لكن الرجل الممدَّد على الأرض لم ينهض، بل ولم يتحرك.

مالت هاجر عليه، وحاولت أن ترى وتتبيّن وجهه، لكنها لم تستطع التعرّف عليه على ضوء مصباح الصيد الأصفر الباهت. إنه رجل ضخم ذو لحية سوداء خفيفة تغطي وجهه العريض. هل هو مسن؟ أم أنه شاب أطلق لحيته؟ على كل حال هو ليس من الناس المعروفين في البلدة.

ولكن من هو؟ ما شأنه؟ ما عمله؟

وللحظة تصرّفت بعصبية مفاجئة. فسواء كان من هذه البلدة أم لم يكن، هو في النهاية رجل غريب! لماذا جاء وارتمى في باحة بيتها الذي لم يجرؤ أي رجل على أن يخطو فيه خطوة واحدة على مدى سنوات طويلة؟ وماذا لو أن جاراتها ذوات الألسنة الطويلة، اللواتي يغرن على أزواجهن منها رأينَه ورحن يتقوّلن عليها؟

لكزت الرجل بطرف قدمها:

ــ هيا، انهض من هنا!

لم تبدر عن الرجل أية حركة.

فازدادت حدَّتها:

ــ أقول لك انهض من هنا، وإلا فوالله وبالله سوف أصرخ الآن وأجمع الدنيا!

ـــ ... ...؟

ـــ انهض، انهض، هيا يا هذا!

ـــ ... ...؟

ـــ إني امرأة أرملة، ولا أريد أن تشاع الأحاديث والأقاويل عني، انهض، هيا انهض!

حبيب الذي قتل رجلاً، والذي قاد عملية إحراق مزرعة، حاول بضعف يثير الشفقة، أن ينهض. لمح الفأس في يد هاجر، فارتسم للحظة طيف ابتسامة طفولية على وجهه الملتحي الذي يضيئه ضوء مصباح الصيد الصغير المعلّق على باب البيت، ثمّ استند على الأرض بيديه الضخمتين وساعديه القويين محاولاً النهوض:

ـــ لا تخافي يا أختي، فلن يصيبك مني أي ضرر!

لا يمكن معرفة ذلك:

ـــ يصيبني أو لا يصيبني. هيا انهض واذهب من هنا، فأنا امرأة وحيدة، ولا أريد أن أكون عرضة للأقاويل والاتهامات بسببك!

ـــ صحيح يا أختي، أنت محقَّة.

وفيما كان ينهض، يبدو أن أحد ساعديه القويين لم يتحمل ثقل جسمه فالتوى تماماً عند الرسغ، وهوى جسمه على التراب ثانية، فأنَّ الرجل أنيناً نابعاً من أعماقه:

ـــ اوووووف يا أمي اوف. ليتك لم تلديني!

هذا الأنين، وهذه الكلمات المقهورة، أعاد هاجر إلى اتزانها. هذا إنسان متعب فعلاً، أو مريض. ربما كان غريباً، ولا يمكن أن يكون عميلاً لدُوران الأعرج. ولم تفكر، ولم تستطع أن تفكر في كيف ولماذا لا يمكن أن يكون عميلاً لدُوران.

ألقت الفأس من يدها إلى جانب.

التصقت بالغريب الضخم تريد مساعدته في محاولته الثانية للنهوض، فأحاطت بكتفيه بقوة وسحبته من يده اليسرى دفعة واحدة.

أنَّ الرجل ثانية أنيناً مجلجلاً:

ـــ اوووووف يا أمي!

نظرت هاجر إلى يده. كانت يده اليسرى غارقة بالدم. سألته بتأثّر:

ـــ هل أنت جريح؟

تنهّد الرجل:

ـــ أنا جريح يا أختي.

ـــ لماذا؟ هل تشاجرت؟

ـــ تشاجرت يا أختي، فصوّبوني.

تراجعت هاجر:

ـــ صوّبوك؟

ـــ صوّبوني.

أمسك بغتة عن الكلام، وفكّر في أنه إذا أخبرها بأن رجال الدرك أو حراس المزرعة التي قاد عملية إحراقها، هم الذين صوّبوه. وبما أن كل الأطراف محاصرة، فقد يلقى القبض عليه، وإذا ما ألقي القبض عليه فهناك السجن، ثمّ الحبل!

فابتدع:

ـــ لي أعداء، إما دمي وإما دمهم. إنها مسألة ثأر. وهم خلفي وسوف يقتلونني إذا ما لحقوا بي. الموت أمر الله. لكنه سيكون محزناً جداً إذا متُّ قبل أن آخذ بثأري وأنجز ما بدأته.

أيقنت هاجر أنه ليس عميلاً مأجوراً لدُوران الأعرج:

ـــ هكذا إذن؟

ـــ هكذا يا أختي.

ـــ لماذا لجأت وارتميت في داري؟

ـــ لا أعرف. لابدّ أنني لمحت ضوءاً.

ـــ هي مسألة ثأر إذن؟

ـــ مسألة ثأر.

أنَّ حبيب مرة أخرى تحت وطأة ألم شديد.

جثت هاجر بلهفة قربه:

ـــ ما بك؟

ـــ جرحي.

ـــ هل يؤلمك؟

ـــ يؤلمني.

ـــ هل يؤلمك كثيراً؟

ـــ لا يمكن أن تتصوري، فقد مضت عليه عدّة أيام، وقد يلتهب إذا لم يُغسل ويُنظّف. آه ممّا يمر برأسي... لكني حتّى ذلك الحين، سوف أنهي عملي وأقطع خبرهم، ثمّ بعد ذلك...

أسندَ ساعديه القويين على الأرض وهمَّ بالنهوض:

ـــ يا الله!

بصعوبة، وبصعوبة بالغة جداً، نهض. كان متعباً منهكاً خائر القوى بحيث لا يستطيع الوقوف على قدميه. وهو وإن خطا مترنّحاً بضع خطوات نحو باب الدار، أمام نظرات المرأة المشفقة، إلا أن عدم قدرة ساقيه المتعبتين على حمل جسمه الثقيل، جعله ينقلب ويهوي على الأرض، مثل شجرة دلبة ضخمة.

أسرعت هاجر إليه:

ـــ هل أنت منهك جداً؟

ـــ جداً.

ـــ لماذا؟

ـــ ركضتُ طويلاً، طويلاً، وفقدتُ دماً كثيراً يا أختي.

هاجر التي ما زالت حذرة، قالت بعد أن نظرت حولها بارتياب:

ـــ أنت لست من هنا، أليس كذلك؟

ـــ لستُ من هنا يا أختي.

ـــ ماذا تفعل هنا؟

ابتدع ثانية:

ـــ أعدائي هنا.

خطر دُوران الأعرج ببالها. حذار من أن يكون هو عدوه!

ــ إذن عدوّك هنا؟

ــ هنا.

ــ من هو؟

ــ لا تعرفينه.

حب الاستطلاع زاد من لهفتها:

ــ ربما أعرفه.

وبدلاً من الإجابة تعمَّد حبيب الأنين.

أصغت هاجر للحظة إلى الليل الذي يردّد أصداء نباحات كلاب من بعيــد، ثمّ سألته:

ــ هل رأى أحد دخولك إلى هنا؟

لم يفهم حبيب السؤال:

ــ إلى هذه البلدة؟

ــ لا. إلى بيتي.

ــ لا يا أختي.

ــ هل يعرفك أحد في هذه البلدة غير أعدائك؟

فَهِمَ خشية وحذر المرأة فأجاب:

ــ لا أحد يا أختي. لا تخافي.

وبأمل يملأ نفسها، وبلهفة سألته:

ــ هل تعرف دُوران الأعرج؟

فكَّر لحظة:

ــ لا أعرفه.

ــ إذن فقد ارتكبت جناية أخذاً بالثأر؟

تنهَّد:

ـ لم يكن الأمر بيدي يا أختي. لقد انطلق السهم من القــوس، ولــم يكــن أمامي إلا أن ألطِّخ يدي بالدم، لذلك عليّ أن أنجز ما بدأته. أولئك قتلــوا أبــي وأشقائي منذ زمن، كنت صغيراً حينها. الدَّور عليَّ الآن. لابدّ أن أطفئ جــذوة نارهم!

قبَّل المسدس الذي في يده.

حارت هاجر في أمرها. فهي وإن كانت تريد للرجل أن يخرج ويغادر قبل لحظة، لكن لسانها لم يطاوعها، ليقينها بأن ذلك سوف يكون شكلاً من أشــكال الطرد. هل هي مشفقة عليه؟ أم أنها خائفة من أن تراه أثناء خروجه من الدار، أم علي أو إحدى جاراتها السليطات اللسان ـ اللواتي لا يفتأن يحفرن لها بئــراً ـ فيطلقن ألسنتهنَّ بالأقاويل؟

كان نباح الكلاب قد اختفى تقريباً.

مهما يكن، يجب عليها إخراج الرجل. هيئته، شــكله، قوامــه... لحيتــه السوداء تدل على أنه شاب. من بين كل البيوت الموجودة رمى بنفسه من بــاب باحة دارها إلى الداخل. أي أن الله أرسل هذا الرجل المسكين إليها هــي. هــل يليق بالإنسانية أن تُلقي برجل غريب جريح، خائر القوى إلى أعدائه المحيطين به من كافة الجهات؟

تنهَّدت.

طبعاً لا يليق ولكن، ماذا يمكنها أن تفعل؟ فهي امرأة عاشــت بــلا زوج لسنوات عديدة، وتعرَّضت بسبب ذلك للأقاويل والإشاعات، وتشــاجرت عــدة شجارات. الله تعالى يعرف دخيلتها قطعاً. لكنها مُجبرة على إيضاح ذلك لعبيــد الله. من ناحية أخرى هناك هذه المسألة: كيف تتصرّف بما يعــارض أمــر الله الذي رأى بيتها الأجدر من بين بيوت البلدة الكبيرة؟ كيف تطرد رجــلاً غريبــاً جريحاً مريضاً مُتعباً...

انقطع شريط أفكارها، وقد طرق مسامعها ضجيج سيارة جيب مصــحوب بأغاني سكارى. ويبدو أن ذلك طرق مسامع الغريب أيضاً، إذ نظر إلى المــرأة بارتباك.

كانت المرأة تعرف هذه الأصوات جيداً، فقالت:

ـ إنه دُوران. دُوران الأعرج وأصدقاؤه، لابدّ أنهم عائدون من المدينة...

سألها حبيب بلا مبالاة:

ــ دُوران؟ من هذا؟

ــ في البلدة رجل غني جداً وذو نفوذ يُدعى هاشم آغا صاحب محلجة قطن، ورئيس الديمقراطيين هنا. وهذا ابن أخيه طائش يعيش على هواه فلا ضابط ولا رابط، مستهتر لم يترك ما لم يفعله معتمداً على نفوذ عمّه!

اقترب صوت سيارة الجيب المحمَّلة بأغاني السكارى.

بدأ قلب هاجر يخفق من جديد.

أيمكن أن يكون هذا الغريب من رجال دُوران الأعرج؟ إنها متأكّدة أنه ليس كذلك، فالرجل جريح، بلا حول، رجل مشغول بهمّه، مع ذلك من يدري؟ فهذه الدنيا دنيا عجيبة. والحجر الذي لا يعجب يشجّ الرأس.

ذهبت وأغلقت باب باحة الدار المفتوح.

فقال حبيب:

ــ أرى أني بقيت هنا؟

بحركة آنية أخذت المسدس من يد الرجل:

ــ هاتِ هذا...

ــ حسناً، ولكن يا أختي...

ــ لا تخف، لن تمسَّك مني ذرة سوء. لكني لا أعرفك، تداخلني الريبة، سامحني. أنت لستَ كما أتخيّل، وسيبقى المسدس مسدسك!

هزَّ حبيب رأسه ضاحكاً:

ــ إني أفهمك يا أختي. أنت مثلي إذن لك أعداء أيضاً؟

ــ وأي أعداء!

ــ حسناً، فليبقَ المسدس معك، أنا أيضاً لن أمسَّك بسوء فاطمئني. بقيت في المخزن رصاصة وحيدة، إذا استدعى الأمر...

لا يا صديقي لا. لا أنوي تلطيخ يدي بالدم. ولكن كما قلت، الدنيا غدَّارة، وأمورها غامضة!

أقبلت سيارة الجيب المحمَّلة بأصوات الأغاني والموسيقى، مُسرعة وتوقفت أمام باب باحة دار هاجر.

تعالى صوت دُوران الأجش:

ـــ في بيتها ضوء، طير ليل، هل تنام تلك أبداً؟

سمعت هاجر وحبيب الحديث، فقطعا أنفاسهما، وصارا آذاناً صاغية. ثـمّ ذهبت هاجر بهدوء، وأنزلت فتيل مصباح الصيد الصغير.

انتبه دُوران الأعرج إلى ذلك، فصاح في الخارج:

ـــ هاها. هكذا إذن؟ (ركل الباب برجله) هـي إذن تغسـل الغسـيل فـي الداخل؟

انتقل حبيب من مكانه إلى نقطة أكثر ظلمة في طرف الباحة.

بينما انتصبت هاجر بحدّة في الضوء الخافت والمسدس في يدها.

وبعد فترة جاء صوت دُوران الأعرج هامساً:

ـــ ولِك هاجر، افتحي هذا الباب!

خطرت خواطر سيئة في ذهن حبيب. المرأة هكذا إذن؟ لو لم تكن هكـذا لما تجوّل السكارى بالسيارة الجيب أمام باب بيتها في هذه الساعة المتقدَّمة مـن الليل. ولمّا طلبوا منها هذا الطلب: "ـــ ولِك هاجر، افتحي هذا الباب!". صـحيح أنها تحدّثت قبل قليل عن دُوران الأعرج وعن عمّه الغني ذي النفـوذ، رئـيس الحزب هاشم آغا. على أن هذا لا يعدو أن يكون نوعاً من أنواع التبرير تلجـأ إليه مثل هؤلاء النسوة. لكن هذه المرأة المنتصبة بحدّة قريباً منه وإلـى الأمـام قليلاً، قد شحب وجهها تحت ضوء النجوم وصار كورقة بيضاء، فيمـا كانـت رموشها تلتمع مبللة. وهذا يعني أنها استاءت منهم، وطالما استاءت منهم فهـي إذن ليست من تلك النوعية من النساء.

اقتربت منه المرأة بانفعال، ومدَّت إليه مسدسه وهمست:

ـــ خذ، فقد أرتكب جناية الآن!

ثمّ أردفت وكأنها أدركت ما كان يجول في خاطر الرجل الجريح:

ـــ لا تحسبني من تلك النساء أرجوك، فأنا ليست لي أدنى علاقة لا بهـذا ولا بغيره، إن كنت تؤمن بالله فصدِّقني. منذ سنوات وكلّما شرب هـذا الكلـب كأساً ودارت الخمرة برأسه يأتي ويزعجني ويضايقني هكذا!

في هذه اللحظة تماماً رُكل الباب مرّة أخرى:

ــ افتحي، ولِك يا عاهرة!

اضطربت المرأة واهتزّت، وفيما كانت تبحث فيما حولها عن أي شيء يمكن أن تلجأ وتستند إليه، لامست يدها يد الرجل. أمسك الرجل بهذه اليد وقد أدرك ما تعانيه المرأة، ولم تجد المرأة حرجاً في عدم سحبها. كانت يدها باردة مثل الثلج.

وفي الخارج كان دُوران الأعرج يتابع كلامه:

ــ ولِك أي امرأة ساذجة أنتِ يا؟ هل تظنين أني أطلب منك فتح الباب بقصد الإساءة؟ لقد جئتك بخبرٍ من زوجك يا سافلة. الرجل تزوج في بلدته، تحدَّثت إلى زملائه الذين رأوه بأعينهم. وأنت امكثي هنا وانتظري...

سرت قشعريرة باردة كالثلج في جسد هاجر، وقد ضُغط على وترها الحساس. وأحسَّ حبيب بذلك من يدها التي في كفه. كلا كلا، هذه المرأة لا يمكن أن تكون من "أولئك النسوة".

جاء الآن دور أصدقاء دُوران الأعرج في قذف الكلام يميناً ويساراً:

ــ إذن فقد قال زملاءه كذا وكذا؟

أجاب دُوران:

ــ نعم بشرفي.

ــ هذا ظلم للمرأة!

ــ طبعاً ظلم. ولكن كونوا شهوداً، بأنني موافق عندما تقول هي نعم. هل سمعتم؟

ــ سمعنا.

ــ نحن شهود على ذلك إكراماً لله.

ــ وإذا طلبت عقد نكاح؟

فأجاب دُوران:

ــ أنا موافق على ذلك أيضاً.

وجاء صوت أحدهم:

ـــ يا روحي ما الداعي للنكاح والمكاح؟ لتوافق هي، فتسرع أنت وتملأ ساعديها حتّى المرفقين بالمبرومات الذهبية!

ـــ هكذا تماماً...

وجاء صوت آخر:

ـــ حسناً، ولكن الطفل، ماذا سيكون مصير الطفل؟

ـــ وماذا سيكون؟ ذاك سيصبح ابني. وسيصبح مفضَّلاً على ابني الفعلي!

اهتزّ جسد المرأة وهي تشهق بالبكاء.

وصعد الدم إلى رأس حبيب. نسي مشكلته، وجُنَّ جنونه للإهانات التي أُمطرت بها هذه المرأة المسكينة التي لا حامي لها.

ـــ طيب لماذا لا تتزوجك؟

ـــ ربما كان لها حبيب آخر...

فجاء صوت دُوران مغضباً:

ـــ مَن؟ فلأعرفه، والله برصاصتين...

ـــ ... ...

ـــ ... ...

كانت هاجر تبكي وجسمها يهتزّ ويختلج. ولم تكن قادرة على الكف عن البكاء. فجأة صارت يدها التي نسيتها في يد الغريب، تلتهب نيراناً. كان نصف هذا اللهيب نابعاً من غضب وانفعال الغريب، ونصفه الآخر من النيران التي تدبّ في جسمها كله، والتي يغذّيها الحقد فتزيد يوماً بعد يوم. هي تستطيع قلع عيني الرجل الذي يقف أمام باب بيتها ويُمطرها بوابل من الإهانات، وتستطيع ذبحه. ولكن ماذا تفعل بالآخرين؟ إنها تحقد على أولئك أكثر من حقدها على الأعرج. فهم يتبعونه ويقفون أمام بابها وهي المرأة المسكينة ويحرقونها بكلامهم الزائد والناقص لكي يأكلوا ويشربوا مجاناً على حسابه. ألا ما أسفل هؤلاء الناس!

شهقت بالبكاء.

ضغط حبيب على اليد المنسية في كفّه، وقال:

ـــ كفى يا أختي، لا تبكي. حرام على دمع عينيك!

سحبت هاجر يدها، وهمست وهي تمسح دموعها:

ــ هكذا مرّتان أو ثلاث مرّات على الأقل في الأسبوع، لقد سئمتُ ومللتُ من روحي وحياتي. ما هذا الذي أقاسيه من هؤلاء الأوغاد وأنا قابعة في بيتي المتطرّف هذا أغسل ملابس الناس المتّسخة لكي أتمكّن من تربية ابني اليتيم رغم وجود أب له؟ قد تكون المرأة لعوباً مستهترة فتنحرف يميناً ويساراً، وتكلّم هذا وتحدّث ذاك. هذه المرأة يمكن ملاحقتها لأنها سيئة السلوك. أمّا أنا فأنسحب إلى بيتي منذ ساعات المساء الأولى وأغلق بابي على الدنيا. مع ذلك...

استمر الصياح والصراخ في الخارج، وتتابعت أصوات الأغاني والموسيقى والكلمات المبطَّنة والمهينة. واستيقظ جيران هاجر ذوو الألسنة الطويلة وتجمهروا شبه عُراة على النوافذ والأبواب. ولم يكونوا خالين ممن يلعنون في أعماقهم هذه السَّفالة في مثل هذا الوقت من الليل، لكنّهم كانوا يخافون من أن يساندوا هذه المرأة المسكينة التي تُجابَه وحيدة، مع ابنها الصغير، هذه الحياة التي لا تطاق. كانوا يخشون من أن يحشروا أنفسهم مع كلب في كيس واحد.

أمّا الذين يأملون فائدة من كسب رضاء دُوران الأعرج، فقد هرعوا إلى النار بالمنفاخ:

ــ إذن فقد تزوّج الرجل؟

ــ طبعاً يا ناس، وهل يسأل عنها؟

ــ وهل التي تزوّجها مجدَّداً جميلة يا ترى؟

ــ وهل تفي كلمة جميلة.؟ سمعت من زملائه أنها رشفة ماء زلال!

ــ وإذا كانت ذات أموال وأملاك إضافة إلى ذلك...

ــ يا لحلاوتها!

ارتفع صوت دُوران الأعرج ثانية:

ــ هي ذات أموال وأملاك لا تعدُّ ولا تُحصى. صار الرجل يزن ذهبها بالميزان. مال ومُلك وطعام وشراب ولباس وزينة...

ــ ... ...؟

ــ ... ...

ـــ ... ...

همس حبيب ثانية:

ـــ لا تبالي يا أختي. فالكلاب تنبح والقافلة تسير!

زفرت هاجر:

ـــ صحيح ولكن...

ـــ بدون لكن. اسكتي!

ـــ ليتني أستطيع السكوت، ليت الله يأخذ روحي فأسكت إلى الأبد دون أي صوت...

تضايق حبيب من كلامها:

ـــ افتحي فمك على خير. انظري، ولديكِ ابن أيضاً...

ـــ سكتت هاجر ولم تُجب.

وبعد أن حقق الواقفون أمام باب بيتها رغبة "دُوران آغا" بإلقـــاء الأســئلة التي يريدها دُوران الأعرج، والإجابة عليها الإجابات المناسبة، ابتعدت ســيارة الجيب رويداً رويداً بصوتها المترافق بروائح البنزين. وكذلك انسحب الجيـــران الفضوليون أو المهووسون بالشماتة الذين هرعوا من مراقـــدهم شـــبه عـــراة، وعادوا الآن إلى مراقدهم.

كانت هاجر تبكي بلا انقطاع.

أمّا حبيب فقد انتصب ناسياً تعبه، غير مكترث بألم جرحه الذي بدأ يشـــتد، حائراً فيما يجب عليه فعله. هل يجب عليه الرحيل؟ أم يجب عليه البقاء وبـــذل روحه برفقة هذه المرأة؟ وقد بدأ يحسُّ في داخله باهتمام غريب بهـــا، اهتمـــام تغلب عليه مشاعر الأخوة والإشفاق على إنسان ضعيف عاجز. كان يظن أنـــه إذا رحل وترك هذه المرأة التي قاست وعانت الكثير من التحقير والإهانة علـــى مدى سنوات، فإن أولئك الرجال سوف يعودون ثانية فيخلعون الباب، ويـــدخلون إلى البيت عنوة ويغتصبون المرأة.

نعم، ولكن ألم جرحه...

تلوَّى ألماً رغماً عنه.

وأدركت هاجر أن جرحه يؤلمه، فنسيت فوراً مصيبتها التي فوق رأســـها،

ووضعت يدها برفق فوق كتف الرجل السليمة، وسألته:

ــ هل يؤلمك؟

فأنَّ الرجل قائلاً:

ــ جداً.

ــ كم مضى على إصابتك؟...

ــ عدَّة أيام.

ــ عدَّة أيام؟

لمست الجرح بيدها وقالت:

ــ إنه ينزف.

ــ إنه ينزف يا أختي.

ــ لماذا؟

ــ لابدّ لأنني ركضت طويلاً. جوفي يحترق أيضاً...

ــ هل تقصد أنك عطشان؟

ــ نعم، إن كان لديك بعض الماء، ولو أثقلت عليك...

ــ الماء موجود، ولكن...

ــ أعرف أن شرب الجريح للماء...

ــ ليس صواباً أبداً!

جوفي يحترق!

ــ ليحترق، لا تشرب. أود أن أضمد جرحك، لكني لا أعرف...

هزَّ. حبيب رأسه يمنة ويسرة وقال:

ــ سلمتِ يا أختي، ليعطك الله على قدر نيّتك. إنه لا يستحق...

ــ ما هو؟

ــ أن تنظّفي جرحي وتضمديه.

ــ لماذا؟

ــ لأنني لن أعيش طويلاً...

استاءت هاجر من كلامه:

ــ افتح فمك على خير. ما هذا الكلام؟ ولماذا لن تعيش؟

ــ أنا أعرف حالتي يا أختي!

انقلبت هاجر الآن إلى أنثى نسر، وقرّرت أن تمدَّ يد المساعدة لهذا الإنسان الشريف اليائس من حياته، وأن تحبِّب إليه الحياة، مهما كانت النتائج والعواقب. قد تكون النتائج سيّئة، وقد يراه من يراه فتلوكها الألسن من جديد. ليكن، فالله الذي فوق يعرف دخيلتها وإن لم يعرف العبد فلا يعرف. فكم سمعت من أمّها قولها "ــ اعمل المعروف وارمهِ في البحر، فإن لم يعرفه السمك يعرفه خالق السمك".

ــ هيا...

نظر حبيب حائراً وقال:

ــ إلى أين؟

ــ إلى الداخل، إلى الغرفة!

ــ إلى الداخل؟ إلى الغرفة؟

ــ نعم، ماذا هناك؟

ــ أيمكن؟

ــ لماذا لا يمكن؟

ــ سوف تتعرضين للشائعات وللأقاويل بسببي...

ــ ومن سيراك في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟

ــ ... ...؟

ــ ثمّ إنك ذكَّرتَني بالمرحوم أخي...

ــ أنا؟

ــ هو أيضاً مثلك كان يناديني يا أختي. حتّى أنه، أستغفر الله عندما أصيب، هو أيضاً مثلك طلب مني ماء!

ــ إذن...

ــ أجل.

ـــ وهل أعطيتِه؟

ـــ ماذا؟

ـــ ماء.

ـــ ليتني لم أعطه.

ـــ هل مات إذن؟

ـــ مات، ولكن إصابته لم تكن في الكتف مثلك.

ـــ أين كانت؟

ـــ كانت الرصاصة، بسم الله، قد اخترقت الرئة تماماً. هيا انهض، تمسَّك بي، تمسَّك بي جيداً يا أخي. نعم هكذا...

كانا يتبادلان اختلاق القصص. إذ لم يكن لهاجر أخ مات من جرّاء رصاصة اخترقت رئته، بل لم يكن لها أخ مطلقاً. إنما كانت قد سمعت هذه القصة منذ سنوات طويلة من إحدى صديقاتها المقرَّبات، وبقيت القصة ماثلة في ذهنها. ولكن لماذا أطلقتها ونسبتها لنفسها الآن؟ لماذا رفعت معنويات الرجل هكذا؟ أمن أجل شبابه؟ أم لمساندته إياها؟ أم لأن له أعداء كما لها؟ أم لأنها...؟

لم تكن تريد التفكير بالسبب، كائناً ما كان السبب، هي لا تريد للغريب الجريح أن يرحل.

حبيب أيضاً، لم يكن يريد الرحيل لسبب ما.

اختلق قائلاً:

ـــ أنا أيضاً كانت لي أخت في مثل سنك.

ـــ هكذا. وماذا جرى لها؟

ـــ لاشيء. هي عند زوجها.

ـــ هل كانت تحبك؟

ـــ كثيراً.

ورغماً عنها قالت:

ـــ وأي أخت يمكنها أن لا تحب أخاً مثلك؟

نسي حبيب آلام جرحه، وتشبث تماماً وبغرور بالمرأة. وخطر بباله رغماً

عنه أن هذه العبارة قد تحمل معنى "ــ وأيُّ امرأة يمكنها أن لا تحــب رجــلاً مثلك؟".

ــ دمتِ سالمة!

ــ دمتَ سالماً أنت أيضاً!

سارا سوية وببط باتجاه باب الغرفة، حيث تطاولت هاجر وأنزلت مصباح الصيد الصغير الخافت الضوء، المعلّق بمسمار على باب الغرفة، ودخــلا إلــى الغرفة ببطء وتؤدة.

كان ابن هاجر الصغير ينام هانئاً قرير العين في فراشــه الممــدود علــى أرض الغرفة.

**

IV

كانت غرفة صغيرة متسخة الجدران. وعلى يمين الداخل من الباب كان حسين نائماً في الفراش الممدود على أرض الغرفة. وهنا وهناك أشياء مبعثرة، وفساتين سقطت عن المسامير المعلّقة عليها، وبنطال حسين.

رفعت هاجر فتيل مصباح الصيد ذي الضوء الخافت الذي تحمله في يدها، فازدادت إضاءة الغرفة، وبانت الأشياء أكثر.

قال حبيب:

ـــ أليس من الأفضل أن يبقى ضوء المصباح خافتاً؟

فتساءلت هاجر وهي تعلّق المصباح على مسمار في الحائط:

ـــ لماذا؟ ماذا هناك؟

ـــ لا أعرف. أفكر بالجيران، لكي لا يرتابوا...

لم تجبه. واستبدَّ بها الغيظ من الجيران، ومن كل الناس ذوي الألسنة الطويلة. لقد أمضت طيلة سنوات عمرها بشرف واستقامة هكذا، فماذا استفادت؟ ألم يقفوا قبل قليل مع دُوران الأعرج الكلب، ويُسمعوها أقذع الكلمات الجارحة، لكي يكبروا في عينه وينالوا رضاه؟

أشارت إلى أريكة على اليمين وقالت:

ـــ ادخل واجلس هنا.

جلس حبيب. فأردفت قائلة:

ـــ تمدَّد إن شئت!

لن يكون ذلك سيئاً، لكنه استحيا، فقال:

ــ هكذا أفضل.

ــ لدي ماء ساخن، هل أغسل جرحك وأضمّده؟

ــ ليرضَ الله عنكِ يا أختي، وليعطِكِ على قدر نيّتك...

ــ وأنت كذلك.

وفيما كانت تغادر لجلب الماء، رمقها الشاب بنظراته الودودة التي لا تنم عن أيّة نوايا سيئة. ولما خرجت جالت نظراته المُشفقة في أرجاء الغرفة. على اليمين، وعند طرف الفراش الذي ينام فيه حسين، يستند سُلَّم للصعود إلى السقيفة. إذن فللغرفة سقيفة؟ نعم كانت للغرفة سقيفة، وكانت أخشاب السقف مخلوعة. هذه الجدران المتسخة، وهذه الأخشاب المخلوعة تنتظر رجل البيت لينظفها ويطليها ويصلح من شأنها، فهذه الأمور ليست من أعمال امرأة مسكينة.

عندما عادت إلى الغرفة حاملة طستاً مليئاً بالماء الساخن، سألها:

ــ ألا يدلف هذا السقف عند هطول المطر؟

رفعت هاجر رأسها ونظرت إلى الأعلى، وقالت:

ــ أيمكن أن لا يدلف؟ ليبلى بالعمى...

ــ لماذا لا تصلحينه؟

ــ هكذا يصبح حال البيت الذي لا رجل له. وهل لدي القدرة الكافية للإصلاح يميناً وشمالاً؟

ذهبت وأحضرت بعض الخرق النظيفة وقالت:

ــ هيا، انزع عنك ثيابك؟

استحيا الرجل الكبير مثل طفل صغير:

ــ أنزع ثيابي؟ كيف؟

ــ نصفك العلوي.

فهم:

ــ سيكون ذلك ثقيلاً عليك ولكِ يا أختي...

ــ لا لن يكون. انتظر، دعني أساعدك...

وفيما هي تساعده في نزع الثياب عن نصفه العلوي، كانت الانفعالات

الأنثوية العارمة تجتاح كيانها، قالت وهي تحاول أن تبقى متمالكة نفسها، وأن لا تفكر في أي تصرف غير لائق:

ــ وأنت تُعتبر أخي...

ــ طبعاً يا أختي طبعاً، وهل كان بإمكاني الدخول إلى هنا، لو لم أُعتبر كذلك؟

ــ ألا أعرف ذلك؟ الوجه مرآة الإنسان...

ــ صحيح.

ــ عندما لمحت وجهك للوهلة الأولى قلت في نفسي لا يمكن أن يصيبني أي ضرر من هذا الرجل!

ــ سلمت. ليعطك الله على قدر نيتِكِ!

ــ وأنتَ كذلك.

أسلَمَ نفسه ليَدَيِّ المرأة المكتنزتين.

أمّا هي، فكان كل جهدها منصباً على أن تبقى متمالكة نفسها، كانت تخشى من ملامسة هذا الرجل الذي ظهر الآن بنصفه العلوي العاري تماماً. فراحت تتمتم:

ــ لن يسألني الله إلا عن حلالي، طالما أني ما زلت زوجته وعلى عصمته... وأوّلهم دُوران الأعرج الذي سمعته بأذنيك. فكم من مرة عَرَض عليَّ عديمُ الحياء مالاً وملكاً وأطياناً، ووعدني بأن يعقد نكاحه عليّ. وكأنني بحاجة إلى ماله وملكه ونقوده، والله وبالله لن ألتفت وأنظر إليه حتّى لو مت جوعاً!

خطرت ببال حبيب زوجته، تلك أيضاً ستصبح وحيدة مع وليدها اعتباراً من الآن، تماماً مثل هذه المرأة. تألّمت نفسه. فعلاً كان تصرفه سيئاً جداً. لماذا قاد عملية إحراق المزرعة الكبيرة؟ ولماذا حرَّض الفلاحين؟ وما هي النتيجة؟ مات مظفّر بيك، وأحرقت مزرعته. ما الذي حصل عليه الفلاحون من جراء ذلك كله؟ سوف تؤول الأراضي والمزرعة والأملاك والأموال الطائلة كلها الآن إلى زوجته. ولابد أن هذه المرأة الشابة الفاتنة سوف تتزوج ثانية، وسوف يحل مظفر آخر محل مظفر، ولنفرض أنه علي أو حسن أو مصطفى أو رجب.

لم تكن زوجته الشابة تفارق مخيلته.

هل ستبقى هكذا وحيدة في الميدان بعد الآن يا ترى؟ وإذا أفلت ولم يصبح طعاماً لرصاصة ما، وهرب إلى سورية، واضطرته الظروف إلى البقاء فيها سنين طويلة، هل ستستطيع انتظاره طيلة تلك السنين؟ هذه المرأة تنتظر زوجها منذ سبع سنين، فهل ستستطيع زوجته الانتظار أيضاً؟ أم أنها ستأخذ ابنها وتذهب إلى بيت أمها؟ هل ستغسل ملابس الناس وتنتظر مع ابنها عودة زوجها في يوم من الأيام؟

أمّا هاجر فكانت تتكلّم كأنما تخاطب نفسها:

ــ ... ... لا أدري ماذا يريد مني. أنت غني، وعمك رجل ذو مركز مرموق. أفلا توجد امرأة أو فتاة لك؟ لو أشرت بيدك لهرعت إليك خمسون، كما يقال. خذ واحدة منهن وابنِ عشَّ زوجية، ودع اللَّف والدوران والجري وراء أعراض الناس. قل أنه نزل إلى المدينة، قل أنه التقى بزملاء زوجي، قل أنهم أخبروه كذا وكذا، وأنه تزوج بفتاة جميلة ذات أموال وأملاك...

رفعت رأسها إلى حبيب:

ــ كذب، أليس كذلك؟

ــ طبعاً.

ــ أعرف أنه كذب، كما أعرف اسمي...

ــ لماذا بكيتِ إذن، طالما أنك تعرفين ذلك.

ــ هكذا بكيت، رأسٌ مجنونٌ.

ــ أتحبيه كثيراً؟

ــ مَن؟

ــ زوجك.

نصبت هاجر رأسها مثل فرس جموح:

ــ مَن؟ أنا؟

ــ نعم أنتِ.

وبدون سبب واضح، ولكي لا تقول "طبعاً إني أحبه" قالت:

ــ مَرَّة هو زوجي، وأنا على عصمته، ولن أسمح بأن يقال عن ابني ابن عاهرة!

مرَّرت الخرقة المبلَّلة بالماء الساخن ببطء وتؤدة فوق الدماء المتجمدة

حول الجرح أولاً. كانت رغبتها في عدم إيلامه تجعلها تتباطأ. ورويداً رويداً تفتتت وذابت الدماء المتجمّدة كقطعة قرميد أحمر. غطست الخرقة الملوّثة بالدماء، في الماء الساخن مجدداً وبلّلتها ثمّ عصرتها ومسحت حول الجرح ثانية. وبتكرار المسح البطيء، نظفت ما حول الجرح من الدماء المتجمّدة، ولما جاء دور الجرح، بلّت خرقة أخرى وعصرتها عصراً خفيفاً. تمهّلت. ثمّ وإن وضعتها بخفة ومهارة فوق الجرح، إلا أنه شعر وكأن تياراً كهربائياً يسري في جسمه الضخم المتين كثيف شعر الظهر والكتفين، لكنّه تظاهر باللامبالاة، إذ لا يليق بالرجل الشكوى والأنين أمام امرأة. عضّ على شفته السفلى، ولتتألّم نفسه كما تشاء، سوف يظل يضغط على أسنانه. ولتنقطع شفته بين أسنانه.

سألته بصوت خافت:

ــ هل تتألم؟

ومع أنه كان يتألم أجابها:

ــ لا يا روحي.

ــ إذن، سوف تثأر من أولئك عندما تتماثل للشفاء...

كان قد نسي الكذبة التي كذبها عليها، فتساءل:

ــ ممن؟

ــ من أولئك.

تذكّر فجأة:

ــ ها، من أولئك؟ طبعاً، سوف أمحو أثرهم، وبعدها فلتُعدمنْي الحكومة. وماذا في ذلك؟ سواء متّ في الثانية والثلاثين أو في المئة والثانية والثلاثين...

ــ هل أنت في الثانية والثلاثين؟

ــ دخلتها حديثاً.

زوجها أيضاً في مثل سنه الآن.

ــ أليس حراماً؟ إنك شاب، إنك مثل الأسد...

ــ دعي عنك ذلك يا أختي، فقد راحت عليَّ.

ــ إذن فأنت لست متزوجاً أيضاً؟

كذب مرّة أخرى:

ــ لست متزوجاً.

لِمَ لمْ تتزوج؟

كذبة جديدة أخرى:

ــ تزوجت، لكن أعدائي فصلوا زوجتي عني، ورموا ابني في جب أحد البساتين وخنقوه.

أجفلت المرأة وتساءلت:

ــ في جب بستان؟

ــ أجل.

التفتت ونظرت إلى ابنها حسين الذي ينام هانئاً، وطار صوابها. فدُوران الأعرج عدوها أيضاً، وعندما يُدرك في يوم من الأيام أنه لن يستطيع الوصول إليها...

رفعت الخرقة عن الجرح.

لم تكن تريد التفكير في ذلك، وكما في كل مرة تحاول فيها طرد فكرة ما، تراودها الفكرة ذاتها، وتلحُّ عليها، وتتجسَّد حيَّة في مخيّلتها، فتزعجها وتقلقها، كذلك حدث الآن أيضاً. فها هي ذي تتخيّل جبَّاً كبيراً ذا مياه وسخة آسنة في إحدى ساحات القرية. ودُوران الأعرج ورجاله المقربون يخطفون حسيناً، ويكمِّمون فمه بإحكام بحيث لا يستطيع التفوّه بحرف مهما حاول، ويكبلون يديه ورجليه، ويمسكونه من ساقيه ويدلون به إلى غياهب الجب ويخنقونه وهو يتخبّط في الماء!

تجسَّدت وتجسَّمت صورة حسين المخنوق في المياه الآسنة!

نظرت ثانية إلى حسين، وهبَّت فَزِعَة من مكانها، وهرعت إليه، فقبّلته وقبّلته، وسحبت اللحاف وغطّت كتفيه، وهي تردد:

ــ يا فلذتي، يا روحي، يا وحيدي!

أدركَ الرجل الموقف فقال:

ــ لا تبالي، فنحن كانت بيننا مسألة دم وثأر، ولذلك...

اقتربت المرأة برموشها المبللة من الرجل الجريح وقالت:

ــ وعدوي؟ ألم تسمع ما قاله في الخارج قبل قليل؟

ــ أعرف ولكن، مهما يكن...

ــ ليس هناك مهما يكن. فذاك أفظع من أعدائك. ليُصبه الله بـــالبلاء، وإن خطر هذا بباله؟

ــ ... ...

ــ ... ...

وبعد حين من الزمن نهضت نحو الزاوية المقابلة من الغرفة، وأحضـــرت زجاجة معلقة إلى مسمار في الحائط، بخيط مربوط حول عنقها.

سألها:

ــ ما هذا؟

ــ هذا؟ هذا يقال لـــه قانتورون، كان سيد الأدوية عند المرحومة والدتي، إنه واحد بواحد للجروح. هل تعرفه؟

ابتسم حبيب وقال:

ــ الكل في منطقتنا جقورأوفا يعرف هذا.

أسالت هاجر كمية كبيرة من سائل القانتورون فوق الجرح الـــذي نظّفتـــه، ومسحت به الجرح وما حوله. ثمّ مزّقت الخِرَق بترتيـــب وإتقـــان، وأحكمـــت تضميد الجرح بها. وفيما كانت تفعل ذلك، كانا يتبادلان الحديث:

ــ لم يؤلمك، أليس كذلك؟

ــ لا يا روحي.

ــ هل تشعر بالنعاس؟

ــ أشعر بالتعب أكثر...

ــ غداً تنام طوال النهار!

دهش الرجل:

ــ أنام؟

ــ طبعاً.

ــ كيف يمكن ذلك؟

ــ عادي جداً.

ــ أمّا أنا...

ــ ماذا؟

ـــ أرى أن الرحيل...

ـــ تفكر بالرحيل ها؟ مجنون!

نهضت وغادرت بالزجاجة والخَرق الممزقة، وعندما عادت قالت:

ـــ إلى أين يمكنك الذهاب وقد فقدت كمية كبيرة من الدم؛ وجرحك يعتبر خطيراً؟ ابق ضيفاً عندي غداً وبعد غد، وإن استدعى الأمر ابق إلى بعد بعد غد. ليلتئم جرحك وبعده ليسهّل الله طريقك...

ثمّ تذكرت فجأة فاستدركت:

ـــ ها ها، انتظر، واعدل عن مسألة الثأر هذه!

كان حبيب قد نسي تقريباً الكذبة التي كذبها، وكاد أن يتساءل "ـــ أي ثأر؟" لكنّه تذكّر، فقال:

ـــ تعنين أن أنتظر مقتلي على أيديهم ها؟

ـــ خذ رأسك وارحل بعيداً!

ـــ إلى أين مثلاً؟

ـــ الدنيا كبيرااا... اذهب إلى أي مكان. إن سألتني فأنا أرى أن قتل الإنسان أمر سهل، لكن إحياءه صعب. القوة والذكاء في الإحياء. القتل لأي سبب كان، يعني هدم بناء بناه الله تعالى، وهذا حرام كبير، هل من الصواب عصيان الله؟

قال مشجّعاً المرأة:

ـــ أنتِ على حق.

ـــ سوف أذهب إلى الاحتطاب غداً، أمّا أنت فنم. ابقَ بجانب ابني!

نظر حبيب إلى حيث الطفل النائم وقال:

ـــ بجانب ابنك؟

ـــ ماذا هناك؟

ـــ ألا يستغربني؟

ـــ لا يستغربك. فهو هادئ جداً. وهو عاقل أيضاً ها...

ممكن، لكنه طفل مهما يكن، وقد يزلّ لسانه أثناء لعبه مع أترابه. ثمّ مالَه وللأطفال؟ يوم، يومان على الأكثر، بعد ذلك، إن لم يُسلخ جلده ويُملّح، فسوف يمسك الطريق، والوداع يا تراب الوطن!

ـــ حسناً، وأين سوف أنام؟

ـــ في تلك الغرفة الخلفية.

فكَّر قليلاً، ولم يرَ ذلك مناسباً. ثمّ رفع رأسه ونظر إلى الأعلى وقال:

ـــ السقيفة أنسب مكان.

نظرت المرأة أيضاً إلى السقيفة وقالت:

ـــ تلك تعج بالغبار والأتربة.

ـــ لا ضير في ذلك. نمدّ كيساً... ها؟

كان الأمر سيَّان بالنسبة لها:

ـــ أنت تعرف.

ـــ نعم نعم يا أختي، ذلك برأيي أنسب مكان. لقد غسلت جرحي ونظفتــه، وداويته ثمّ ضمدته. ليرضَ الله عنكِ. إن كنتُ موجوداً هنا اليوم فغداً لن أكَون، ولا أرَيد أن أسببَ لكِ أيّة أقاويل تضرّ بسمعتك بعد رحيلي!

اغرورقت عيناها. يا لــه من رجل طيّب القلب، يا لــه من رجل عقلــه في رأسه. آه لو استطاعت أن تصدق قصّة زواج ذلك اللعين المســمى عليهــا زوجها...

نظرت بطرف عينيها إلى ساعديه المفتولين، وإلى رجليه الضخمتين، وإلى منكبيه العريضين، وإلى جسمه المتين. كان الرجل أيضاً ينظــر إليهــا دون أن يُشعرها. لا يمكنه أن لا ينظر يا روحي. لكن هل هذه إنسانية؟ يداها المكتنزتان بيضاوان كالثلج ولكن، حتّى مجرد تفكيره...

تعلَّقت عيناه للمرة التي لا يعرف كم عددها، بصدرها العامر الــذي كــان يثيره ويتعبه منذ فترة. ثار على نفسه، طبعاً يثور. فهذا يعنــي التغــوّط علــى الصحن الذي أكل منه، يعني عض اليد الصديقة التي امتدّت إليه. نعم مجرّد هذا يعني ذلك، مجرّد هذا القدر الصغير من مثل هذا التفكير!

ـــ نَمْ في السقيفة فوق أنسب حل...

زوجها يعتبر عوداً يابساً بجانب هذا.

فغمغم متهيّجاً ثانية من منظر صدرها العامر:

ـــ نعم.

ـــ لكن يجب أن تنام، فلا يمكن أن أتركك قبل أن يلتئم جرحك تماماً!

سرَت قشعريرة في جسم الرجل:

ــ تسلَمي.

ــ تسلَم أنتَ أيضاً!

تحت وطأة الإحساس برجولة الرجل الطاغية، نصبت رأسها مثل فرس جموح، ثمّ رفعته إلى الأعلى بحركة كأنها تريد أن تردَّ إلى الخلف خصلة شعر سقطت على جبينها. هيَّجته هذه الحركة هياجاً طاغياً فالتهب جسده التهاباً، وهو وإن خجل إلا أنه لم يقف عند الخجل. وحين التقت نظراتهما تنهَّد رغماً عنه.

سألته بحرارة، وربّما فهمت سبب التنهيدة فهماً خاطئاً:

ــ ما هذا؟

ازداد خجله وقد ضُبط متلبساً:

ــ لا شيء.

ــ هل غرقت سفنك في البحر؟

ضحك وقال:

ــ لا لم تغرق، ما زالت تسبح والحمدلله...

ــ إذن؟

ــ لا شيء، هكذا.

ــ ماذا؟

ــ يعني، إنها تسبح.

تثنَّت المرأة وهي تضحك:

ــ هل كنت تتكلّم مع زوجتك هكذا أيضاً؟

ــ كيف؟

ــ هل كنت تمازحها وتضحكها هكذا أيضاً؟

تعرَّقت حتّى شحمتا أذنيها وهي تودّ أن تقول له بأسلوب لا يفضح أحاسيسها "ــ يا رجل. هل كنت تكلّمها عن كل شيء، عمّا راح وعمّا جاء...".

كانت المرأة سكرى برائحة "رجولة" الرجل النَّفَّاذة. فهبّت ونهضت من مكانها. إذ كانت ستُجَنُّ لو لم تنهض، وهي حتّى لو لم تخسر نفسها، لكنها وبتصرف هستيري ربما كانت ستمسك بإحدى يدي الرجل المشعّرتين.

ــ فلأجهّز لك فراشك!

تطايرت تنورتها، فأظهرت تكسيراتها ثنيات ساقيها البيضاوين، فجُنَّ جنون الرجل. أمّا هي فقد مشت الهوينا إلى حيث يستند السلم. فأخذته، وأسندته إلى فتحة مربّعة في السقف، ثمّ حملت مكنسة وكيساً من القنب وتسلّقت السلم دفعة واحدة. أغمض الرجل عينيه، وأمال رأسه إلى الأرض، لكن لا فائدة مهما فعل. فثنايا ساقيها البيضاوين، وفخذيها الأبيضين بياض الثلج، الظاهرين تحت تنورتها، كانت داخل عينيه المغمضتين. تسارعت دقّات قلبه. هل هو الشيطان الأعمى؟ هل كان يغويه؟

تنهَّد.

فتح عينيه المغمضتين، ونظر رغماً عنه. وكانت نظرته في اللحظة المناسبة تماماً. إذ كانت المرأة تحاول في تلك اللحظة الولوج إلى داخل الفتحة المربّعة بفخذيها المكتنزين اللذين يضجّان حيوية من تحت تنورتها المرفوعة تماماً...

نعم لا بأس ولكن، أن يصل بصره إلى كلسونها... لماذا فتح عينيه، هل كان ذلك صواباً؟ لم يكن يريد ذلك. فهذه نذالة. هذا يعني عض اليد الممتدة إليه بالصداقة. هذا يعني التغوُّط في الصحن الذي أكل منه. هذه رذالة وحيوَنة. هذه يقال عنها جحشنة جحش ابن جحش!

كانت المرأة فوق تكنس بانفعال أرضية السقيفة المغبرة، وتفكّر متسائلة: "ــ هل نظر يا ترى؟ هل رأى؟ هل أعجبه؟". نعم، فبعد زوجها لم يخطُ رجل خطوة في هذا الحوش، أمّا هذه الغرفة فلم يعتِّب عتبتها رجل. وهذا؟ تنهَّدت "ــ إيه" متحسّرة ومبرّئة نفسها، "ــ حسناً فعلتُ. هو يتزوّج هناك أليس كذلك؟ ألا يسأل عني ولو بسطرين؟ ثمّ ماذا؟ ماذا فعلتُ؟ ألا أعرف نفسي؟ وماذا في ذلك؟ وهل قعد ذلك الحمار ابن الحمار عاقلاً هناك طيلة هذه السنين؟ لا يقعد لا يقعد، لا يمكن أن يقعد عاقلاً!"

نظرت إلى الأسفل بشكل طبيعي، كان الرجل واضعاً رأسه بوجهه الملتحي وشعره الأشعث بين كفيه الضخمتين. هل رأى انحناءتها أثناء ولوجها إلى الفتحة فدهش ممّا رأى؟ ربما رأى كلسونها الصغير... "ــ حسناً، لكنه حييٌّ جداً. الرجل يجب أن يكون... دُوران الأعرج الكلب... لو أحببته، أو بالأحرى، لو كان هذا مكانه؟ لو كان هذا لاختلف الأمر!".

كنست فوق على عجل، ومدَّت كيس القنّب. سوف تتمهّل الآن أثناء نزولها، وكذلك ستفعل أثناء صعودها ثانية حاملة الفراش. "ـــ وإذا ما رأى فليرى. زوجي لم يسأل عني طوال هذه السنين. وهذا جاهز، فقد قتلوا زوجته، ولكن لا يجوز يا روحي، فهل أعجب الرجل بي يا ترى؟ إنه لا يبدي شيئاً، لو كان زوجي لما التفت ونظر إلى الجارات. وهل كل الناس مثل الأعرج ذي نَفَس الكلب؟".

تقصَّدت التمهّل أثناء نزولها والمكنسة بيدها، وأطالت العملية.

نظر الرجل إليها ورأى حتّى كلسونها، ومع رؤيته أعاد خفض رأسه مرتبكاً كمن تلقى صفعة.

ثارت المرأة.

ربما خجل الرجل. ولم يكن ذلك ذنبها!

نزلت، ووضعت المكنسة على جانب، ثمّ دخلت إلى غرفة جانبية صغيرة، تحوي فرشاً ولحفاً وأكياساً، وغسيلاً وسخاً. فرتَّبت فراشاً ذي وجه أزرق مرقَّع برقعة زرقاء أغمق، مع لحاف ووسادة، وحملتها على كتفها.

صرخ الرجل من الخارج:

ــ دعي الأمر لي، فلأحملها أنا إلى الأعلى.

وبدفعة من كتفها أزاحته من طريقها قائلة:

ــ عد أنت إلى مكانك!

امتثل الرجل لأمر المرأة، وعاد ليجلس حيث كان قبل قليل.

أطالت المرأة عملية الصعود وارتقاء السلّم والحمل على كتفها، وجاهد الرجل في أن لا ينظر، لكن عينيه كانتا ترتفعان رغماً عنه فيرى كل شيء. بل، لقد رأى هذه المرة بوضوح مكشوف تلك البقعة الداكنة في كلسونها. ارتجفت يداه المكتنزتان الضخمتان، رغماً عنه، إذ بدأت عينه اليمنى تنظر وترى، ثمّ تبعتها اليسرى. لو تيسَّر له بعض الماء البارد لغسل به وجهه ويديه. كان قلبه يدق دقاً!

رأت المرأة وأدركت أنه نظر إليها ورأى كل شيء، ثمّ انسحب إلى داخله مثل سلحفاة، وراح يوبّخ نفسه. لماذا؟ وما الداعي؟ وما الذي يستدعي الخجل؟ الحقيقة أنه لا يليق بالرجل كل هذا الخجل!

نظرت إلى الأسفل ثانية. كان كما قبل قليل، قد وضع رأسه بشعره الأشعث بين كفّيه الضخمتين، وأنزل رأسه وأسنده إلى ركبتيه. "ـــ أحمق!" قالتها في نفسها، "ـ وأنت يقال عنك رجل؟ يجب أن أكون أنا مكانك... ما الداعي للخجل؟ ها إني أمامك امرأة بلا زوج، قلتها لك بوضوح، وسمعت بأذنيك كلام الأعرج الكلب، وفهمت كيف يدور حولي ويلاحقني مثل كلب كلبان. فما بك؟ صحيح أنني لا أحبه، لكن أنت...".

أيقنت أن الرجل لن يدرك ذلك بسهولة وبوضوح.

مدَّت كيس القنّب، وفرشت الفراش فوقه على عجل، وطوت اللحاف بأسلوب نسائي ووضعته فوق الفراش، ثمّ نزلت السلّم. لم تتبدّل وضعية رأس الرجل الذي بين كفيه. لم يكن ينظر. كان يخشى الرؤية. فليس من الإنسانية أن يتغوَّط في الصحن الذي أكل منه. وعضُّ اليد التي امتدت إليه بالصداقة حيوَنة لا يمكن أن يفعلها، لا لا، لا يفعلها ولو قُتل. كان قهره وانكساره من الخيالات التي تملأ مخيّلته، ومن المناظر التي لا تفارق ناظريه. وكان أقهرها منظر كلسونها بالبقعة الداكنة هناك، آه لو يستطيع رمي هذه الخيالات من رأسه! لا يستطيع رميها، لا يستطيع! "ـ توبة، أستغفر الله، توبة أستغفر الله... دعوناها أختي... عملت معنا معروفاً إنسانياً. وآوتنا في بيتها، وضمّدت جرحنا، ثمّ ها قد جهّزت الآن فراشاً في بيتها. لا يمكن. مجرّد التفكير بذلك جحشنةُ جحش ابن جحش!".

خطرت بباله فجأة سيدة المزرعة التي أحرقها، الخادمة كوللو التي استخلصها مظفّر بيك لنفسه من يد ابن أخيه، وعقد نكاحه عليها. تلك أيضاً كانت ممتلئة الجسم مثل هذه. تلك أيضاً كانت رخصة كالمهلّبية مثل هذه. كانوا قد أحرقوا المزرعة. وفيما كانت المزرعة تحترق بلهيب النيران المتأججة، هاجم مخدعٍ السيدة بقصد استئصال شافة ورثة مظفّر بيك الذي قتله قبلاً. كان الباب مقفلاً، فراح يلكمه ويضربه، بوجه عابس مكفهر، وبعينين جاحظتين تكادان تفرّان من محجريهما... وفي الداخل كانت زوجة مظفّر الشابة في حالة من الرعب والذعر، وطفلها الوليد لا يكفّ عن البكاء، ويبدو أنها كانت في حيرة من أمرها، ومن يدري ربما كانت تفكر في الهرب، وتبحث عن طريقة للهرب. وفجأة خطرت نافذة الغرفة ببال حبيب، نعم نعم، نافذة الغرفة. إذ يمكن للمرأة أن تلقي بنفسها من هذه النافذة إلى الأرض المبللة بمياه الأمطار، فتنجو، مع أنها يجب أن لا تنجو، يجب أن لا يستمر حق مظفّر أو ورثته في "أمواله

المنقولة وغير المنقولة". وبدفعة أخرى من كتفه كُسرت قطعة من خشب بـاب الغرفة. وتماما كما خطر بباله، كانت المرأة الشابة قد فتحت النافـذة وراحـت تتهيأ لكي تتدلى من النافذة إلى الأسفل. مدَّ حبيب ذراعه من الفجـوة المفتوحـة في الباب، وسحب المزلاج الذي يُقفل الباب من الـداخل وإذ بـالمرأة الشـابة نصف العارية في ثياب نومها تلقي بنفسها إلى الأسفل. دخل حبيب كالصـاعقة إلى الغرفة التي فتح بابها في اللحظة المناسبة. ودون أن يلحـظ الطفـل الـذي يمزّق بكاؤه في مهده الجو، ودون أن يسمع بكاءه، أسرع إلى النافـذة. كانـت الطريدة قد ألقت بنفسها إلى الأرض المبللة بماء المطر. وبعـد قليـل لمحهـا تركض حافية القدمين في الأراضي المبلَّلة، وتقع وتغطّس في الطين والوحـل، وتقوم وتركض. ألقى بنفسه من النافذة مثلها، وجرى وراء طريدتـه. وبـدأت عملية هروب ومطاردة مرعبة لمسافة أربعين خمسين متـراً. غطـى الوحـل والطين والعرق المرأة وثوب نومها الحريري، وقبل مضي وقت طويل لحق بها وأدركها، وقد بلغ بها الإعياء مبلغاً بحيث كادت أن تقع وتتدحرج على الأرض، أمسك برقبتها، وطرحها على الأرض الطينية، وانحنى يريد خنقهـا والإجهـاز عليها، فراحت تتوسل إليه: "ـ أشفق على ولدي، إن كنت تحب الله أشفق علـى ولدي" لم يبق في عقل حبيب سوى كلماتها "ولدي، أشفق على ولدي!"

توقفت أصابع يديه الممتدتين لخنقها ولم تستطع أن تطبـق علـى جيـدها الرقيق. ترك المرأة، واستوى وأشعل سيجارة. إنه يـذكر ذلـك جيـداً. رمـى السيجارة على الأرض حانقاً. نظر إلى المزرعة التي تحترق بلهيب النيـران، ومن خلال اللهيب البرتقالي رأى رفاقه الفلاحين الثـائرين يتراكضـون هنـا وهناك، وكمن يشاهد فيلماً سينمائياً نظر إليهم برهة، ثمّ حمل رأسه و...

تنهَّد تنهيدة عميقة.

وما زال هروبه هو ذاك الهروب.

كانت المرأة الشابة تلملم وترتّب الغرفة، وتدور هنا وهناك، أمّا حبيب فلـم يكن ينظر إليها ما وسعه ذلك. لكن ورغماً عنه، كانت الأجـزاء المثيـرة فـي المرأة، تتجسَّد في خياله، فتكتسي لحماً وعظاماً وتمسح الحلال والحـرام ومـا يليق وما لايليق.

ـ هيا يا أختي، إني صاعد.

أجابته هاجر بأسلوب في غاية الإثارة، بل وبشيء من التحدي الأنثوي.

ـــ نوماً هنيئاً...

صعد الشاب السلم ببطء. وألقى بنفسه على فراشه، وتمــدَّد علــى جانبــه مستنداً إلى كتفه السليم. لكن ما هذا الذي يرسم المرأة في مخيلته رغماً عنه، بل ويرسم أدق التفاصيل المثيرة في المرأة محاولاً إثارته وإغــراءه وإغــواءه؟ لا يمكن أن يكون الله. فالله مصدر الخير والحسنات وكل الأشياء الجميلة الصالحة. معنى ذلك أنه الشيطان. نعم إنه الشيطان الأعمى هو الذي يغوي حبيب!

اشتهى أن يُشعل سيجارة، لكن لا، يجب أن لا يُشعل سيجارة.

حسناً، ولكن ما معنى هذا التحدي الأنثوي المثير وهي تقول لــه "ـــ نوماً هنيئاً"؟ إنه في الحقيقة مشتّت حائر في أمره. فماذا لو عمد في ســاعة متــأخرة جداً من الليل، أي قبيل الصباح، فاندس في الفراش إلى جانبها، وراح يــداعبها؟ هل ستصرخ المرأة وتصيح يا ترى؟.

وفيما كان قسم من عقله يقول: "أي صراخ وصياح؟" كان القسم الآخر منه يشد لجامه قائلاً: "حذار... فسوف تصرخ وتصيح، ثمّ هل يجوز؟ هل يليق بك؟ كيف تتغوَّط في الصحن الذي أكلت منه؟ كيف تعضّ اليد الصديقة التي تشــبّثت بها؟ هل هذا من الإنسانية في شيء؟".

كان هذان التفكيران المتناقضان، ينقلبان في داخله، مع مرور الدقائق، إلى شخصين يتناقشان. فكان الجانب الشيطاني فيه يقول:

"ـــ إنها امرأة بكل معنى الكلمة، امرأة بلا زوج على مدى سنوات. نعم لقد ضمّدت لك جرحك، وجهّزت لك فراشاً، وحمتك من أعدائك. لكن مــاذا يعنــي هذا؟ إن كنت هنا اليوم، فمن يدري أين ستكون غداً؟ أكبر إكرام للمرأة هــو أن تستعمل معها رجولتك وتداعبها، وتحبها، لا تنسَ ذلك!".

ويرد عليه الجانب الرحماني فيه قائلاً: "لا مجال للجحشنة. فهذه المــرأة لا تشبه غيرها من النساء. لقد أسدَت إليك جميلاً إنسانياً. فلا تعضّ يدها، وبطبيعة الحال أنت لا تستطيع عضّ يدها، فذلك مُعيب جداً، إضافة إلى كونه حرام!".

"ـــ والله لا علاقة لي، فقد تشكُّ في رجولتك بعد مغادرتك!".

"ـــ ماذا؟ أتشك؟ بي؟ إذا طال الشك رجولتي، فهذا يعني أنه ليس في الدنيا رجال!".

"ـــ عليك أن تظهر رجولتك للمرأة...".

ـــ ... ...".

ـ ... ...".

وفيما كان في دخيلته يتخيّل مختلف أشكال انحناء المرأة واستقامتها، ويتصوّر أكثر وأكثر تفصيلات فخذيها المكشوفين حتّى الرقعة الداكنة في كلسونها، أثناء صعودها ونزولها السُلّم، كانت المرأة بكل أنوثتها الطاغية تتغلغل في أعمق أعماقه.

ورغماً عنه، وبتردّد انزاح عن فراشه، ورفع على مهل طرف كيس القنّب، وراح يبحث عن ثقب أو شق ينظر منه إلى الأسفل. وسرعان ما وجد ما يبحث عنه، فما أكثر الثقوب والشقوق في أخشاب السقف! وبألف تردّد وتردّد انحنى على ثقب من أنسب هذه الثقوب. لم تكن المرأة الشابة قد نامت بعد. كانت لا تزال تلملم وترتّب الغرفة. وكانت استدارة وركيها في كل انحناءة واستقامة تقطّع أنفاس الرجل.

راوده شيطانه قائلاً: "ـ اسعل" فاعترض الآخر قائلاً: "ـ لا يجوز، فقد يسمعك أحد المارة في الزقاق، أو يسمعك ابنها الذي قد يستيقظ للتبوّل!".

رفع رأسه عن الثقب، وهو وإن غطاه بالكيس، إلا أنه ندم على ذلك ففتحه ثانية، وانحنى على الثقب من جديد. كانت المرأة واقفة تحته مباشرة، تفكّر وقد عقدت يديها وراء ظهرها. نظرت للحظة إلى فوق فانسحب حبيب عن الثقب مجفلاً، وسحب الكيس فوق الثقب. حذار من أن يكون قد أحدث صريراً أثناء انحنائه وجلوسه، فسمعت صرير الخشب ونظرت إلى حيث مصدره؟

طاوع عقله فارتمى على فراشه على جنبه. إذا كان الأمر كذلك فسيكون معيباً جداً. لكنه قال في نفسه فيما بعد: "لا، من أين ستعرف أني كنت أراقبها؟ ألا يمكن أن أكون قد تقلّبتُ في فراشي من جنب لجنب؟ ألا يمكن أن تكون هذه الأخشاب قد أصدرت صريراً أثناء تقلّبي في فراشي؟".

طاوع عقله أيضاً فانحنى على الثقب من جديد. وكان انحناؤه في الوقت المناسب تماماً، فتح عينيه مدهوشاً ممّا يرى. كانت المرأة تخلع ثوبها في تلك اللحظة. خلعت الثوب ووقفت منتصبة برهة بقميصها الداخلي، ثمّ حكّت جسمها مطولاً. فيمَ كانت تفكر يا ترى؟ أخيراً وبصعوبة انتهت عملية الحك. بدأت هذه المرة تفتّش وتبحث مطوّلاً عن ثوب النوم، بحيث شك الشاب في أن المرأة كانت واثقة من أنه يراقبها فتقصّدت أن تفعل هذا كله دون إطفاء المصباح أو حتّى خفض ضوئه على الأقل. اجتاح حبيب هياج شديد، فشدّ قبضته. نعم إنها

امرأة بلا زوج لسنوات طويلة. ولكن هل كانٍ ما سردته عليه صحيحاً يا ترى؟ سبع سنوات تقريباً بلا زوج. ولم تُدخل رجلاً إلى بيتها. هذا ممكن، ولكن هي؟ أيعقل أنها لم تذهب إلى أي رجل غريب؟

بدأت المرأة تحك جسمها مجدّداً.

قال حبيب في نفسه: "هل يمكن؟ لتكن اليوم في السابعة والعشرين أو في الثامنة والعشرين من عمرها قبل سبع سنوات. آه يا إلهي آه".

ارتدت المرأة ثوب نومها دفعة واحدة وبحدّة، هل كانت حاقدة على بلاهة الرجل يا ترى؟ إذا كانت هي "امرأة" وتفكّر في العيب والحرام وفيما يمكن أن يقال إذا رأوا أو سمعوا، فما به هو؟ إنه رجل، بل وفحل الرجال، أضف إلى أنه سوف يغادر، إن لم يكن اليوم فغداً، وإن لم يكن غداً فبعد غد على أبعد حد، وسوف يفترق طريقاهما، وقد لا يلتقيان ثانية طوال عمريهما في أي مكان، وبأي وسيلة.

فجأة وبقرار آني أطفأت مصباح الصيد، واندست في الفراش بجانب ابنها. خيم على الغرفة الآن ظلام دامس. فزاد هذا الظلام من هيجانها، وأثار غريزتها الأنثوية الجامحة...

قالت وكأن الرجل بجانبها بكامل رجولته:

"ــ أحمق!".

وتخيّلت وكأن الرجل يسألها مدهوشاً:

"ــ لماذا؟".

"ــ وما زال يسأل، لماذا..."

"ــ فعلاً لماذا يا بنت؟".

"ــ لا تقل يا بنت!".

"ــ ماذا أقول؟".

"ــ إني امرأة!".

"ــ أعرف".

"ــ معرفتك واضحة".

"ــ ماذا أفعل؟".

"ـــ سقمٌ وعمى!".

"ـــ ابنك موجود".

"ـــ دعك من ابني!".

"ـــ حسناً؟".

"ـــ ألن تتأكد من كوني امرأة أو لا؟".

"ـــ قلت لك أختي...".

"ـــ لا تقل. ومن يطلب منك الأخوة؟".

"ـــ ماذا إذن؟".

"ـــ زقوم. انظر إلى قدّي وقوامي، انظر إلى يديَّ وفخذيَّ. ومن يراك يظنك رجلاً!".

"ـــ ألستُ برجل؟".

"ـــ لا أعرف!".

"ـــ يديَّ، ذراعيَّ، رجليَّ، لحيتي، شاربيَّ؟".

"ـــ سحقاً!".

"ـــ لماذا؟".

"ـــ خلعت ثيابي في الضوء، ولم تتحرك!".

"ـــ لم أراقبك!".

"ـــ كذّاب!".

"ـــ بشرفي لم أراقبك".

"ـــ لتُقلَعْ عيناك إن كنت كاذباً؟".

"ـــ لتُقلَعْ".

"ـــ الاثنتان معاً؟".

"ـــ الاثنتان معاً".

"ـــ لماذا لم تراقبني؟ لقد خلعت ثيابي كي تراقبني وتراني. إذا لم ترَني وقتها، فهيا الآن، ماذا تنتظر؟ أنا لا أعرف أختاً أو غيرها، ثمّ إنني لست بأختك. لا تنظر إلي نظرتك إلى أخت. هيا ضمّني، هيا، لا تقف مشدوهاً هكذا، حيوان!".

أدّى صرير الخشب فوق، أثناء تقلب الرجل من جنب لجنب، إلى قطع شريط الخيالات التي كانت تراود ذهن المرأة. مُسح خيال الرجل لبرهة، بدأ قلبها بالخفقان. وخالجها شعور بالخوف. خوف غريب. بعيداً عن الحرام وعن العيب. ربما هو هياج أنثوي ولّده الأمل بقرب قدوم الرجل هي تريده أن ينزل ويأتي إليها، ولا تريد. جلست تحت اللحاف، وشدّت ركبتيها إلى بطنها، شدّتهما جيداً، ووضعت يديها بين فخذيها وراحت تنتظر. وكلّما طالت فترة الانتظار، كانت رغبتها في مجيئه المتمهّل برجليه العاريتين الضخمتين تتغلّب. آه لو يأتي، لو يسرع بالمجيء، سوف تتظاهر بالنوم، ولن تأتي بأدنى حركة. إن شاء ليدسَّ أولاً إحدى يديه الضخمتين المشعّرتين تحت اللحاف. ثمّ ليمسك بفخذها، ليخف، ليحذر، ليسحب يده. ثمّ ليعد الكرَّة من جديد. وليزدد عبث يده. ثمّ ليدسَّ يده الثانية لمساعدة الأولى، وإذا ازداد عبثهما فليزدد. ولتضمها اليدان من طرفين مختلفين، ولتعصراها، ولتطقطقا عظامها...

تنهدت تنهيدة حرَّى بصدرها العامر.

الوقت ليل، والظلام مُخيِّم، فهي لن ترى وجهه لتستحي منه، حتّى لو استحت "ــ أماناً... هل هذا وقت الحياء؟" هو سوف يغادر غداً، وإن لم يكن غداً فبعد غد، وبعد ذلك من لمن؟ ولكن لا، ليته لا يغادر، ليته يبقى هنا بشكل دائم. ابنها؟ تقول له "ــ أبوك"، وما يدريه؟ إنه لا يعرف أباه. أب، أبٌ ما، إنه يريد أباً كائناً من كان، أمّا هل هو أبوه الحقيقي، أم لا... إنه يريد أباً يجلب له ألعاباً. وخاصة دراجة بثلاث عجلات، أباً يعود مساء متأبّطاً الخبز مثل آباء بقية الأبناء، فيعطي الخبز لابنه، ويمشيان سوية باتجاه البيت!

لم تصدر الأخشاب التي فوق صريراً ثانية.

تقلّبت من طرف لطرف بحنق، وهي تردّد في نفسها "ــ حمار،" جحش ابن جحش، يدان قويّتان، ورجلان ضخمتان، وجسم ضخم... فلماذا؟ لماذا لا تأتي؟".

لو كان دُوران الأعرج الآن!

تجهّم وجهها تحت اللحاف للحظة، هي لا تريد دُوران، لكنّه لو كان مكان هذا "الدب" الآن، لكان... ثلاث مرات على الأقل، وربّما خمس مرّات. لمَ هذا ليس عديم الحياء مثل ذاك؟ إنها لا تريد منه كلمة "أختي، أخت!" كلا، كلا لا تريد، لا تريد أن تكون أخته. سبع سنوات، سبع سنوات طوال... ممَ يخاف؟ أيخاف من أن تصرخ وتقيم الدنيا؟ ربما فعلت ذلك لو كان دُوران الأعرج.

ولكن في هذه اللحظة حتّى لو كان دُوران، نعم حتّى لو كان دُوران... لو كان ما قاله دُوران الأعرج صحيحاً، وكان زوجها قد تزوّج عليها عند أمه، لو تأكدت من ذلك، لكانت... مع هذا الذي يطقطق الأخشاب فوق وهو يتقلّب يمنة ويسرة. طلبٌ للمحكمة، ويُصدر القاضي حكماً بالطلاق في أول جلسة. كانت للمرحومة أمها قريبة، تركها زوجها وغادر، وبعد خمس سنوات تفاهمت المرأة مع رجل آخر، وتقدّمت بطلب للمحكمة، فأعطاها القاضي الحق في طلبها، وحكم بطلاقها من زوجها الذي لم يسأل عنها طيلة هذه السنين. هي أيضاً، أي هاجر، لو تتقدّم بطلب للمحكمة، ولو تطلّقها المحكمة من زوجها في جلسة واحدة. ولكن لكي تتزوج ثانية، يجب على الرجل الضخم اليدين والرجلين أن يذهب إلى دائرة عقد النكاح... كلا كلا، لا يذهب، لن يذهبا إلى دائرة عقد النكاح، ولن يوقّعا على سجل عقود النكاح الكبير. هي راضية بدون عقد. وإن شاء الرجل فليبق في البيت ولا يغادره أبداً. ولينم الليالي في السقيفة فوق. وسوف تذهب هي في النهار وتعمل كالعادة، فتجمع الغسيل الوسخ من الفنادق، وتسهر الليالي حتّى الصباح وهي تغسله. فتؤثث بيتها بما تجنيه من ربح. لماذا كانت أمها تلبي جميع طلبات زوجها؟ ذاك أيضاً كان مثل هذا ضخم اليدين والرجلين. من النوع الذي يهرس ويقطع ما يمسك به من أنحاء الجسم. كذلك ستعمل هي أيضاً مثل أمها برضا وحب من أجل زوجها. فتجمع الغسيل الوسخ، وتغسل أكوامه بالماء والصابون والسودة، دون كل أو ملل ودون أن تقول "أف" ثمّ تجففه وتكويه وتسلّمه لأصحابه. وعند المساء وفي طريق عودتها تشتري اللحم والخبز والخضار، وإن استدعى الأمر تجلب (لزوجها) العرق والشراب وعلب السكائر وتعود إلى بيتها!

تنهّدت بحسرة.

من أين سيعرف الجيران؟ ابنها؟ حتّى ابنها لا يعرف الحقيقة. وإذا كشف الجيران الغريب لأنهم يعرفون زوجها، فمن أين سيعرف ابنها؟ سوف تقول له "ـ إنه أبوك" سوف تقول له "ـ لقد حفر نفقاً وهرب من السجن" سوف تقول له "ـ حذار يا ولدي، لا تكلّم أحداً عن أبيك، وإلا والله يعتقلونه ويعيدونه إلى السجن ثانية". والولد عاقل، لن يتفوّه بكلمة لأحد. أخيراً وفي أحد الأيام، وبعد منتصف ليلة مثل هذه، يغادر ثلاثتهم البلدة. بدلات زوجها الداخلية وحاجياته موجودة في الصندوق، لكنها لا تصلح لهذا. فزوجها ناحل بينما هذا عريض المنكبين، ضخم الجسم صحيحه، إنه الرجل الذي يناسبها تماماً، فإذا ما

ضمّها إليه وتشبّث بها بذراعيه تحت اللحاف، وإذا ما أخـذها تحـت جسـمه الضخم...

سرَت رجفة في جسدها. إنها الرغبة. كانت رغبتها الأنثوية تتـدفق فـي جوارحها مثل سيل عارم.

ارتجفت ثانية.

تعرّقت تماماً كما لو أنها تحت الرجل بوزنـه وثقلـه... رمـت طـرف اللحاف، فابترد جبينها المتعرق في هواء الغرفة المظلمة، وكادت تصيح علـى من فوق:

"إي يا دب هل غفوت؟ تعال إلى هنا.. تعال ننام سوية! ممَّ؟ وممَنْ تخاف؟ هل تخاف مني؟ أنا امرأة، ما الذي يخيفك منـي؟ لا تخـف، تعـالَ بسـاقيك الضخمتين! حمار ابن حمار، إني أرغب فيك، أفلا تشتهيني؟ ألستَ رجـلاً؟ ألا تسمع صوتي؟ اسمع، تعال، تعال إكراماً لله، أكاد أجن، والله بالله أكاد أجن!".

قذفت بساقها المكتنزة الحارة الشديدة البياض خارج اللحاف، كانت تنضـح عرقاً، فاضطرها هواء الغرفة اللطيف إلى أن تعطس عطسة خفيفـة، سـمعها الرجل المستقيظ الذي فوق، وتخيَّلها كحمحمة فرس جموح. هو أيضـاً سـحب رجليه وشدَّهما إلى بطنه، ولامست ركبتاه ذقنه، ووضع يديه بين فخذيه، وراح ينتظر صعود المرأة السلّم بهدوء وقدومها إليه، فقد زالت الأخت الآن، وما عاد يفكر في التغوّط في الصحن الذي أكل منه أو عدم التغوُّط، ولا في عض اليـد الصديقة أو عدم عضها، إذ جعلت عطسة المرأة الخفيفة هذه أذنيه تنتصبان مثل حصانٍ شهواني جامحٍ لا يسعه إهابه، بل لقد صار في هذه الساعة مـن الليـل حصاناً شهوانياً جامحاً احمرَّت عيناه وقد اشتمَّ رائحة فرس!

مرَّة أخرى قال شيطانه وهو يبتسم ساخراً: "إياك والبلاهة أفضل ما تقدمه للمرأة مقابل معروف أسدته إليك، هو أن تنام معها، نم معها ولكـن إيـاك أن تشعرها بأنك خدعتها، وأنك إنما قصدت الإساءة إلى زوجها!".

ضحك، ونظر من الثقب إلى الأسفل. ما هذا؟ هل قذفت المـرأة بإحـدى ساقيها خارج اللحاف؟ تشجَّع الجانـب الشـيطاني فيـه، وازدادت شـهوانيته الحيوانية، حسناً ولكن ماذا يستطيع أن يفعل؟ يجب أن تحسّ المرأة بالأحاسـيس نفسها على الأقل، وإلا فكيف ينزل، وكيف يقترب منها؟

لمعت في ذهنه فكرة: ماذا لو نزل وكأنه ذاهب إلى الخلاء؟ فـإن كانـت

مستيقظة ولديها الرغبة، فسوف تبدي بعض الاهتمام، كأن تدلّه علـــى الطريـــق عندما تعلم بأنه ذاهب إلى المرحاض، وأن تنتظره في مكان ما حتـــى يفـــرغ، وعند العودة، وفي اللحظة التي سيصعد فيها...

استمر في تخيلاته..

لو تمسك بذراعه في اللحظة التي سيصعد فيها، أو لو يمسك هو بذراعها. هل ستصرخ؟ لا تستطيع الصراخ، كان واثقاً من أنها لن تصرخ، فهي تخـــاف من دوران الأعرج، ولو صرخت فسوف يسمع ابنها، وسوف يســـمع الجيـــران ويتجمهرون، وعندها أي مبرر لديها؟ لا شيء، ليس لديها أي مبـــرر تســـوقه لهم.. وسوف تعطي دوران الأعرج مبرراً ليقول لها: "للجميع أهلاً ولي شكراً؟" لذلك فهي لا تستطيع الصراخ، مع ذلك سيكون موقفاً سيئاً، لالا، فهو ليس عدواً للناموس والشرف، لا يستطيع أن يفعل ذلك؟! بدلاً من؟

مدَّ يده إلى بنطاله الذي كان قد خلعه، ورماه جانباً لا على التعيين، اشتهى أن يشعل سيجارة. يكاد يهلك على سيجارة الآن وفي هـــذه اللحظـــة، آه علـــى سيجارة واحدة!

أحيت طقطقة أخشاب السقيفة آمالاً جديدة جداً في نفس المـــرأة، ســـحبت ساقها ودسَّتها تحت اللحاف، وراحت تنتظر قدومه بين لحظة وأخرى، ســـوف تمتد إحدى رجليه الضخمتين على السلم أولاً، ثم تمتد الثانية، ويبـــدأ بـــالنزول ووجهه إليها، أو قد ينزل وظهره إليها. حسناً ولكن لماذا لا تمتد الرِّجل بشـــكل من الأشكال؟ لماذا لا يجرب النزول؟

في اللحظة التي كاد أن يمدَّ فيها رجله، خانته جرأته ثانية، لا يمكن يـــا .. ماذا قد تقول في نفسها؟ قد تقول: "يا خسارة، آويته في بيتي، وضمدت جرحه، ومددت لـــه فراشاً... وإذ به ذو حليب فاسد. وإذ به كلب، كلب ابن كلب، كلهم هكذا كلهم ليسوا إلا دوران الأعرج، فيما هو يردد أختي أختي... عليه اللعنة!".

قذفت المرأة بساقها الثانية هذه المرّة خارج اللحاف.

هل رأى الرجل ذلك أم أحسَّ به؟ إذ اجتاحته الرغبة من جديد وبرز الوجه الشيطاني، ليته لم يقل "أختي" ليتها لا تكون مثل عض "اليد الصـــديقة الممتـــدة إليه". ليت الأمر لا يكون مثل "التغوُّط في الصحن الذي أكل منه". لو يعرف أن الأمر لن يكون كذلك!

نظر ثانية إلى الأسفل، نعم نعم، لا تزال ساق المرأة البيضاء بياض الـــثلج

فوق اللحاف. وعلى الضوء المتسلل من النافذة التي فوق رأسه، والذي يضيء بعض الظلام، تخيل بعض الخيالات، ماذا لو ارتدى بنطاله ونزل إلى الإسفل؟ ليس بدعوى الذهاب إلى الخلاء، وإنما لو يستطيع أن يدَّعي أنه نزل يريد أن يترك البيت ويهرب منه دون أن يُشعر المرأة، وذلك حرصاً منه على سمعتها، وخشية من أن تلوكها الألسن. كيف ستتصرف المرأة يا ترى؟

أعجبته هذه الفكرة أكثر من فكرة الادعاء بالذهاب إلى الخلاء. افترض نفسه الآن قد نزل، وضبط في اللحظة التي كان سيفر فيها..

لا بد أن المرأة سوف يشحب وجهها وتسأله:

"ـــ إلى أين"

فيجيبها قائلاً:

"إني ذاهب!"

"ـــ إلى أين أنت ذاهب؟"

ـــ "خشيت أن تلحقك الأقاويل والشائعات!"

"ـــ هكذا؟"

"ـــ نعم"

"ـــ وإذا كنت أنا نفسي لا أخاف؟"

"ـــ مِمَ؟"

"ـــ من أن تلحقني الأقاويل والشائعات"

"ـــ حسناً ودروان الأعرج؟"

"ـــ ليبتليه الله هو وكل ذوي الألسنة السوداء!"

"ـــ إذن فأنتِ..."

"ـــ نعم، أحبك!"

ثم لو تلتف برقبته، ثم تضع رأسها على صدره، وتبدأ بالبكاء. آه لو تشهق بالبكاء وتقول: "ـــ لا تذهب"، "إكراماً لله لا تذهب، حتى لو كنت لا تحبني، إن كنت تحب الله فلا تذهب!"

ثم لو ترفع رأسها بارتباك وتسأله:

"ـــ أم أنك خائف؟"

"ــ ممَ؟"

"ــ من القبض عليك"

"ــ ....؟"

"ــ لا تخف من سيعرف بوجودك هنا؟ ابني؟ سوف أقول لــه إنه أبــوك، حفر نفقاً وهرب من السجن وجاءنا، حذار من أن تتفوّه بكلمة عنه أمــام أحــد، وإلاّ فإنهم يلقون القبض على أبيك ويأخذونه ويذهبون بــه، ولــن يســتطيع أن يهرب ويأتينا ثانية. والطفل يذوب شوقاً لأبيه ولن يتفوه بكلمة لأحد، وعلاقتــي بالجيران ليست حميمة، ولا تبادل للزيارات فيما بيننا. ثم في منتصــف إحــدى الليالي نغادر هذه البلدة أنت وأنا وابني إلى مكان ما بعيد، بعيد جداً، لا يعرفون فيه أنك قتلت شخصاً انتقاماً وثأراً، وبالتالي لا يســلمونك للســلطات، وبطاقــة زوجي الشخصية موجودة في صندوقي...".

انتَبَه لنفسه، فعلاً لا بد أن تكون بطاقة زوجها الشخصــية موجــودة فــي صندوقها، عليه أن يرتدي ثياب زوجها، وأن يدسّ بطاقته الشخصية في جيــب السترة الداخلي. عندها حتى لو أرسلت البرقيات إلى كافة نقاط الحدود بأنه قــاد عملية إحراق المزرعة، وحتى لو عممت أوصافه، فكيف سيعرفون بأنه حبيــب وهو بهذا المظهر الجديد؟ ويحمل هذه البطاقة الشخصية الجديدة؟

اقتنع بذلك تماماً.

آه على سيجارة، لو يشعل سيجارة الآن!

سوف يخرج من البلدة في صبيحة إحدى الليالي ببطاقته الجديدة، وســوف يسير طويلاً في عكس اتجاه قريته، ثم ينتظر المرأة وابنها في مكان ما، وسوف يأتيان. فيقفز ويمتطي دراجة نارية، ومدِّي يدك يا ديار الغربة، ربما يــذهبون إلى أزمير أوأنقرة، أو أفضل شيء ليتهم يذهبون إلى استانبول، ففي اســتانبول التي ذهب إليها عدة مرات مَنْ لمن؟ هناك سوف يشتغل هو والمرأة كتفاً لكتف، في أحد المصانع يا ترى، أم في أي عمل من الأعمال الأخرى؟

أفضل شيء أن يحقق هذا..

امتدت رِجله الضخمة بساقها الغليظة على درجة السُّلم بتردد، لكن لمــاذا يخفق قلبه بشدة؟ كان قد ارتدى بنطاله، ودسّ مسدسه في جيبه وسوف يتظــاهر بأنه يريد التسلل مثل لص ومغادرة البيت حتى لا تُمسَّ سمعه المرأة بكلمة. لكن ربما هي تغط الآن في نوم عميق، وإذا لم تكن مستيقظة ووقعت خطتــه فــي

الماء؟

سحب رِجله ثانية..

شاهدته المرأة التي تحت، وراح قلبها يخفق بشدة. فهي تريد من ناحية، ولا تريد من ناحية أخرى، هي تريد نزوله إليها، ولا تريد. وعندما انسحبت الرَّجل احتدت: "جبان! أنا امرأة، فما بالك أنت؟ اخجل من يديك ورجليك الضخمتين، اخجل من لحيتك وشاربيك، ومن جسمك الصحيح، تعال يا حيوان، تعال يا حيوان ابن حيوان تعال!".

كأنها سمعت صوت رجل امتدت مجدداً على درجة السلم ثم تبعتها الرِّجل الثانية، توقفت الرِّجلان الضخمتان لحظة جنباً إلى جنب مثل حمامتين ساكنتين. ثم امتدت الرِّجل الأولى على الدرجة الثانية، وتبعتها الثانية فنزلت إلى جانبها، توقفتا، كأنهما تراقبان المحيط، كانت قدما الرَّجل عاريتين، ولكن هل يرتدي بنطالاً؟ إلى أين سيذهب؟ حذار من أن يكون ذاهباً إلى الخلاء، وليس قادماً إلي!

بقلبها الخافق، وبعينيها نصف المغمضتين راقبت تحركات الرَّجُل، وبالأصح تحرّكات قدميه.

نزلت الرِّجلان درجة أخرى، ثم أخرى، وصار واضحاً الآن البنطال الذي يرتديه. إن كان ذاهباً إلى الخلاء فيجب عليها أن تدلّه على الطريق، ولكن ما زال هناك وقت، لو كان ينوي القدوم إليَّ لما ارتدى البنطال.

جلس على الدرجة السفلية الثالثة، ورغماً عنه تثاءب ثم مسح عينيه بقبضته الضخمة، يبدو أنها نائمة، إن كانت نائمة.. فهذا يعني أنه ظنَّ بها ظنوناً خاطئة، هذه لا تشبه النساء اللواتي عرفهن، لو كانت تشبههن لما بقيت محافظة على شرف زوج هجرها منذ سنين طويلة ولم يسأل عنها بسطرين، ولخانته مع من تصادفه أمامها..

في هذه اللحظة تماماً استوت المرأة في فراشها وصاحت:

ــ مَن هذا؟

تجمد الرجل فجأة وأجاب:

ــ أنا.

ــ إلى أين أنت ذاهب؟

شعر بأن جملة "إني هارب لكيلا يساء إلى سمعتك بكلمة" جملة طويلة، فانزلقت من فمه كلمة:

ـ إلى المرحاض.

فرحت المرأة، فهو لا ينوي المغادرة، لو أراد أن يغادر لغادر فهو رجل جان ارتكب عدة جنايات ما زال دخانها يلفه، إضافة إلى أنه تكلم عن إبادتهم جميعاً، فمن الطبيعي أن يغادر، ثم إنه لا يعرفها تمام المعرفة، ومن حقه أن يخشى على نفسه من أن تسلمه.

ـ انتظر لأنير المصباح.

ـ لا ، لا حاجة.

ـ لماذا؟

ـ الجيران.

ـ صحيح، المرحاض في الطرف الأيسر من نهاية الحوش، إنه محاط بالأخشاب.

ـ أعثر عليه.

ـ هل ستستطيع فتح الباب؟

ـ سأفتحه

ـ إن شئت آتي أنا و...

ـ لا حاجة، لا حاجة، سأفتحه.

اتجه بهدوء نحو باب الغرفة المغلق، سُرَّت المرأة لأنه لم يخاطبها بقوله: "يا أختي" أختي. هي لم تكن أخته ولا تريد أن تكون كذلك. ابن الناس، ذو يدين ورجلين ضخمتين وذو جسم صحيح وثقيل، إنه تماماً الرجل الذي ترغبه، ولكن لا يمكن، وكيف يمكن لامرأة أن تقول لرجل: "ـ كذا كذا.. إني معجبة جداً بك.. تعال إلي لننام سوية!"؟

تحسَّس الرَّجل الباب بيده ووجد المزلاج الحديدي فرفعه، ففُتحت ضلفة الباب بصرير خفيف. وعلى ضوء النجوم التي تملأ السماء التي لا قمر فيها، عبر الحوش بتؤدة منعطفاً إلى اليسار وعثر بسهولة على المرحاض المسوَّر بالأخشاب. إنه بحاجة إلى تبول خفيف، ولكن عليه أن يستغرق بعض الوقت.

دخل المرحاض، فبال وانتظر.

آه لو يستطيع أن يشعل سيجارة في هذه الآونة!

تحطمت جميع آماله، فالمرأة محافظة على فرجها، وإلا لابتسمت له،

ولتحرشت به برغبة وشهوانية، في هذه الساعة من الليل، جيد أنه لم يمد يده ليتحرش بها، وإلا لكان صورة حية للرذيلة، ولكان ارتكب أعلى أشكال الحيونة، أما كان سيقول لها: "ـ إني ذاهب يا أختي، لكيلا يساء إلى سمعتك بكلمة..."؟ لم يستطع أن يقولها، وتحدث عن "المرحاض" الذي فكّر به قبلاً.

اخرج علبة السجائر من جيب بنطاله فشممها، ثم دسَّها في جيبه ثانية.

ارتبك، إذ سمع فجأة همهمة كلب وراء الجدار، لا بد أنه كلب الجيران. هل شمَّ رائحة غريب؟ وإذا بدأ بالنباح؟ وإذا بدأ يقيم الدنيا ويقعدها؟ من يومه وهو لا يحب الكلاب. لملم نفسه وحاول أن يهرب من همهمة الكلب لكن الحيوان همهم بحدة أكثر مرة أو مرتين ثم بدأ بالنباح. استطاع حبيب برجليه المتعثرتين وبظهره المحني أن يعبر الحوش المضاء بأضواء النجوم، وما إن وصل تماماً إلى باب الغرفة حتى سمع صوت الطفل المرتعد خوفاً:

ـ ماما!

كان صوت الطفل مرتجفاً خائفاً.

لم يستطع الرجل أن يدخل إلى الغرفة، ولا أن يسحب قدمه التي خطا بها خطوة إلى الداخل.

أجابت المرأة بصوتها المنفعل:

ـ ماذا تريد؟

ـ من هذا؟

أجاب الصوت الحانق بانفعال أشد:

ـ نم، هيَّا نم!

ـ هل جاء أبي؟

لمعت الفكرة كالبرق في رأسها، مع ذلك لم تستطع أن تقول نعم، ولا أن تقول لا..

نهض الطفل الآن واستوى في الفراش.

الكلب ما زال ينبح في الخارج.

أمسك الطفل بيد أمه بانفعال:

ـ جاء أبي أليس كذلك يا أمي؟ جاء أبي أليس كذلك؟ لماذا لا يدخل؟ لماذا يا أمي؟ كنت تقولين إنه سيأتي، جاء أليس كذلك؟ ماذا جلب لي؟ هل جلب لي

ألعاباً؟ مسدساً؟

دفع يد أمه بانفعال محاولاً النهوض

ـ لنشعل المصباح يا أمي!

اقتنعت المرأة بتمثيلية "الأب" فبها تستطيع إقناع ابنها وليست هناك وسيلة أخرى لإقناعه. فقالت له:

ـ اسكت!

سكت الطفل، ونظر حوله بخوف، ثم وجه نظراته إلى أمه، وسألها خائفاً وبصوت خافت:

ـ لماذا! ماذا هناك؟

اقتنع الرجل أيضاً بتمثيلية "الأب" فلا فائدة من وقوفه منتصباً هكذا أمام الباب، ولج إلى الداخل وتوقف عند طرف الفراش.

طار الطفل وهو يصيح:

ـ بابا، باباتي!

التفّ بفخذي الرجل، كان تماماً كما أراده أباً طويل القامة، عريض المنكبين. لم يكن يرى وجهه، ولكن يكفي أنه طويل القامة عريض المنكبين. لم يكن أبو أحد من الأولاد هكذا مثله طويل القامة عريض المنكبين. لا شك أن أباه أقوى من الجميع، ويستطيع أن يصرع آباء جميع الأولاد.

ـ كيف، كيف جاء؟ أما كان الأطفال يقولون بأنه لن يأتي؟

ليروا بأعينهم هل يأتي أم لا؟ ماما، أنت يا ماما، أشعلي هذا المصباح.

كان يعرف مكان الثقاب، ترك أباه وركض وعثر على الثقاب وأشعل عوداً، فأضيئت الغرفة لحظة بضوء أصفر مرتجف، تبيّن فيها وجه أبيه الملتحي، ليكن بشعاً بقدر ما يشاء، فهو جاهز جداً للإعجاب به!

لحيتك طويلة يا أبي! أمي تحتفظ لك بعدة الحلاقة في الصندوق، غداً تحلق لحيتك أليس كذلك؟ أمي، أشعلي هذا المصباح إني لا أصل إليه، لو وصلت إليه لأشعلته..

نظرت المرأة أيضاً إلى الرجل نظرة خاطفة من خلال الضوء الأصفر، هل يبدو أكثر ضخامة في هذا الضوء المرتجف؟ أم أنه فعلاً أكثر ضخامة؟ لم تقف عند ذلك طويلاً، وجهت لابنها ثانية تنبيه "اسكت!" وذهبت فأشعلت

المصباح.

صار الطفل يرى أباه بشكل أوضح الآن، يريد أن يصفق، يريد أن يلتف برقبة أبيه ويقبل خديه، لكن ما سبب تنبيه أمه "اسكت!" ماذا هناك؟ لماذا يجب أن يسكت؟ بالرغم من كونها ساعة متأخرة جداً من الليل فهو مستعد لأن يطير الآن إلى الزقاق ليعلن لأولئك الذين كانوا يغيظونه على مدى سنوات بقولهم: "أنت لا أب لك، أبوك لن يأتي أبداً..." أن أباه قد جاء، وأنه هو أيضاً قد صار له أب، وأن أباه أيضاً سيكون له اعتباراً من الآن ابن يستقبله عندما يعود إلى البيت عند المساءات حاملاً أنواع العلب على كتفه وتحت إبطه!

التقط كف أبيه الضخمة المكتنزة، قَبَّلها، ضغط بها على صدره. أوه يا، أوه يا... هو أيضاً له أبوه الآن، أبوه الأطول قامة من كل الآباء، والأقوى كثيراً منهم، أبوه القادر على صرع جميع الآباء!

ــ اجلس يا باباتي!

سحبه إلى الأريكة، وأجلسه وقال:

ــ تماماً هكذا.. لن تذهب أبداً بعد الآن، أليس كذلك؟

نظر الرَّجل إلى المرأة، لا جدوى، فقال مبتسماً:

ــ لن أذهب.

ــ لا تذهب، إن ذهبت فسوف نبكي أنا وأمي!

أجاب الرجل إكراماً للطفل:

ــ لن أذهب.

ــ كل واحد له أب، وسيكون لي أب أنا أيضاً اعتباراً من اليوم. هل ستشتري لي دراجة بثلاث عجلات مثل دراجة علي؟

أوضحت المرأة:

ــ ابن جيراننا المقابلين لنا، اشترى له أبوه دراجة بثلاث عجلات منذ أيام...

ــ طبعاً سأشتري.

ــ دراجة زَينَلْ أكبر وأجود، لكنها باهظة الثمن، هاشم آغا هو جد زنيلْ، أولئك أغنياء، ربما ليس لديك مال كثير، اشترِ لي دراجة مثل دراجة علي تكفيني، يكفي أن تكون ملكي، إنه يتباهى بأنَّ لديه دراجة بثلاث عجلات،

ستشتري أليس كذلك؟

التقت نظرات المرأة الشابة بنظرات الرجل، فقالت:

ـ سوف يشتري..

هزَّ الطفل يد أبيه يريد منه تأكيداً على كلام أمه:

ـ سوف تشتري أليس كذلك؟

ـ سوف أشتري.

ـ مثل دراجة علي؟

ـ مثل دراجة علي.

ـ وإذا أراد الأطفال امتطاءها ومنعتُهم؟

ـ تمنعهم.

ـ وإذا ضربوني؟

ضحك الرجل ونظر إلى المرأة التي ضحكت وقالت:

ـ لن يستطيع أحد أن يضربك، فأبوك موجود من الآن فصاعداً !

راح الطفل يضرب على صدره بقبضتيه بانفعال وهو يصيح:

ـ يعيش... لا يستطيع أحد ضربي من الآن فصاعداً، أنا أيضاً لديَّ أب!

وبدأ يردد قطعة من كتاب الألف باء يغنيها غناء:

بابا اشترِ لي حصاناً

بابا اشترِ لي عشباً

بابا ضع العشب أمام الحصان

بابا ضع العشب ضع...

....

نبهته المرأة قائلة:

ـ كفى!

نظر الطفل مدهوشاً وتساءل:

ـ لماذا؟

ـ أبوك متعب ونعسان أيضاً!

أدار الطفل نظراته الحائرة صوب أبيه:

ــ هل صحيح؟ هل أنت متعب؟
ــ نعم إني متعب.
ــ لماذا؟
ــ لأني أتيت من بعيد.
ــ هل بعتِ حصتك؟
نظر الرَّجل مجدَّداً إلى المرأة التي أجابت:
ــ باعها.
ــ من أين أتيتَ؟
ــ من بعيد!
حاول الطفل أن يتصور البعيد، جبال. هل يقع البعيد خلف الجبال؟
ــ هل من الطرف الآخر من الجبل؟
ــ من الطرف الآخر.
ــ هل جئت على دراجة نارية أم على حصان؟
ــ جئت ماشياً.
صاح الطفل مدهوشاً:
ــ ماشياً؟
ــ ماشياً.
ــ من البعيد، ماشياً؟
ــ ماشياً.
ــ لماذا؟
ــ هكذا.
ــ لماذا جئت ماشياً ما دمت تملك أجرة دراجة نارية؟
مرة أخرى قالت المرأة:
ــ كفى!
أسند الطفل رأسه إلى صدر أبيه، وقال لأمه وهو يحاول أن يضم جسم أبيه الضخم بين ذراعيه:
ــ مالَكِ أنت؟

سُرَّت المرأة لمنظر ابنها يلتف بأبيه وكأنه زوجها فعلاً، لكنها حاولــت ألا تظهر ذلك، فقالت:

ـــ أبوك متعب وجريح يا بني، يجب أن ينام طويلاً لكي يتماثل للشفاء.

ارتخت ذراعا الطفل، وتراجع إلى الوراء قليلاً ونظر إلى أبيــه مبهــوراً، كمن ينظر إلى جبل، وسأله:

ـــ هل أنت جريح حقاً؟

هزَّ الرَّجل رأسه بالإيجاب.

ـــ لماذا؟

لا مفرَّ، ولا جدوى، فقال:

ـــ لقد صوَّبوني برصاصة.

ـــ من؟

ـــ أعدائي.

ـــ لماذا أطلقوا عليك الرصاص؟

كيف يستطيع أن يفهمه الآن لماذا أطلقوا عليه الرصاص؟ نظر إلى المرأة طالباً منها المساعدة.

مالت المرأة على ابنها قائلة:

ـــ تعال يا بني، تعال نم في مكانك، لا تتعب أباك. سيبقى عندك باستمرار من الآن فصاعداً، وسوف تتحدثان طويلاً طويلاً، سوف تتحدثان، لكن إيـــاك أن تخبر أحداً عن قدوم أبيك، أليس كذلك؟

ـــ لماذا؟

قد يخبرون عنه السلطات فتلقي القبض عليه!

نظر الطفل إلى أبيه حائراً وسأل:

ـــ ماذا فعل أبي كي يخبروا عنه؟

ضاق الخناق على الرجل والمرأة، فأجابت:

ـــ حفر نفقاً في السجن، وهرب منه.

لم يفهم الطفل فتساءل ثانية:

ـــ السجن؟ وما هو السجن؟

أجاب الرجل:

ـــ دار العقاب!

ـــ دار العقاب؟

ـــ إنه بيت مقفل!

ـــ لماذا كنت في بيت مقفل؟

ـــ تشاجرت، فقتلت رجلاً...

ـــ حقاً؟

ـــ أولئك كانوا يريدون قتلي، فبادرت أنا...

صفَّق الطفل بيديه وصاح:

ـــ تعيش!

واستدار إلى أمه بانفعال وقال:

ـــ كما في الفيلم ها!

ثم التفت إلى أبيه:

ـــ في الفيلم، أحاطوا بالرجل، لكمة، ولكمة أخرى... أشهروا مسدساتهم، فهجم الرجل عليهم، وسلب أحدهم مسدسه، وراح يطلق عليهم، طاق، طاق، طاق!

بدأت مشاهد الفيلم المحلي الذي شاهده مع أمه هذا الصيف تتوالى في مخيلته من جديد. كان الرجل المحاط به يشبه أباه تماماً، بشعره الأشعث وبشاربيه وبلحيته، وبقامته الطويلة، تمكن من حصر خصومه في زاوية، وراح يكيل له اللكمات. اهتزت دار السينما بأصوات: "اضرب! اضرب!" هو أيضاً صرخ كالآخرين حتى كادت حنجرته تنشق، وصفق للرجل بيديه الصغيرتين. أخيراً طرح الرجل الرجال الخمسة أرضاً بلكماته، وهجم على الأخير وسلبه مسدسه. بيل ـــ كيد كان كذلك، وجيم العجوز، وبيكوس ـــ بيل. أبوه من هؤلاء إذن. صفق بيديه ثانية وصاح:

يعيش أبي!

ثم سأل فجأة:

ـــ ماذا يحدث إذا ألقوا القبض على أبي؟

يرمونه في السجن ثانية. قالت المرأة:

ـــ يرمونه في السجن ثانية، قالت المرأة.

فكَّر الطفل لحظة. وماذا يحدث إذا رموه في السجن؟ إنَّه أب تصدى لخمسة أشخاص.

ـــ تحفر نفقاً وتهرب ثانية أليس كذلك؟

فأجابت المرأة:

ـــ لا يستطيع الهرب ثانية.

لم يقتنع الطفل بذلك، فقال:

ـــ هه. لا يستطيع الهرب... (لأبيه) تحفر وتهرب أليس كذلك يا بابا؟

ـــ لا أستطيع الهرب.

ـــ لا تستطيع الهرب ها؟

ـــ لا أستطيع الهرب.

ـــ هيَّا نَم.. دع الرجل يرتاح. سوف أطفئ المصباح!

كان الطفل ينظر إلى أبيه، لم يره منذ سنوات طويلة، يريد أن ينظر إليه طويلاً، هذا القادم ماشياً من بعيد، ربما لم يكونوا خمسة كما في الفيلم، ربما طرح عشرة أو خمسة عشر شخصاً أرضاً وهرب من السجن، الجدران، جدران السجن؟

ـــ كانت الجدران التي ثقبتها سميكة جداً أليس كذلك؟

ـــ جداً.

ـــ بماذا ثقبتها؟

ارتبك الرجل، فعلاً بماذا يمكن ثقب جدران السجن؟

أجابت المرأة:

ـــ سوف يشرح لك ذلك فيما بعد، نم الآن...

وفيما هو يندسّ تحت اللحاف، ارتسمت فأس في مخيلته، فلا يمكن ثقب جدار سميك بدون فأس، حسناً، لكن الفأس تحدث جلبة، ألا يسمع حراس السجن جلبة و أصوات الفأس؟

دفع اللحاف الذي سحبته أمه فوق رأسه، وقال:

ــ ألم يسمع حراس السجن ...

كان يريد أن يكمل سؤاله "الجلبة؟" حين رأى أباه يتسلق السُّلَّم إلى السقيفة:

ــ آه... هل سينام أبي في السقيفة؟

ــ سينام في السقيفة؟

ــ لماذا؟

طاش صواب المرأة فصاحت:

ــ اقطع يا ....

ــ لماذا لا ينام هنا معنا؟

حارت المرأة في الإجابة على هذا السؤال، أما الرجل فكان قد تسلَّق السُّلَّم وتمدَّد على ظهره فوق فراشه.

أَحَبَّ الطفل كثيراً، عيناه السوداوان تلمعان مثل عينيّ جِنِّي. هل سيصير ابنه أيضاً هكذا بعد ست أو سبع سنوات؟

أما تحت فكان الطفل يلحّ في السؤال:

ــ ها ماما؟ لماذا لا ينام معنا؟ الآباء جميعاً ينامون مع الأمهات فلماذا لا ينام أبي؟

حارت الأم في الإجابة وأرتج عليها.

ــ ها؟ لماذا لا ينام معنا؟

هكذا هو لا ينام؛ ما أدراها لماذا لا ينام؟ ليأتِ، لينم، هل هناك من يقول له: "لا تأتِ، لا تنم!"؟ إنه لا يأتي، إنه لا ينام. رغم أنه لم يقل لها "أختي". لكن من يدري؟ والمرأة لا تستطيع أن تبادر وتقول للرجل "تعال نم بجانبي"، بينما الرجل عندما يكون رجلاً فعلاً، لتتهرب منه الأنثى ما تشاء، فإنه سوف يجد وسيلة ما، فيأتي يقترب منها، يلتصق بها، يداعبها بيده، ويفعل، ويفعل...

ــ لماذا لا ينام معنا يا ماما؟

ثم إن الرجل يفهم من نظرات الأنثى، هذا لا يفهم. هل هو لا يفهم حقاً؟ لا تظن ذلك، لكن من يدري؟ ربما جرحه، هل يؤلمه جرحه يا ترى؟ ممكن . إذا كان جرحه يؤلمه باستمرار، وهو يحاول أن يخفي ألمه، فإنه لا يفكر، لا يفكر في أي شيء..

ـــ آباء الجميع ينامون مع أمهاتهم، لماذا أبي لا؟

صاحت وقد طاش صوابها:

ـــ ما أدراني أنا يا؟

انتصبت أذنا الرجل فوق: " ما أدراني أنا يا؟" تعني: "فليأتِ فلينم، قل لـــه تعال، قل لـــه نم، ما أدراني؟ مالك تسألني؟ هل جاء ونام وقلتَ لـــــه لا تـــنم معي؟".

لمعت عيناه في الظلام ببريق الأمل.

فعلاً، عليه هو أن يبادر بعد الآن إلى ما يراه مناسباً. استيقظ شيطانه فـــي داخله وقال له: "حمار!". "حمار ابن حمار! هل اقتنع مخك مخ الثـــور أخيـــراً؟ الطفل جاهز ويلح. ولو لم تكن المرأة راغبة لأسكتته، وبما أنها لم تسكته فمـــا بك واقف؟ لقد أطفأت المصباح، وما زال الطفل يلح، قل له: إني قادم يا بنـــي، وانتظر قليلاً، فإذا لم تبدر من المرأة أي بادرة اعتراض، انزل واجلـــس علـــى طرف الفراش، وانتظر قليلاً أيضاً، فإن كانت المرأة راغبة فسوف تبدي ذلك!

تفجر الغليان في داخله.

لو أنه ينزل، ويأخذ الطفل ويضمه إلى صدره بحب حتى يغفو، ثم وبحجة أنه سيمدده إلى جانب المرأة... قد تقول لـــه المرأة برقة: "انتظر، لنمدده علـــى الأريكة" وتأخذه من حضنه... وفيما هي تحمله قد تلامس يدها يده، وقد تلامس بعض ثنايا جسمها التي تحت ثوب نومها الضيق، بعضاً من جســـمه، ســـوف ينتظر برهة، يُمدِّد الطفل النائم، وتسأله المرأة:

"ـــ هل طار نومك؟"

فيجيبها قائلاً:

"ـــ طار"

"ـــ ونومي أيضاً.."

"ـــ ماذا سنفعل؟"

"ـــ بماذا؟"

"ـــ بنومنا الذي طار؟"

قد تقول المرأة:

"ـــ لم يكن بي نوم أبداً، كنت مستيقظة حتى قبل أن تذهب إلى المرحاض،

لا أعرف لماذا لم يأتني النوم بشكل من الأشكال، وأنت؟"

"ـ أنا أيضاً لم يأتني النوم.."

"ـ حقاً؟"

"ـ والله."

قد تسود فترة صمت بينهما. وقد تمر الخيالات نفسها في مخيلتيهما. وبعد فترة قد تميل المرأة على ابنها، لتتأكد من أنه نائم أم لا. ورغم أنه لن يكون واضحاً تماماً في الظلام، إلا أنه سوف يفهم من نبرات صوتها مدى اهتياجها وهي تقول بفرح بالغ:

"ـ إنه نائم!"

لم يعد الرجل يسعه إهابه تمطى بلذة ونشوة، وكأنما طقطقت عظام جسمه كلها. واستبدت به رغبة عارمة، رغبة عارية، شهوانية، حيوانية، سوف يتظاهر بأنه سينهض.

فتسأله المرأة بصوتها الخافت المليء بالرغبة:

"ـ إلى أين؟"

"ـ سوف أذهب لأنام، أنتِ أيضاً جاءك النوم!"

تمسك المرأة بيده بلهفة وتقول:

"ـ لا تذهب!"

"ـ حسناً؟"

"ـ إبقَ!"

"ـ وماذا بعد؟"

قد تضغط على روحها بأسنانها وتقول له:

"ـ نم هنا!"

فيتصرف كمن لم يفهم، فتقول له:

"ـ زقوم!"

يفهم، يتشبث بها جيداً، ويرتمي عليها.

وبصدره الضخم المنتفخ مثل منفاخ، تقلب إلى جانبه الآخر، فصرّت الأخشاب التي تحته، أي أن السقف طقطق أيضاً. عليه أن ينزع بنطاله ويكون

جاهزاً. خطرت بباله سيجارة، فأخرج علبة السجائر من جيبه، وفيما كان يشمها سمع صوت الطفل تحت:

ــ ماما!

ــ نعم؟

ــ السَّقف طقطق!

ــ تقلَّب أبوك من جنب لجنب..

ــ ألا توجد فئران في السقيفة؟

ــ توجد.. لتبلى بالعمى..

ــ وإذا أكلت أبي؟

ــ ماذا؟

ــ الفئران..

ــ ما بها الفئران؟

ــ إذا أكلت أبي؟

ضحك الرجل بدون صوت.

أما المرأة فقد سمعت السؤال لكنها لم تضحك إذ لم تفهمه فقد كانت منفعلة، فالطفل لا يغفو، بل يلحُّ في الأسئلة، وهي لا تسكته فلماذا لا يفهم ذاك؟ وهل في هذا ما لا يفهم؟ لو لم تكن راغبة لأسكتته بكفين، ولدسَّته تحت اللحاف وتركته يبكي ما شاء البكاء، ثم لو لم تكن راغبة ما لها ولجرحه ولأعدائه؟ كان بإمكانها بعد تنظيف الجرح وتضميده أن تقول له: "ــ هيا بالتوفيق" وأن تغلق باب باحة الدار خلفه بإحكام.

ــ ها ماما؟

ــ ماذا؟

ــ وإذا أكلت فئران السقيفة أبي؟

ــ إذا أكلته، أكلته، هيا نم!

أدرك الرجل المغزى الخفي لهذه الجملة وفهمها هكذا:

"ــ إذا أكلته فلتأكله، فلتذهب إلى الجحيم روح الأب الذي لا فائدة منه لأمك! أجل إلى جهنم، لقد نظرت إلى شكله وقوامه، وإلى يديه ورجليه

الضخمتين فحسبته رجلاً. وإذ به...

اجتاحته مرة أخرى رغبة عارمة في إشعال سيجارة، دسَّ يده في جيب بنطاله وأخرج منه علبة السجائر وعلبة الثقاب. السجائر مفتتة تماماً، لا يمكن إشعالها، توقف الكلب عن النباح من خلف جدار الصفيح، لكنه كان يهمر بين الحين والآخر.

شمَّ السجائر، وشمَّ علبة السجائر مطوَّلاً.

**

V

حاجته للتدخين حملته وأخذته إلى يوم خريفي بعيد قبل سنوات في جقـور أوفا، بتربتها الخضراء الخصبة والغنية بأشعة شمسها الحارّة الأرض، ونزاعات الأرض التي لا تنفد ولا تنتهي.

شمَّ ثانية ومن الأعماق علبة السجائر التي في يده.

أبوه، إخوته...

تبدَّت لـه الآن أكثر وضوحاً أسباب إحراق مزرعة السيدة، وكان أبوه بلحيته البيضاء على رأس تلك الأسباب!

كان يجمع أبناءه ويقول لهم: "أبنائي، لقد جئت، وإني راحل. لقد كبرتم جميعاً وصرتم رجالاً، وصار لديكم أولاد، الأراضي التي بأيدينا لا تكفي عائلتنا التي تكبر وتتكاثر، عائلتنا بحاجة إلى أراضٍ أكثر. غداً عندما أغمض عيني وأرحل إلى الدار الآخرة سوف تقتسمون الأراضي، وهكذا سوف تتفتت الأرض المقتسمة، ولن تكفي أياً منكم القطعة التي ستكون من نصيبه هل تسمعون؟ الأرض التي ستكون من حصة كل منكم لن تفي بحاجاته، وسوف تعيشون أنتم وأولادكم حياة مهينة مضطربة، فكرِّوا فالسنين ستمضي في سيرها الحثيث دون توقف، وسيصير لكل منكم ثلاثة، خمسة أولاد، وأولئك أيضاً سيكبرون ويزدادون، الأرض، الأراضي، أراضكيم.... إليكم متاعب الحياة التي ستعترضكم:

"سوف يقف أولادكم في وجوهكم وهم يضغطون على أسنانهم، وسوف تنشب المشادات بين الآباء والأبناء.. أنا لم أدَعْ مجالاً لهذا، كذلك أبي، وقبله جدي لم يدعا مجالاً لذلك، لأن الأرض في ذلك الزمن لم تكن لها هذه القيمة. والد مظفر الذي حطَّ على قريتنا مثل بلاء أسود، لم يكن حزبيًّا مثل ابنه مظفر، ابنه أدهى، فهو يظلم أهل القرية مستنداً بظهره إلى حزب. لماذا انسحبنا من ذلك الحزب؟

انسحبنا بسبب مظفر الذي استولى منذ عشر سنوات علـى الأراضـي التـي لا صاحب لها. وحسبما سمعت فإنه راجع المحكمة لكي يسجل تلك الأراضي باسمه، فإذا ما سجلها باسمه فقد احترقتم، والأفضل لكم أن ترحلوا عن هذه الـديار، وإلا أصبحتم خدماً، ومتسولين على باب مظفر، هل تعرفون ما هو باب الآخـرين؟ لا تعرفون. لا رمى الله أحداً على أبواب الآخرين ولا اضـطره لمـدِّ يـده سـائلاً الآخرين. فالآخر أنكى من الكافر. خاصة بالنسبة لأمثالكم مـن الـذين عاشـوا وترعرعوا في أملاكهم وأرزاقهم، والذين لم يعتادوا فتح أيديهم، والسؤال إلا مـن آبائهم وأمهاتهم، لا يمكنهم مطلقاً تحمل الوقوف على أبواب الآخرين، وتحمل مذلة وإهانة تلك الأبواب!".

كانت أمه قد بدأت بالبكاء، فقالت وهي تتأوه:

"ــ صحيح".

أكمل أبوه حديثه قائلاً:

"ــ اسألوا أمكم، أيام هربنا ولجأنا إلى جبال طوروس في عهـد الاحـتلال الفرنسي... تموت جوعاً ولا تستطيع أن تقول لجارك أو لصديقك أو لقريبك إنـي جائع، فذلك صعب جداً على الإنسان الذي لم يعتد اللجوء إلى أبـواب الآخـرين، ومدِّ يده سائلاً إياهم. لذلك افتحوا أعينكم جيداً يا أعزائي!

سأل أخوه الكبير الذي يذكّر بالثعلب بشاربيه الأصفرين:

"ــ حسناً، وماذا يجب أن نفعل؟ أعطنا فكرة!"

أبوه الذي خاض الحرب العالمية، وتنقل في جبهات اليمن وقفقاسيا، وقاسـى شدة الجوع، وبحث بين روث الخيول عن حبات الشعير فعزلهـا وأكلهـا، أبـوه الأكثر مكراً من أخيه الكبير، نظر إلى أولاده بترفع وقال:

"ــ عندما ولدتكم وجئت بكم إلى الدنيا، أعطيتكم من العقل والفكر ما يجب أن أعطيه، أما ما بعد ذلك فيقع عليكم، وعلى نباهتكم، ما أعرفه أنه يجب ألا يُسـمح لمظفر بأن يسجل الأراضي التي لا صاحب لها باسمه!"

العام ١٩٤٨ ورياح الديمقراطية تهب على البلاد، وترفرف فـي أجوائهـا اللافتات التي تقول للجور وللإدارة التعسفية "كفى!".

وعندما يستلم الحزب الديمقراطي زمام الحكم، فكأنمـا سـوف يحـل يـوم الحساب، إذ سوف تبدأ التحقيقات، ويُفتح "دفتر أعمال" كـل شـخص، ويُعاقَـب المسيئون، ويزول الظلم من البلاد، وتصبح الدنيا نظيفة.

"ـ إذا كان الأمر كذلك، فلندخل الديمقراطي نحن أيضاً نكاية بمظفر.."

قال الأب ذو اللحية البيضاء بعد أن مسح لحيته بيده:

"ـ لا!"

فتساءل الأبناء بشيء من الانفعال:

"ـ لماذا؟"

"ـ وهل هناك لماذا؟ إني متأكد أن عصمت باشا سيقول لهذه الأشياء يوماً "كفى". أبوكم يذكر... كانت الأمور هكذا تماماً عام ١٩٣٠، إذ شاعت بين الناس بدعة الفرقة الحرة، ولكن بعد فترة قصيرة، قيل لهذه الفرقة الحرة "كفى!". فكم تساوي ديمقراطيتكم غداً عندما يقال للديمقراطية "كفى!"؟

لم يستوعب أولاده شيئاً مما يقول. فقد استمعوا إلى خطابات القادة الديمقراطيين في ساحة اينونو في أضنه، وكانت كلماتهم حماسية وقوية.

تساءل حبيب أصغر الإخوة الثلاثة وأشدهم حمية:

"ـ ماذا يحدث؟"

"ـ وماذا سيحدث؟ يُغلق الحزب الديمقراطي، ويُلاحق الديمقراطيون ويُعاقَبون!"

راودهم الشك، فنظروا في وجوه بعض لكن حبيب ثانيةً قال:

"ـ لا يا روحي، فالديمقراطية لا تشبه الفرقة الحرة، وحسبما سمعت فإن أمريكا لم تكن تتدخل في هذه المسائل، أما اليوم فإن أمريكا تتدخل في شؤون العالم كله، وتريد أن تنشر نموذجها في الحكم في كل مكان، لذلك لا يستطيع عصمت باشا إنهاء الديمقراطية!"

ضحك الأب الذي يبدو قوياً رغم تجاوزه السبعين، وقال:

"ـ لنقل بأن عصمت باشا لم ينهِ الديمقراطية، لم يستطع إنهاءها، فماذا لو سارع مظفر وانتسب إلى هذا الحزب الَذي انتسبتم إليه؟

اعترض الأشقاء الثلاثة كلٌّ من جانب:

"ـ لا يستطيع الانتساب!"

"ـ لماذا لا يستطيع الانتساب؟"

"ـ لا يقبلونه، فالحزب الديمقراطي تأسس لمحاربة الظلم. القادة يُصرّحون بذلك بأعلى أصواتهم. هل هو مجرد كلام؟ لا يمكن أبداً أن يقبلوا رجلاً ظالماً مثل

مظفر مارس شتى أنواع الظلم والقهر لسنوات وسنوات، ومن ذلك أنه أخذ خطيبة ابن أخيه واتخذها زوجة له".

لم ينبس أبوهم ببنت شفة، لكنه كان واثقاً أن الديمقراطيين حين تحين الساعة واليوم، لن يقبلوا في حزبهم مظفراً فحسب، بل سوف يَقبلون فرحين عصمت باشا نفسه لو أراد الانتساب.

فعلاً وقبيل انتخابات ١٩٥٠، لما رأى مظفر كفَّة الانتخابات تميل لصالح الحزب الديمقراطي، سارع وبدفع من أصدقائه أيضاً، وأدهش المدينة بأسرها وانتسب إلى الحزب الديمقراطي. حينها اختفى الأشقاء الثلاثة عن الساحة لأيامٍ وأيام. وكان كسب أبيهم العجوز المجرب ذي اللحية البيضاء الدعوى سبباً لاختفائهم. فما كانوا وقتها قادرين على تحمل ابتساماته المستخفة بهم من تحت شاربيه، ولا تحمل مزاحه وسخريته، كانوا أشبه بالمجانين، وفوق ذلك مزاح أبيهم!

قارب الأشقاء الثلاثة رؤوسهم وراحوا يفكرون فيما يجب عليهم فعله، لأن الحزب الديمقراطي عندما نجح في انتخابات ١٩٥٠ واستلم السلطة وتربع على كرسي الحكم، لم يفتح دفتر أعمال أحد، ولم يحقِّق مع أحد من المسيئين.

تربَّع الأشقاء الثلاثة على الأرض في الغابة التي تقع خلف القرية، في أحد الأيام، وراحوا ينفثون دخان السجائر مثل مدخنة سفينة، ويقلِّبون أطراف هذا الموضوع.

قال حبيب:

"ـــ أيها الأغوات، إني أصغركم سناً، ولكن اسمحوا لي أن أقترح عليكم اقتراحاً!"

سأله أخوه الأوسط وهو يفتل شاربه الأشقر:

"ـــ ما هو؟"

"ـــ عدانا نحن، هل لأهل قريتنا مصلحة في تلك الأراضي البور التي لا صاحب لها، والتي تقع في الطرف الغربي من القرية، أم لا؟"

"ـــ لهم مصلحة"

"ـــ أيمكن أن لا يكون لهم مصلحة؟"

"ـــ إذا كان الأمر كذلك، فيجب علينا أن لا نطعمَ ذلك الديوث هذه الأراضي مهما كان الثمن!"

ضحك أخوه الكبير ذو الشاربين الأصفرين وقال:

"ــ طبعاً. ولكن كيف؟"

قذف حبيب برأيه:

"ــ فلنخفِه من الوجود، ولينتهِ أمره!"

وبعد فترة طويلة من الصمت المرعب تساءل أكبر إخوته:

"ــ ومن سينَفِّذ هذا العمل؟"

وبدون أي تفكير قال حبيب:

"ــ أنا!"

نظر الشقيقان إلى شقيقهما الأصغر بدهشة وتساءلا:

"ــ كيف؟"

"ــ اتركا الكيفية لي. والآن أنتما لم تسمعا مني شيئاً من هذا القبيل، ولم نتكلم في هذه الغابة عن هذا الموضوع. هل لديكما سجائر؟"

لم يبقَ لديهم سجائر. لقد نفدت بعد أن دخَّنوها جميعاً سيجارة تلو الأخرى.

هذا الإحساس بالحاجة إلى التدخين الذي يحسُّه حبيب الآن وهو في السقيفة، فيما حديث هاجر مع ابنها مستمر في الأسفل كان قد أحسَّه ذلك اليوم أيضاً في تلك الغابة. مع فارق واحدَ وهو أن سجائرهم نفدت في الغابة، أما هنا فإن علبة السجائر في يده، لكنه لا يستطيع التدخين.

زجرت المرأة ابنها ثانية في الأسفل:

ــ نم يا، أف!

انقطع صوت الطفل، فهل نام فعلاً يا ترى، أم أنه سكت خوفاً من أمه؟

لم يكن حبيب في حالة تسمح لــه بالتفكير بذلك، إذا كان وكأنما فُتح مسيل الذكريات في رأسه وراحت حياته الماضية تسيل فيه:

كان قد كمن لمظفر داخل دغلة في إحدى الليالي، وأرداه قتيلاً بمسدسه. أقام مصرع مظفر الدنيا في المدينة وفي القرية فقد استنفر الحزب الديمقراطي تماماً، ولحسن حظ حبيب، ولشكهم بأن حزب الشعب وراء حادث القتل هذا، ولشدة التنافس بين الحزبين، لم تثبت التهمة على حبيب وعلى كثيرين من أمثاله رغم زجهم في السجن. وهكذا تبخر مظفر وولّى. ولّى ولكن ما الفائدة؟ فقد انبرت لهم زوجة مظفر هذه المرة. طبعاً، فوريث مظفر الآن في كل أملاكه المنقولة وغير

المنقولة، بما فيها الأراضي البور التي لا صاحب لها، هي زوجته "السيدة" وهـذه السيدة حولها أبوها وعمها ومحاميها الذي يدور مثل برّام، وأصدقاؤها ذوو الجـاه والنفوذ، بمعنى أن مخططيها ومدبريها كانوا كثراً. وهكذا راحت معاملة تسـجيل الأراضي البور التي لا صاحب لها التي بدأت في زمن مظفر، تستكمل إجراءاتها الآن بسرعة أكبر، فما الذي يجب فعله في هذه الحالة؟

فكّروا أياماً وأياماً ثم نشروا بين أهل القرية فكرة أن "مزرعة السـيدة" هـذه انقلبت إلى مركز للدعارة، وجاؤوا بأمثلة من الكتب المقدسة وأدخلـوا فـي روع القرويين أنهم سوف يهلكون وسوف تهلك قريتهم بسبب هذه المزرعة والـدعارة التي تمارس فيها. إذاً في هذه الحالة؟ كيف ينقذون أنفسهم من الهـلاك؟ بمنتهـى البساطة: يهاجمون المزرعة ويقتلون السيدة ووليدها الـذي وضـعته حـديثاً، أي يمحقون ورثة مظفر، ويقتلعون جذور هذه العائلة من على وجه الأرض!

اعتبروا نباح أحد الكلاب حتى الصباح، وولادة صوص صغير بثلاثة أرجل في تلك الليلة، ووقوع هزة أرضية خفيفة "إشارات على أن الله تعالى سوف يهلك القرية" وأقنعوا القرويين بذلك فتجهزوا. في الحقيقة لم يكن القرويون سذّجاً، ولـم يقتنعوا نعم لم يقتنعوا ولكن كانت لهم مصلحة في ذلك. فهذه الأراضي البور التي لا صاحب لها منذ سنوات طويلة، يجب أن تبقى هكذا غير مملوكة لأحد، ويجـب أن يزرعها القرويون على هواهم ويجنوا ثمار ما زرعوه كيفما شاؤوا.

بإشارة من حبيب وإخوته هاجم الفلاحون مزرعة السيدة في إحدى الليـالي، فهدموا وأحرقوا كل شيء، أما حبيب فما كان مهتماً في تلك اللحظة لا بحرق أبنية المزرعة، ولا بنهبها وسلبها. ذلك كان لـه همٌّ وحيد: قتل زوجة مظفر بيك وابنه وإطفاءجذوته. هكذا يستخلص الأراضي التي لا صاحب لها لمصلحة أهل القرية!

....

شمَّ بعمق علبة السجائر التي في يده.

هل نام الذين في الأسفل يا ترى؟

أصاخ السمع، أغلب الظن أنهم ناموا

الواقع أنهم لم يكونوا نياماً.

كانت المرأة تفكر بالرجل برغبة متزايدة، وكان حسين يفكر بأبيه: طالما حفر نفقاً في السجن وهرب فلماذا ينام في السقيفة؟ ما الفرق بين النوم فـي السـقيفة، والنوم في الأسفل في الفراش، بجانب أمه؟

أخرجت هاجر ساقها من تحت اللحاف ثانية، لكن الرجل الذي فوق لم يـرَ،

لأنّه لم يكن ينظر، كان يفكر بأن عليه أن يهرب ويبتعد بدلاً من أن ينتظر شفاء جرحه. إنه واثق أن الرجال الدرك قد حاصروا المنطقة من جميع الجهات حتى الآن، وأنهم لن يدعوا مجالاً للطير الطائر أن يطير. وإذا ما ألقي القبض عليه فالسجن بانتظاره، ثم المحكمة، والمحاكمة، ثم هو يعرف جيداً ما سيراه أخيراً عند خشبة الإعدام.

شمَّ سجائرة ثانيةً.

لا بد أن الدرك قد أخبروا مخفر هذه البلدة، ولا بد أن الجوَّ مضطرب الآن وغداً عندما تنزل المرأة إلى المدينة سوف تفهم كل شيء، عندها سنرى، هل ستستطيع إغلاق فمها؟

أما المرأة فكانت تنتقل رويداً رويداً من الإغماء تحت وطأة رغبتها الأنثوية الجامحة المتزايدة إلى الإغفاء، ودون أن تشعر مطلقاً دخلت في غياهب غفوة مليئة بالأحلام، كانت نائمة مع الرجل في حلمها، وقد التفَّا ببعض بقوة.

"ـــ خنزير، لماذا لم تأت فوراً؟"

"ـــ خفت".

"ـــ مِمَّ؟"

"ـــ من أن تمانعي، وتصرخي"

"ـــ مع أنني..."

"ـــ ومن أين لي أن أعرف أنك ترغبين بي؟"

"ـــ امرأة بلا زوج طوال هذه السنين، ألم يخطر ذلك ببالك؟"

"ـــ لم يخطر..."

"ـــ لم يخطر بباله، انظري إلى هذا، هيا ضُمَّني!"

فَركها الرجل بكفيه الضخمتين، ثم ضمها بين ذراعيه القويتين.

"ـــ أقوى!"

"ـــ....... ....."

"ـــ أقوى، أقوى..."

سمع الرجل من مكانه في الأعلى أنَّات المرأة المثيرة في حلمها، وكان في تلك اللحظة بالذات يشم علبة سجائره التي بين يديه. نعم ولكنْ، هذه الأنَّات؟ هو يعرف هذه الأنَّات والتأوهات، يعرفها من زوجته، تلك أيضاً كانت تئن هكذا

أحياناً، وحين يسمع أنَّاتها يعرف أنها تحلم، فيوقظها، ويسألها، فترد عليه بحياء:

"ـــ أماناً منك..."

وضع علبة سجائره جانباً، ونظر من خلال الثقب إلى الأسفل. لم يتمكن من رؤية شيء في البداية، مجرد ظلام باهت ثم اعتادت عيناه. بل عيناه وأنفه، وكأنما كانت رائحة تعرُّق جسد المرأة تتطاير من تحت، اعتادت عيناه الظلام الباهت، واعتاد أنفه رائحة الأنثى. يكاد يجن لو ينزل، لو يصل إليها بهدوء، لو يدسُّ يده تحت اللحاف...

ارتجف من أعماق الأعماق..

لكنه كان خائفاً أيضاً، نعم يمكن ولكنْ، هل هذا وقته؟

إنه رجل مطارد، سَيُجرُّ إلى خشبة الإعدام إذا ما تم إلقاء القبض عليه. يجب أن ينحصر همه الآن في أن يختفي جيداً، ثم أن يلقي بنفسه إلى الطرف الآخر في أنسب وقت. ولكن ماذا يوجد في الطرف الآخر؟ ماذا سيحدث؟ قد يلقى القبض عليه، وقد يُقدَّم للتحقيق والإجابة على أسئلة لا تنفد ولا تنتهي من قبل هيئات رسمية لا يعرف لغتها، وقد يلقى به في السجن.

"ـــ كائناً ما كان، أفضل من خشبة الإعدام!"

عاودته مرة أخرى الرغبة في تدخين سيجارة.

انزاح عن الثقب، وزحف نحو الفراش، فتناول علبة السجائر من حيث وضعها، وأغمض عينيه، وبنهم شديد شمَّ العلبة طويلاً. رائحة التبغ تفوح، صحيح أن التبغ غير مشتعل، لكن رائحته تفوح. آه لو يستطيع أن يشعل سيجارة!

ماذا يجري لو أشعل سيجارة؟

يُشعل عود ثقاب بهدوء بين راحتيه، ومنه يشعل سيجارته ويطفئ عود الثقاب فوراً. وما أن تخيَّل الدخان... خطر المرحاض بباله، ليته يدخن سيجارة هناك، وينفث الدخان في مجرى المرحاض.

حدَّق فيما حوله في الظلام لم يتراءى لـه أي شيء، لو يشعل عود الثقاب بين راحتيه، ويشعل سيجارته... وينفث الدخان نحو الخارج من خلال شقوق السَّقيفة!

اجتاحت كيانه رغبة عارمة في التدخين، زحف نحو الطرف الآخر من السقيفة، وهو وإن آلمه جرحه أثناء زحفه لكنه لم يكترث لذلك، وراح يتحسس بيده باحثاً عن خشبة منزاحة. كانت النجوم تتلألأ من بين الشقوق. وفجأة خطر بباله

خاطر: هنا الطرف الخلفي للبيت. من يعرف ماذا قد يحدث... لو ينزع المسامير عن أنسب مكان، ويؤمن لنفسه منفذاً يهرب منه حين يضطر لذلك. وفيما هو يتحسَّس يميناً ويساراً، عثر على موقع تضطرب أخشابه. دفع الخشبة فانزاحت من مكانها. وبعد قليل أزاح الثانية ثم الثالثة. يستطيع الإنسان من هنا أن يرمي بنفسه إلى الخارج حين يضطر لذلك.

"ـ ليس وقته الآن السيجارة أولاً!"

غداً، نهاراً يستكشف هذا المكان ثانية.

أخرج سيجارة من العلبة، وأشعل عود ثقاب أشعل به سيجارته، مع ذلك كان خائفاً. لم تنتشر نار عود الثقاب في هدأة هذه الليلة الساكنة، لكن رائحة دخان السيجارة المشتعلة هي التي سرعان ما انتشرت. وتسللت هذه الرائحة المنتشرة إلى نوم المرأة الحالمة، واختلطت بأحلامها المضطربة، فذكَّرتها برجلها الذي كان لها قبل سنوات طويلة، برجلها الذي كان يدخن السجائر، بل ويشعل السيجارة إثر السيجارة، أي ذكرَّتها بزوجها. هذا الرجل الذي لم يسأل عن بيته ولو بسطر واحد منذ سبع سنوات، والذي غالباً ما كان ابنها حسين يشرد ويفكر به، جاء بسيارة تلمع وتبرق، محمَّلاً بالعلب، والسيجارة بين أصابعه.

جنَّت المرأة هلعاً وخوفاً: ما لها ولهذا الغريب الذي في السقيفة؟

سألها الرجل فجأة وقد عرف كل شيء:

"ـ هناك أحدهم فوق....؟"

"ـ أجل."

أجابته المرأة بقلب يرتجف:

"ـ إنه غريب..."

"ـ أيُّ غريب؟"

"ـ جريح.."

"ـ وماذا يفعل في سقيفتنا؟"

"ـ لا شيء.."

"ـ كيف لا شيء؟"

سألها الرجل فجأة وقد عرف كل شيء:

"- هناك أحدهم فوق...؟"

"– أجل."

"– من هو؟"

أجابته المرأة بقلب يرتجف:

"– إنه غريب..."

"– أي غريب؟"

"– جريح.."

"– وماذا يفعل في سقيفتنا؟"

"كيف لا شيء؟"

"ـــ والله لم أدخله بنية سيئة ها!"

بدأ الرجل يرتجف من شدة الغضب:

"ـــ إذن فقد انتهزت فرصة غيابي و..."

"ـــ والله لا، بالله لا!"

"ـــ ماذا تعني كلمة لا؟ الذي فوق رجل يا!"

انطلقت المرأة محاولة أن تشرح كل شيء دفعة واحدة:

"ـــ هو جاء ، كان جريحاً، لــه أعداء، إنها مسألة ثأر أنت تفهمها. ظننتــه مدسوساً من قِبل دوران الأعرج، لم يكن كذلك، كان جريحــاً، ضــمدت جرحــه إرضاء لله، أقسم على الكتاب إن شئت، صدِّقني إن كنت مسلماً. الكل يعرف كيف حافظتُ على بيتك طيلة هذه السنوات!"

لم يقتنع الرجل، وفيما كان يعود أدراجه نحو السَّيَّارة حاملاً علب الهدايا التي جلبها، كانت هاجر تجري خلفه متوسلة:

"لا تذهب، إكراماً لله لا تذهب، أتوسل إليك، لقد غبت سبع سنوات ولم تسأل عنا ولو بسطرين. انظر لقد كبر ابنك، الرجل جريح، وأنا فعلت ما فعلته إكرامــاً لله، لا تذهب، هل ستذهب دون أن تداعب ابنك وتحبه؟"

غادر الرجل دون أن يلتفت وينظر خلفه. في تلك اللحظة بالذات نزل الجريح الغريب من السقيفة، وأمسك بكتفَي المرأة التي تجهش بالبكاء، فشدَّها وأجلســها، وقال لها:

ـــ "كُفِّي عن البكاء، طالما ذهب وغادر بسببي، فالذَّنْبَ ذنبي، وعليَّ أن أفعل ما يمليه علي واجبي. كيفما كان فإن ابنك يعتبرني أباه، انتهينا، نتزوج، تصبحين

زوجتي، أختبئ فترة من الزمن، ثم في إحدى الليالي، حين تكون البلـــدة غافيـــة، أخرج بهدوء، فنهرب ونبتعد!"

"ــ إلى أين؟".

"ــ إلى العاصمة، إلى الأبعد.."

كانت تتصببُ عرقاً بين ذراعي الرجل القويتين، سواء كان هذا أو ذاك، هي بحاجة إلى رجل، خاصة إذا كان هذا الرجل ممتلئاً وقوياً، لا نحيفاً مثل زوجها...

عندما استيقظت وهي تتصبَّب عرقاً، كانت ما تزال تحت تأثير الحلم الـــذي حلمت به قبل قليل. عاد زوجها، لم يعد، يكفي أن يعلن هذا عن قبوله بأن يكـــون زوجاً لها، ويقول "نعم" كما في الحلم!

برفسة قوية دفعت عنها اللحاف الذي يغطيها، وأصاخت السمع في الظلام: لم يكن هناك أي صوت في الأعلى، لكنها عندما أصغت وانتبهت جيداً بعـــد قليـــل، سمعت شخير الرجل الخافت جداً، هل يشخر في نومه يا ترى؟ صـــوت شـــخير الرجل جعل دمها يغلي من جديد. كم كان جميلاً في الحلم حتى لو عاد زوجها بعد غياب هذه السنوات السبع، ما أحلى أن يقف هذا إلى جانبها!

استوت في فراشها، وانتظرت سماع صوت شخير يصدر من الأعلـــى، لـــم يصدر، نظرت إلى ابنها، لم تره في البداية، مدَّت يدها وتحسَّسته، إنه موجود هنا بجانبها، يغفو. طبيعي أن يغفو في مثل هذه الساعة من الليل لكـــن المهـــم كـــان الرجل؛ الغريب!

ليته، يمسكها من كتفيها بكفيه القويتين، كما في الحلم، ويضمها بين ذراعيه، ويهصرها، ويطقطق عظامها ضمَّاً وهصراً...

نهضت من الفراش، نظرت إلى السلَّم: لو تصعد السلَّمَ رويداً رويداً فتصـــل إليه، ثم لو ترفع اللحاف وترتمي في أحضانه!

قلبها يخفق بشدَّة، وضعت يدها وأمسكت الخافق الذي يخفق مثل عصـــفور جريح ساخن يرتجف ، اجتاحتها رغبة قوية، وبجرأة أقوى تقدمت نحـــو السَّـــلَّم، توقفت، ماذا يحدث لو صعدت إليه؟ لا شك أنه لن يغضب، ولكن هـــل ســـيكون تصرُّفها لائقاً؟ يجب أن توجد مبرراً ليبدو تصرفها لائقاً، ربما صرخ الرجل فـــي نومه، ربما أنَّ أنيناً موجعاً، فصعدت إليه لترى ما به... ثـــم يتجاذبـــان أطـــراف الحديث من هنا ومن هناك، والحديث يجرُّ الحديث. وهي تنتظر أن يمدَّ يده، لـــن تستسلم فوراً وسترى هل سيكون كما في الحلم؟ هل يعرض عليها الزواج؟ "ــــ إذن عرضت عليك الزواج في الحلم؟ ما أحلا ذلك؟ هل نتزوج؟ ما رأيك؟"

للحظة ما عاد يسعها إهابها.

آه لو يتحقق هذا... ستلتف بيديه، وسرعان ما سيضمها الرجل القوي بين ذراعيه الضخمتين!

راح قلبها يخفق بشدَّة أكثر.

وضعت قدمها على الدرجة الأولى من السلَّم، ازداد الخفقان، وكأن الغرفة المظلمة اهتزت. سحبت قدمها ثم مدَّتها ثانية، ثم في لحظة ارتقت الدرجة الثانية، كان خفقان قلبها، وإحساسها بتصاعد أشياء حارة إلى حلقها، وشعورها بأن العيب والحرام يلبسها، يزداد شدة بازدياد عدد الدرجات المرتقاة. إذن فقد تخنقها الدرجة الأخيرة من السلَّم التي توصل إلى الرجل.

جلست على الدرجة الثانية وأسندت قدميها على الدرجة الأولى، فجأة سمعت سعلة قوية. قفزت مسرعة إلى فراشها، وقد انتصب شعر جسدها كالشوك. ما كان خوفها من الرجل بل من أن تسمع سعلته تلك من الخارج. ماذا لو كرَّر هذه السَّعلة نهاراً، وسمعها الجيران أو أبناؤهم الذين يلعبون قرب المنزل؟

انطفأت نيران رغباتها الأنثوية خلال ثانية فالخوف من أن تلوكها الألسن، محا وأزال رغباتها الأنثوية العارية الجامحة المجنونة.

هي تحت اللحاف الآن بقلبها الذي ساءت حالته. لكم كان قوياً صوت السَّعلة المخشوشن بفعل السجائر، التي أطلقها الرجل في نومه! وراحت تسبح في بحر متلاطم من القلق والخوف "وإذا سعل أثناء خروجي لتوزيع الغسيل النظيف على أصحابه، أو أثناء ذهابي إلى الغابة للاحتطاب؟ وإذا سمع الجيران سعاله؟ وإذا شكُّوا حين سماعهم سعاله؟ وإذا أخبروا الدرك فداهموا المنزل؟"

خطر ببالها لوهلة أيضاً ذهابه ومغادرته..

استمعت قليلاً إلى هدأة الليل. ومن البعيد، البعيد جداً، صاح ديك، ثم صاح ديك آخر كأنه يعلن خطأ صياح الأول...

هل أقبل الصباح؟

نهضت واتجهت ببطء نحو النافذة، فرَّجت ما بين ضلفَتَي الستارة البيضاء، ونظرت إلى السماء التي لا تزال النجوم الكبيرة تتلألأ في كبدها، وحلَّ لون رمادي باهت محل الظلام الدامس، معلناً زوال سحر الليل.

أسدلت الستارة، وعادت إلى الفراش.

سحبت اللحاف حتى صدرها: "... وإذا سعل أثناء غيابي؟ وإذا سمع الجيران

أو أبناؤهم؟ وإذا أخبروا الدرك؟ وإذا داهم رجال الدرك البيت؟"

الدرك والمداهمة وإنزال الغريب من السقيفة، والحجارة والعصـــي، وأهـــل القرية يتجمهرون ويبصقون، والأولاد يقرعون الصفيح، والجميع يحرضـــهم مـــا استطاع دوران، دوران الأعرج.

صاح ديك آخر من مكان أقرب قليلاً.

**

VI

إثر إحراق "مزرعة السيدة" تم إيقاف عدد كبير من أهل القريـــة، وفـــي المقدمة منهم والد حبيب وشقيقاه.. وأرسلت البرقيات يميناً وشمالاً من أجــل القبض على حبيب فوراً..

هبّت على قدم وساق كافة البلدات والقرى في هذه المنطقة التـــي نـــدر أن حدثت فيها مثل هذه الأحداث منذ سنوات وسنوات، وأولت الحكومة الموضـــوع أهمية قصوى، فقبل إحراق المزرعة، تعرَّض صاحبها مظفر بيك العائـــد مـــن المدينة إلى مزرعته بسيارته الكاديلاك عند إحدى الدغلات "لجريمة اغتيال من فاعل مجهول" أودت بحياته. ولم يمكن إلقاء القبض على الجـــاني رغـــم كـــل التحريات والملاحقات..

كل شيء كان واضحاً في الظاهر. ففي القرية التي تقع فيها مزرعة مظفر بيك، توجد "أراضٍ لا صاحب لها". هي مثار نزاع طويل بين مظفر بيك وأبيـــه وجدِّه من قبله، وبين أهالي القرية. كان الفلاحون حين يرون أنفســـهم أقويـــاء يحرثون هذه الأراضي ويزرعونها ثم يحصدون ما زرعوه. وعلى العكس تماماً حين يكن الأغوات أقوياء، كانوا هم الذين يستثمرون "الأراضي التي لا صاحب لها" ويستفيدون منها.

احتدَّ النزاع بين مظفر بيك وبين الفلاحين في هذه الفترة. وكـــان الـــدرك والمنطقة بل والدولة بأسرها، يعرفون ذلك، كما يعرفون أن مظفر بيـــك الـــذي وضع يده عشر سنوات على هذه الأراضي يعمل الآن على تســـجيلها باســـمه. كذلك يعرفون أن الفلاحين مستاؤون جداً من تصرفات مظفر بيك الـــذي يجـــد نفسه الآن أقوى من أي وقت مضى! وكانت "الظروف الموضـــوعية" مواتيـــة

لمظفر بيك فهذه الأراضي التي لا صاحب لها يمكن أن تصبح لمن يحرثها ويزرعها ويستثمرها عشر سنوات متوالية. لذلك يمكن لمن يرى أنه صاحب حق أن يراجع لإثبات حقه. باختصار فإن مراجعة مظفر بيك لتسجيل الأراضي التي لا صاحب لها باسمه لدى سجلات الدولة، أثار الفلاحين وحركهم، فكمنوا له في إحدى الليالي، أثناء عودته من المدينة وقتلوه، وهكذا ستبقى الأراضي كما كانت سابقاً بلا صاحب لها. وسيستفيد الفلاحون من وضعها هذا . هذا هو سبب مقتل مظفر بيك، ولكن من الذي ارتكب الجريمة؟ هذا ما لم يُعرف. حينها أيضاً كما اليوم أُوقف كثير من الفلاحين، فضُربوا وعُذبوا، ولكن لم تُعرف هوية الجاني. أخيراً أُطلق سراح جميع الموقوفين لعدم كفاية الأدلة.

أما بالنسبة لمهاجمة المزرعة وإحراقها...

صار واضحاً جداً الآن صاحب اليد الرئيسية في هذه الأحداث، فقد عُرفت هوية الشخص الذي هاجم أرملة مظفر بيك الشابة يريد خنقها، ثم ولأسباب غير معروفة، عدل عن خنقها، وهرب شارداً مذهولاً.. ولم تكن هناك حاجة للبحث عن أدلة أخرى على المتهم، فقد اعترف شقيقاه وسردا كل شيء مثل البلبل، وأوقعا شقيقهما الأصغر.. ولم يبق لدى المحققين أدنى شك في أن مقتل مظفر بيك من عمل حبيب المعروف بأنه شخص دامي العينين، وكلامه على رأس لسانه، ولكمته قوية، وهذا يعني أن حبيباً قتل مظفر بيك (عن سابق تصور وتصميم) أي (متعمداً) ولكي يقتلع جذور مظفر بيك حرَّض الفلاحين وجعلهم يحرقون "مزرعة السيدة" أرملة مظفر بيك.

حسناً، ولكن أين هو هذا القاتل السفاح منذ ثلاثة أيام؟

بعد إحراق المزرعة، وبعد هروب الجاني بمهارة فائقة ملتوياً مثل ثعبان من أمام البواريد التي تطلق نيرانها عليه، تمت مداهمة بيته حيث وجدت فيه صورة صغيرة له سحبت عنها نسخ عديدة وزعت يميناً وشمالاً، ثم عممت أوصافه بسرعة هاتفياً وبرقياً وبدأ التحرك للقبض عليه حيًّاً أو ميتاً.

كانت إحدى هذه الصور فوق طاولة المساعد الأول رئيس المخفر وكان هذا المساعد الأول قصير القامة، عريض المنكبين، كثيف وأسود الحاجبين، وهو لا يفتأ منذ أيام ينظر بين الحين والحين إلى الصورة التي بين يديه.

قال مخاطباً الدركي الجالس وراء الآلة الكاتبة:

ـ شيء محيِّر، لم يُلق القبض عليه اليوم أيضاً...

ترك الصورة على الطاولة ونهض، فقال الدركي:

ــ هو حتماً لم يطر يا سيدي المساعد الأول.

قال المساعد الأول الذي يزرع غرفة المخفر جيئة وذهاباً واضعاً يديه خلف ظهره:

ــ لا يستطيع الطيران، لا يستطيع الطيران ولو كان طائراً، ولكن إمَّا أنه لم يأت إلى هذه الأنحاء، وإمَّا أنه مختبئ في مكان لا يخطر على بال. عليك أن تنتهي من نسخ هذه التعميمات اليوم. إني ذاهب إلى المقهى، وإذا جاءني هاتف أو غيره أخبرني فوراً!

ودون أن ينتظر سماع جملة "ــ حاضر سيدي المساعد الأول" من الدركي الجالس وراء الآلة الكاتبة، غادر الغرفة:

تعج هذه البلدة الغنية من بلدان جقور أوفا بالمقاهي، وقد انقسمت هذه المقاهي إلى قسمين، فأغلب المقاهي الكبيرة والصغيرة ملك لأعضاء الحزب الديمقراطي، وبقية المقاهي لأعضاء حزب الشعب الجمهوري، وهناك بعض المقاهي في الأطراف والزوايا لأعضاء حزب الأمة، لكنها لم تكن تشبه مقاهي الحزبين الآخرين. أما أكبر مقاهي البلدة فكانت مقهى كاوور الذي يتقدم حثيثاً في الحزب الديمقراطي، والذي يعرف الجميع أنه كان حتى البارحة يلعب القمار على جانبي الخندق مع عمال الحفر نهاراً، وفي الليل يسطو على البيوت فيحمل ما تيسَّر مما خفَّ وزنه وغلا ثمنه ويقول له: "هيا بنا". لذلك سُجن أيام حكم حزب الشعب الجمهوري، بل إن بعض عقلاء الديمقراطيين لم يكونوا غير مستائين ضمناً من تقريب أمين فرع المنطقة لهذا الرجل، وكان هؤلاء حزبيين مخلصين يحبون حزبهم فعلاً، لكن أصواتهم لم تكن مسموعة، فيما كان الذين يتلاءمون مع ديناميكية رئيس الوزراء يوضعون تيجاناً على الرؤوس. وبالاعتمادات المصرفية الضخمة التي كانت تمنح "للديمقراطيين الديناميكيين" سرعان ما أصبح هؤلاء ذوي أموال وأملاك وأعمال.

أما سبب لمعان نجم كاوور القهواتي فهو أنه كان في انتخابات ١٩٥٠ يشرب الكحول ويملأ رأسه ثم ينضم إلى تجمعات الدعايات الانتخابية التي تقام في مختلف ساحات أضنه، فيصيح وينادي بسبب وبلا سبب "ــ تعيش! دمت سالماً!! أسد الأسود أبونا!!!" وأمثال ذلك من كلمات كانت تخرج الحزبيين الآخرين عن أطوارهم، وهو يطلقها بأعلى وأقوى صوت. وفي إحدى المشاجرات التي وقعت في لحظات الانفعال والتوتر، ضرب عضوين من

أعضاء حزب الشعب الجمهوري فأدمى فميهما وأنفيهما، وألقي بهِ في السجن. لكن سجنه لم يكن مؤثراً. فقد فاز الحزب الديمقراطي في انتخابات ١٩٥٠ فيما كان كاوور في السجن. وبالاستفادة من العفو مثل كثيرين غيره، خرج كاوور من السجن بطلاً من الأبطال، وأوصل إلى البلدة بشاحنة كبيرة مزدانة بالأعلام، يلفه الغبار والدخان، وتحيط به صيحات الفرح والنصر. وإذ به في البلدة بلا بيت، بلا مأوى، بلا عمل.. ما سبب ذلك؟ السبب أنه عضو في الحزب الديمقراطي، وأن حزب الشعب الجمهوري معاد له. وفي هذه الحالة كيف يجب التصرف؟ في غاية البساطة، يجب أن يُمنح القروض المصرفية اللازمة مثل كل مواطن عضو في الحزب الديمقراطي. يجب أن يُعتبر كاوور أيضاً إنساناً ويوضع في لائحة البشر.

بعدها سارت الأمور بكل سهولة ويسر: قروض مصرفية طويلة الأجل من مختلف المصارف.. شراؤه في البداية أحدَ المقاهي الصغيرة في وسط البلدة بسعر زهيد، ثم هدمُه للمقهى وإشادة مقهى حديث نظيف جميل المظهر، مطبخه وأدواته جديدة لامعة براقة، جعله بطلاً قومياً. إنه صادق ومخلص للحزب ولشرف الحزب، ولقيادة فرع الحزب في المنطقة، وللقيادة العامة للحزب ولكل من تعتمدهم وتثق بهم!

وعندما بنى بعد المقهى بيتاً جميلاً من الإسمنت، مكوَّناً من طابقين، بدأ كاوور يزداد وزناً، وكان لديه استعداد لذلك، إذ سرعان ما ظهر له كرش ضخم، ثم تزوج، وصار صاحب أولاد وعيال. وسرعان ما كان يطلق العنان للسانه عندما يلاحظ أن أحداً من الجمهوريين ينظر إليه من بعيد نظرات ذات معنى ومغزى، وإذا ما أخطأ أحدهم وحاول الإجابة والرد، لم تعد هناك حاجة لكاوور، إذ كانوا يعملون له اللازم وأكثر.

عندما دخل المساعد الأول رئيس المخفر المقهى، وبيده صورة الهارب حبيب، كان كاوور يجلس مع هاشم آغا عم دوران الأعرج، وأمثاله من الأغوات ذوي الكروش المترهلة، وصفوف الأسنان المذهَّبة، يحدثهم عن ليلة البارحة التي أمضاها حتى الصباح مع امرأة تدعى جالا، تعرَّف عليها حديثاً في أحد ملاهي أضنه.

قال مرحباً بالمساعد الأول الذي دخل:

ــ أهلاً ماركا الأسد. تفضل!

تحرَّك الأغوات في أماكنهم. لكنَّ المساعد الأول تواضع قدر إمكانه أمام

أبرز آغوات الحزب الديمقراطي في البلدة، وقال:

ــ لا تزعجوا أنفسكم، إكراماً لله لا تزعجوا أنفسكم!

وفي الحقيقة لم يزعج أحد نفسه. هؤلاء الآغوات الذين يرتدون سراويل من القماش الإنكليزي الكحلي، مطرَّزة الجيوب، هم أيضاً مثل كاوور صاروا أغوات بعد أن استلم الحزب الديمقراطي السلطة. هاشم آغا، ولي آغا، جبَّار آغا، قدُّوسي آغا... هؤلاء هم أبرز وأغنى أغوات البلدة. أغوات السيارات الفارهة، والمبرومات الذهبية التي تغطي سواعد زوجاتهم وبناتهم وكنائنهم حتى المرافق. الذين أشادوا مكان بيوتهم العتيقة قصوراً جميلة ذات صالات واسعة تصدح فيها أجهزة الراديو والمسجلات، وذات مطابخ فيها طناجر الضغط والغسالات الكهربائية.

ألم يكن لقدوم المساعد الأول أي تأثير؟

قال هاشم آغا من طاولته مخاطباً كاوور الذي يجلس على طاولة مقابلة واضعاً رِجلاً فوق رِجل:

ــ وبعد ذلك؟

وقبل أن يبدأ بإكمال حديثه الذي انقطع، التفت كاوور إلى المطبخ ونادى:

ــ بكداش!

ومن بين كؤوس الشاي اللامعة، وفناجين القهوة النظيفة وزجاجات المياه الغازية البرَّاقة، نظر بكداش بعينيه الصغيرتين الذابلتين، في وجهه الذي غاض ماؤه، والمخمور بفعل تعاطي الأفيون، وصاح:

ــ تفضَّل يا آغا!

ــ قهوة المساعد الأول بسكُّر قليل...

تحرَّك مدمن الأفيون بكداش، وهو يردد شعراً لا ينساه، ولا يفتأ يردِّده دوماً بطريقة المدمنين "مددْ يا معذبتي سَنَم، ألا تكونين دواءً لدائي؟". وفيما هو يضع ركوة القهوة على النار، راح صاحب المقهى يكمل حديثه الذي انقطع:

ــ لكنَّ المرأة ذات أموال وأملاك يا صاحبي! فقلت لها، ألا تتركين هذه العيشة وتعيشين معي يا عزيزتي؟ نظرت في وجهي وقالت يا عمي من السُّمِّ شفاء ومنَّا الوفاء. لقد مشيت مرَّة في هذه الطريق، وإني حتى لو تبت وانسحبت لعندك، لا أعدك بأني سأبقى شريفة.

اهتاج دوران الأعرج الجالس وراء عمه مصغياً بانتباه، وصاح:

ــ الله الله.. أرأيت المرأة المحاربة؟

وعلَّق الآخرون على الموضوع نفسه:

ــ عاهرة، ماهرة.. حلال عليها.

ــ لا تنظر إلى عهرها، يبدو أنها تلقت تربية جيدة.

ــ أليس كذلك يا هاشم آغا؟

أخذ كاوور الحديث بحماس، وتابع قائلاً:

جئت والمرأة إلى فندق أمين فرعنا. ألا تعلمون أن فتيات الملاهي يَـنَمْنَ هناك؟ الكاتب يعرفني، وإن سألت عن الشرطة إنه فندق أمـين الفـرع، فمـن يستطيع التشويش؟ باختصار دخلنا غرفة مفروشة بالحرير.

ــ هل كانت الأمور كذلك في عهد حزب الشعب الجمهوري؟

ــ دعكَ من هؤلاء يا هذا..

ــ دعْكَ دعك!

ــ لكنهم مازالوا يشوِّشون في المجلس..

ــ ليشوِّشوا ما شاؤوا، فلقد فُتحت عيون هذه الأمة، ولـن تعيـدهم إلـى السلطة ثانية!

ــ الشعب لم يأكل عقله مع الخبز والجبنة...

ــ ... ...

ــ ... ...

كان قصد هاشم آغا مغايراً، إذ كان همه أن يعرف ماذا فعل هذا القهواتي كاوور مع تلك المرأة ذات الأموال والأملاك.

صاح كاوور:

ــ هاشم آغا، انظر إلى ابن أخيك!

نظر وقال:

ــ ماذا هناك؟

ــ الحياء من الإيمان يا آغاتي...

قال هاشم آغا وهو يشتمه ويشتم حياءه:

ــ أهناك سخف غريب على ابن أخي، لم يقم به؟

لماذا علي أن أستحيَ من ابن أخي؟ عليه هو أن يستحيَ مني. أليس كــذلك ولك يا دوران؟

أجابه دوران ذو الشاربين الأسودين:

ــ تماماً.

كرَّر هاشم آغا سؤاله:

ــ باختصار كيف هي معاملة المرأة؟

في هذه اللحظة تماماً، مرَّت فجأة هاجر أمام عينَي دوران الأعرج. كانت قادمة ببطء تحمل صرَّة الغسيل النظيف.

ومثل كل مرة سرت في داخله رعشة مدهشة، فما عاد يسمع ما يشــرحه كاوور، ولا صوت هاشم آغا الذي يهتاج بين الحين والحــين ويصــرخ "... لا تقل يا!". تلاشت الدنيا كلها. فهو لا يستبدل هاجر بفتاة ابنة خمس عشرة ســنة. مع أن هذه البلدة، والقرى القريبة والبعيدة، والمدن البعيدة جداً، فيهــا كثيــرون ممن يعطونه بناتهن ذوات الأربع عشرة أو الخمس عشرة ســنة عــن طيــب خاطر، إن لم يكن إكراماً لــه فإكراماً لعمه. لكن هاجر مختلفــة. إنهــا امــرأة ناضجة قبل كل شيء، امرأة حريصة عاقلة لم تعرف رجلاً طوال سبع سنوات.

وفيما كانت هاجر تمر، همس أحد ندماء شربه في أذنه:

ــ صاحبتك قادمة!

تنهَّد وقال:

ــ نعم، إنها قادمة..

ــ إنها تحمل الغسيل النظيف إلى الفندق...

ــ تحمله.

ــ ألن تتبعها؟

ــ لتبتعد قليلاً..

ــ ... ...؟

ــ ... ...

كان قلب هاجر يخفق بشدة كلما اضطرت للمرور من أمام المقهى. وهكذا

الآن. نظرت بطرف عينها، لم تر دوران الأعرج السافل، ربما لم يأت اليوم إلى المقهى. إن كان الأمر كذلك فيا لراحتها. كان عقلها وفكرها عند الجريح الغريب في البيت. وإذا سعل ثانية كما سعل ليلاً؟

لكنَّ أكثر ما كانت تفكِّر فيه كانت الأحلام التي راودتها ليلاً، حضر زواجها، وعندما رأى الرجل الغريب شكَّ وعاد. كم تتمنى لو يصبح الحلم حقيقة. لو يأتي زوجها، ويرى الرجل الغريب في البيت، فيعود من حيث أتى دون أن ينبس ببنت شفة. ولكن هل يُعقل هذا؟ لا، إنه يقيم الدنيا، ويجمع البلدة على رأسها.

نسيت دوران الأعرج. انزعجت.

إن احتدَّ زوجها فليحتد. هذا الفراق المستمر منذ سبع سنوات لم يكن سهلاً. هي لم تسأل عن المال، ولكن ألا يسأل المرء عن بيته ولو بسطرين؟ إنه لم يسأل، وأي امرأة تستطيع الانتظار كل هذه السنين؟ إنها تعرف أن هناك نساء لعوبات يلعبنَ وهنَّ تحت نكاح أزواجهنَّ قبل أن يصل زواجهنَّ إلى منتصف عمره. إنها سبع سنوات طوال قاسية، هل تستطيع امرأة شابة جميلة أن تتحمل بُعد الزوج سبع سنوات؟

تذكَّرت هذا الصباح. استيقظت باكراً، وانتظرت أن يُنادى عليها، وإذ بها تسمع ابنها حسيناً ينادي:

"ـ ... بابا!"

تنهَّدت من الأعماق. "... أبوه، أبو ابني!".

آه أين تلك الأيام؟ ليتها تتحقق، ليته يصبح أباً لابنها ويرحل ثلاثتهم من هنا سويَّة. لو يأخذها ويأخذ ابنها معه حيثما يذهب، ستكون له امرأة وأي امرأة!

لو يذهبون إلى قرية بعيدة، بعيدة جداً. من أين سيعرفون أنهما ليسا بزوجين؟ ليس بينهما عقد زواج. ليكن. هل سيفتح الناس محفظتيهما ويبحثون عن وثيقة زواجهما؟ سيظنونهما زوجين كالعسل، يستأجرون بيتاً من غرفة واحدة. وتعمد هاجر إلى العمل كما في السابق، قد تعمل في جمع الحطب، أو تعمل في غسل الغسيل، ويعمل الرجل أيضاً. إذا وضعا كتفاً لكتف يستطيعان هدم الجبال!

بل قد يذهبون إلى إحدى المدن الكبرى.

هذا كان مقنعاً لها أكثر...

المدينة الكبيرة أفضل؛ ففيها لن يعرف أحد أنهما ليسا بزوجين، في المدينة الكبيرة مَنْ لمَنْ؟ فالكل غارق إلى ما فوق رأسه في الشغل والعمل. ولن يخطر بطرف بال أحدهم أن يسأل هل هما متزوجان أم لا.

ثم إن بطاقة زوجها الشخصية موجودة عندها في صندوقها، ينزع الغريب الصورة الملصقة على البطاقة، ويلصق صورته بدلاً عنها. وبما أن حسيناً لا يعرف أباه الحقيقي، فلن تبقى هناك مشكلة.

تذكَّرت لحظة خروجها من البيت قبل قليل... لم يفارقه وهو يناديه: "...بابا، بابا" كان المسكين ملهوفاً على أب، متعطشاً لأب. اغرورقت عيناها بالدموع وهي تراهما ملتقَّين ببعض كأب وابن حقيقيين. وهاهي ذي تستذكر تماماً حديث الأب والابن:

"ـ بابا!"

"ـ نعم باباتي؟"

"ـ لن تتركنا وتذهب ثانية أليس كذلك؟"

نظر الرجل إلى هاجر، وصحَّح لابنه:

"ـ إذا لم تقل لي أمك اذهب، فلن أذهب..."

هذه هي، نظرته إليها نظرة رجولية مهيبة، وجملته التي أطلقها مبتسماً "ـ إذا لم تقل لي أمك اذهب، فلن أذهب!" زادت فجأة من آمالها، وجعلتها تندم على صعودها السُّلّم حتى منتصفه، ثم نزولها منه خيفة وخشية.

تنهَّدت.

"ـ إذا لم تقل لي أمك اذهب، فلن أذهب!"

هذه الجملة التي لا تفارق عقلها، ولا تزايل مخيلتها، لماذا قالها؟ زوجها عديم النفع والوفاء لم يكن أحسن من هذا. إنه لا يساوي الظفر الذي يقصه ويرميه هذا. هي إذن حافظت على شرفها، وحمته وحملته سبع سنين طوال من أجل هذا الغريب.

وفيما كانت تنعطف عند منعطف أحد الشوارع، برز لها دوران الأعرج فجأة:

ـ إلى أين هكذا عند الصباح يا مَن أَقْرِطُ روحها قَرْطاً؟

صعدت روح هاجر إلى حلقها وهي تجيبه:

ــ ومالَكَ أنت؟

اقترب منها دوران برجله العرجاء:

ــ أنا مالي؟ أنا ليس لي في هذه الدنيا امرأة أخرى سواك!

قالت بازدراء ونفور:

ــ دوران، لا تبدأ، والله وبالله أُخبر المساعد الأول، يكفي هذا الذي تفعله!

ضحك وقال:

ــ من هو المساعد الأول ولِك يا بلهاء؟

ــ أتسألُ من؟

ــ من؟ نعم، من؟

ــ ألا تعرف من هو المساعد الأول؟

ــ افترضي أنني لا أعرف، قولي من هو لكي أعرف!

ــ إنه الدولة، الحكومة!

هزَّ رأسه بجدية:

ــ ذاك سكينه لا تقطعنا بإذن الله!

ــ صحيح. أطال الله عمر العم هاشم آغا. كان يجلس على المقهى قبل قليل، أشكوك له!

ــ تمام، اهربي من تحت المطر، إلى تحت المزراب. ذاك أكثر مني عشقاً للنساء ولِك!

ــ عديم التربية..

ــ نعم أنا كذلك، فهل لديك ما تقولين؟

كادت تختنق من شدة ضيقها وحنقها:

ــ دوران، انزل عن كتفي!

ــ لا أستطيع النزول.

ــ يعني هل أنت شر، أم أنت بلاء؟

ــ اعتبريني ما تعتبرين!

ـــ لكن عاقبة هذه التصرفات ستكون سيئة!

ـــ ماذا سيحدث؟

ـــ لا أعرف.

ـــ بالعافية، بالشر، بالحسنى، ستقولين لي "نعم" يا هاجر. أترين هذين الشاربَين؟ لينبتا على تبع أمي سوف آخذك. افهمي هذا جيداً!

سرَّعت هاجر خطواتها، وكانت قد اقتربت من المكان الذي تقصده، وهو أحد الفنادق الكبيرة النظيفة في البلدة. دفعت الباب بقوة، ودخلت مسرعة، وصعدت السلالم بانفعال، وهي تجهش بالبكاء. فأسرع إليها كاتب الفندق الشاب، وسألها باهتمام:

ـــ ماذا هناك يا أختي هاجر؟ خيراً؟

لم تكن هاجر في حالة تسمح لها بالكلام، إذ كانت تبكي وتجهش بالبكاء رغماً عنها وهي تلتقط أنفاسها المتقطِّعة. وكان صاحب الفندق موجوداً في تلك الآونة فأقبل أيضاً باهتمام وسألها:

ـــ خيراً يا هاجر؟ ماذا هناك؟

لم تجب.

فالتفت إلى الكاتب الشاب بهدوء، وسأله:

ـــ هل هو دوران الأعرج، هل تصرَّف معها تصرفاً تافهاً مرة أخرى؟

أخيراً رفعت هاجر رأسها بعينيها المبللتين بالدموع وقالت:

ـــ قرفت وتعبت. ألم يبق لدى الناس خوف من الله أبداً؟ إني امرأة نصف أرملة تركها زوجها وغادرها منذ سنين طويلة. وكلكم تعرفون أني أغسل الغسيل حتى الصباح كي أعيش وأربِّي ولدي اليتيم في حياة أبيه. أنا لم أسئ لأحد، فلماذا يسيء الآخرون إلي؟

عرف صاحب الفندق وكاتبه وغيرهما أن دوران الكلب الأعرج تحـرَّش بها مرة أخرى، وقد صارت تحرُّشاته هذه عادة يومية مألوفة.

قال جمهوري من بين الزبائن:

ـــ ذاك المتصابي تجاوز الأربعين، وعمه الجلف لا يشد لجامه قليلاً!

فقال ديمقراطي معقِّباً:

ـــ ومن سيشدُّ لجام عمه؟

قال صاحب الفندق وهو من الحزب الديمقراطي، لكنـــه لا يتصـــوَّر ابـــن حزبه دوران الأعرج هذا:

ــ انظري إلي يا هاجر، كما قلت لك سابقاً. اسمعيني، اذهبـــي واشـــتكي للمساعد الأول!

هزَّ أحدهم رأسه يمنة ويسرة وقال:

ــ ذاك لا يخاف لا من الدرك، ولا من الله!

ــ فعلاً، لا يخاف.

ــ هذا وأمثاله جراثيم في جسم الحزب والله.

ــ إنهم جراثيم أخطر من جراثيم السل...

ــ أفضل شيء هو الذهاب إلى أنقرة وتقديم شكوى هناك!

ــ ... .؟

ــ ... .

لم تسمع هاجر كل هذا. وقد خفَّف بكاؤها من انفعالها، فسلَّمت كاتبَ الفندق الغسيل ونهضت. أعطاها الكاتب أجرتها كاملة، فدسَّته في جيب معطفها الأسود القديم، واستلمت الطريق مقهورة.

مشت في الزقاق على غير هدى. ليكن ما يكون، فقـــد ســـئمت وقرفـــت. ستشتكي لرئيس المخفر، فهو إن لم يستطع تأديبه، فسوف يمنعه من التعـــرض لها على الأقل.

فجأة سمعت وقع أقدام خلفها.

التفتت. تمام، إنه دوران الأعرج قادم وراءها!

حثَّت خطاها بانفعال، ولم يكن المخفر بعيداً.

جلس المساعد الأول للتو وراء طاولته، وبيده صورة الهارب حبيب وراح يجري اتصالاً هاتفياً، ولما دخلت هاجر الغرفة كان يتكلم هاتفياً:

ــ آلو. نعم؟ ها، نعم. هل توجَّه الهارب إلى هذه النواحي؟ غريـــب والله، ليس لدينا هنا شيء غير عادي منذ المساء. نعم...

نسيت هاجر دوران الأعرج، وصارت كلها آذاناً صاغية.

ــ حتى لو شوهد في هذه الأنحاء، فأنتم تعرفون بلدتنا، لـــيس فيهـــا مـــن

يخفيه. مع ذلك نفتش البيوت إذا استدعى الأمر، لكني أرى أنه لا ضرورة لذلك إذ سيكون إجراء لا طائل منه، نعم، أعرف، نحن أيضاً تردنا أوامر مشدَّدة ولكن... تمام!

أعاد السماعة إلى مكانها.

ارتعدت هاجر عندما سمعت جملة "تفتيش البيوت" فسألت والخوف يملؤها:

ـ ماذا جرى يا سيدي الرئيس؟

ترك المساعد الأول الصورة التي في يده على الطاولة، ونهض قائلاً:

ـ يقال بأن أحدهم حرَّض قرويين على إحراق مزرعة، ثم هرب مساء البارحة إلى هذه الأنحاء...

اقتربت هاجر من الطاولة، وأخذت الصورة التي تركها المساعد الأول قبل قليل، ونظرت إليها. ومع نظرتها وصلت روحها إلى حلقها، إنها صورة الغريب الذي في منزلها!

وجَّه المساعد الأول كلامه إلى الدركي الجالس وراء الآلة الكاتبة قائلاً:

ـ اسم الرجل حبيب. إنهم ثلاثة أشقاء، إضافة إلى أبيهم، اذهب بعد قليل إلى مقهى كاوور وأصيخ السمع. بل اترك مقهى كاوور واذهب وجُل على مقاهي حزب الشعب الجمهوري ومقاهي حزب الأمة. فالديمقراطيون لا يخفون الهارب، بل يخفيه أعضاء أحزاب المعارضة، هل فهمت؟

قال الدركي باحترام:

ـ فهمت سيدي القائد.

في هذه اللحظة بالذات دخل دوران الأعرج:

ـ مرحباً أيها السيد الرئيس.

تغيَّر المساعد الأول ولان فجأة:

ـ أهلاً دوران آغا، تفضل، يا أخي الهاتف تلو الهاتف!

تساءل دوران الأعرج:

ـ وماذا هناك؟

ـ وماذا سيكون؟ هذا الـ...

ـ هل هو موضوع الهارب؟

ـــ يبدو أن الرجل التجأ إلى هذه النواحي.
سحب دوران الأعرج كرسياً جلس عليه وقال:
ـــ عندنا هنا حتى الطائر الغريب لا يستطيع الطيران. ماذا يظنون بلـــدتنا؟ ألا يعرفون من هو قائد مخفرنا؟
ضحك رئيس المخفر بغرور، وتظاهر بأنه لم يسمع.
فأضاف دوران الأعرج قائلاً:
ـــ نعم سيادة المساعد الأول، من هو قائد المخفر هنا؟
ضحك رئيس المخفر ثانية وقال:
ـــ دمت سالماً!
ثم التفت إلى هاجر:
ـــ هل لديك ما تقولينه؟
حارت هاجر وقد رأت مكانة دوران الأعرج لدى المساعد الأول، وندمت على قدومها.
نظرت وجلة إلى دوران الذي بادر بالقول:
ـــ تكلمي تكلمي. قولي أنك جئت تشكينني!
قال المساعد الأول بدهشة:
ـــ هل جاءت تشكوك؟
قال دوران هازئاً:
ـــ اسألها!
كان السهم قد انطلق من القوس، فقالت هاجر باكية:
ـــ لقد سئمت ومللت من هذا الرجل يا سيادة المساعد الأول، إني لا أريده، وهو يلاحقني ويطاردني، أرجوك أن تؤدبه!
قهقه دوران وهو يفتل شاربيه الأسودين.
فاختصر المساعد الأول الموضوع قائلاً:
ـــ حسناً حسناً، اذهبي الآن، وسوف أؤدبه أنا!
وبعد أن خرجت سأل دوران:
ـــ ما المسألة؟

فأجاب دوران الأعرج بلا مبالاة:

ـ لا شيء، إنها تعيش بلا زوج منذ سبع سنوات. هل يجوز هذا؟ امرأة مثل الوردة، عرضت عليها الزواج بأمر الله فرفضت. إما أن تقبل الزواج بي أو...

ـ أو ماذا؟

نهض دوران الأعرج عن كرسيه، واقترب من طاولـة المسـاعد الأول، ويداه خلف ظهره، وقال:

ـ أو أغتصبها!

بقدر ما كان يبديه المساعد الأول من تقدير للديمقراطيين، إلاَّ أنه مع ذلـك كان عسكرياً. فقد رفع حاجبيه وقال:

ـ لا، هذا ما صار!

كان دوران الأعرج يعرف طباع المساعد، ويعرف أنه مهما كان منزعجاً فإنه يهدأ ويرتاح عندما يُمشِّط بمشط على قدِّ ذقنه.

ـ لماذا؟

ـ اغتصاب؟ لا يمكن!

ضحك وقال:

ـ هل هناك ما لا يمكن برعاية وعناية مساعدي؟

فعلاً سرعان ما لان المساعد وهو يقول:

ـ نعم لكل ما هو ضمن إطار القانون، ولكن عندما يخالف القانون ينقطع زيته من عندي!

ـ ألا أعرف ذلك؟

ـ إن كنت تعرف فلماذا تتحدث عن الاغتصاب؟

ـ لأن الأصبع التي يقطعها الشرع أو القانون لا تؤلم. عرضـتُ عليهـا بالحسنى الزواج بي فرفضت، فقلت أغتصبها مرَّة، ويُفتضح الأمـر، فتضـطر عندئذ للزواج بي!

سعل بخشونة وأردف:

ـ من ناحية أخرى، وأنت تزورنا في البيت، فنشـرب القهـوة، وعنـدما ترتفع حرارة رأسنا نشرب العَرَق...

ضحك المساعد الأول:

ــ هكذا صار الآن. صار طبعاً، لماذا ترفض الزواج بك؟

رفع دوران الأعرج كتفيه قائلاً:

ــ وما أدراني؟

ــ ألا تكون لها علاقة بآخر؟

ــ لا أظن.

ــ ما دامت لا تريدك، فلا ترمِ نفسك عليها، دعها فالدنيا ليست مكونة منها فقط!

أخرج دوران الأعرج سبحته البيضاء من جيبه وقال:

ــ من تعشقها النفس هي الجميلة يا مساعدي...

ــ صحيح، صحيح ولكن.

ــ بلا لكن ولا ماكن. إني أحبها يا رفيق. هذا هو الموضوع، ليس في الميدان شيء بعد. فإذا ما حدث شيء فإنك رجل قانون طبِّق حينها الإجراءات المتوجَّبة. هيا أستودعك الله...

بعد أن رمقه المساعد الأول بنظراته طويلاً وهو يغادر، عاد والتقط صورة الهارب حبيب من فوق طاولته. إذن فقد هرب الرجل إلى هذه النواحي. وإذا اتجه إلى هذه النواحي ثم غيَّر طريقه أثناء ذلك؟ وإذا اتجه إلى جهة أخرى؟ وإذا كان مختبئاً داخل الغابة؟ لو اقتنع بجدوى تفتيش منازل البلدة لما تردَّد وفتَّشها، لكنه كان يرى أن لا فائدة.

ترك الصورة على الطاولة، ونهض واستقام برهة، ثم اتجه مفكراً نحو النافذة. رأى دوران الأعرج وتلِّلي أحد أصدقاء سُكره وعربدته ذاهبَين جنباً إلى جنب، ففكر فيما يتحدَّثان فيه، وفيما يمكن أن يتحدثا فيه. الأمر بسيط للغاية، لا بد أنهما يتحدثان عن هاجر!

فعلاً، فإن دوران الأعرج قال:

ــ كأن المساعد الأول سيعلقني من... ي إلى السقف! ولك أنتم الذين تخافون من المساعد ومن الرقيب. أما أنا فهل يهمني مساعدك ورقيبك ومدعيك؟

أجابه تلِّلي الناشف:

ــ لا أبداً يا روحي.

ــ هل أنا تلميذ مدرسة؟

ــ إذن فقد هرب الرجل إلى نواحينا هذه!

كان ذهن تلِّلي في مكان آخر!

ــ هكذا أخبروا المساعد هاتفياً.

ــ هل يمكنه أن يختبئ في نواحينا هنا يا ترى؟

ــ لا يمكن التكهن بذلك.

ــ ... ...

ــ ... ...

بالرغم من خوض دوران الأعرج في شتى المواضيع، إلا أن هاجر كانت في ذهنه دوماً. طالما شكته، فليكن ما يكون. ليس ذلك بذي بال. ثم إنه ليس مرتاحاً من المساعد. عندما يُخالَفُ القانون ينقطع الزيت من عنده، وماذا يحدث إذا انقطع؟

ثم أردف بصوت مسموع:

ــ رجل قذر.

وقف تلِّلي مدهوشاً وقال:

ــ أنا ولك؟

ضحك دوران:

ــ لا يا هذا، إني أشتم هذا المساعد!

ــ لماذا، وها هو ذا لم يكترث بالمرأة؟

ــ نعم هو لم يكترث بها، لكنه التفت إلي بعد أن غادرت المرأة وقال: عندما يُخالَفُ القانون ينقطع الزيت من عندي!

ــ لماذا؟

ــ ألم أقل بأني سأغتصبها إذا لزم الأمر؟ كنت سأقول له، وماذا يحدث إذا انقطع ولَك؟ لكني مع ذلك عدلت وقلت هيا لا داعي الآن لإزعاجه.

مسح تِلِّلي أنفه بظاهر يده وقال:

ــ بسيطة يا روحي.

ـ بسيطة، ويظن نفسه نعمة كالفاصولياء. وهل تقطعُنا سكينك؟ لو كنتَ ناراً فلا تستطيع حتى إحراق نفسك. أليس كذلك؟

ـ إذا همست في أذن عمك...

ـ لا داعي لذاك أيضاً.

ـ صحيح. إلى أمين الفرع... ها؟

ـ نعم هكذا يا!

ـ من هو هاشم آغا في هذا البلد؟

ـ بشرفي حتى رئيس الوزراء يحسب خاطره بالدرهم!

ـ رسالة من سطرين.

ـ وفي اليوم الثالث يرمونه إلى قرية من قرى الشرق، لا يطير في سمائها طير، ولا تمر في أرضها قافلة!

تناول تِلّي حجراً من الأرض وقذف به بعيداً:

ـ هكذا.

مرُّوا من أمام بيت هاجر. توقَّف الأعرج. وتفرَّج برهة على لعبة الجري التي يلعبها الأطفال. وعندما لم يرَ حسيناً ابن هاجر بينهم قال:

ـ متبناي غير موجود.

ـ غير موجود.

ـ لم يكن برفقة أمه.

ـ هو في البيت إذن...

ـ ربما. لكن اتركني، أنا الذي جعلت المرأة تبرد تجاهي.. في البداية كانت تأتينا، وتغسل غسيلنا...

ـ لماذا؟

ـ لم تكن لدينا غسالة كهربائية. وكان ابنها يلعب، ويركب دراجة ابن أخي ذات الثلاث عجلات. وفي إحدى المرات باغتتها وهي تغسل الغسيل، كانت جالسة إلى الطست، وفي تلك اللحظة تماماً ألا تحضر زوجة عمي؟

ـ لا يا؟

ـ بشرفي نعم.

ــ لكن ماذا قالت؟

ــ لم تقل شيئاً. تظاهرت بعدم ملاحظة شيء، لكن المرأة...

ــ هل انزعجت؟

ــ ما معنى انزعجت؟ لقد ارتبكت وتغيَّرت وتبدَّلت!

ــ هل داعبتها ولامستها بيدك فلم تعبأ بذلك؟

ــ لا يا روحي لم يصل الأمر إلى حدِّ المداعبة باليد، كنت أجسُّ نبضها من هنا ومن هناك. زوجك ذهب ولم يسأل عنك برسالة...

ــ ماذا كانت تقول؟

ــ كانت تقول: لتُقلع عيناه.

ــ يعني كانت راضية.

ــ لا، لم تكن راضية، لكني كنت سأرضيها. بشرفي إنها مثل السمكة، لها جسم، الإنسان الذي يضمُّها إلى صدره يطول عمره يا!

ــ وبعد؟

ــ بعد ذلك، أهلي لم يستدعوها لغسل الغسيل!

ــ هه...

ــ شكَّ البقر أولاد البقر. وهم لا يأكلون حتى الثمار من الأغصان السفلية!

ــ أهلك؟

ــ قلت لهم مرة ومرتين اذهبوا واطلبوها، فولولوا وقالوا: هل ستتزوج أرملة؟ وما لكم؟ لا يمكن. لماذا؟ وماذا يقول الناس؟

ــ ولك أهلي أيضاً يحسبون حساباً لقول الناس والعالم ها...

مرَّ من الزقاق الخلفي داعية أفلام سينمائية:

ــ انتقام طرزان، هذا المساء في سينما الشرق. ستة وثلاثون قسماً دفعة واحدة. إضافة إلى فيلم المهرِّجة! نعم أيها السيدات والسادة. فيلمان معاً بآن واحد. بالكامل. هذا المساء في سينما الشرق، تعالوا، وشاهدوا....

قال دوران:

ــ شاهدته.

ــ وأنا أيضاً.

التقط حجراً من الأرض، فأخذه دوران من يده. تراكض الأطفال الذين يلعبون لعبة الجري، نحو الزقاق الخلفي حيث يمر داعية الأفلام السينمائية.

قذف دوران الحجر نحو جدار حوش هاجر الصفيحي.

عاد الأطفال يتراكضون كما ذهبوا، وعادوا إلى لعبهم من جديد. التقط دوران الأعرج حجراً آخر وقذفه نحو الصفيح. وعلى إثر هذا شاهد الأطفال آغاتهم دوران فتركوا اللعب وهرعوا إليه.

ـ دوران آغا!

ـ أين زينل يا دوران آغا؟

ـ متى ستجعلنا نمتطي دراجته ذات الثلاث عجلات؟

ـ .... ؟

ـ ... ...

كان دوران الأعرج يُعتبر "دوران آغا" بالنسبة لهؤلاء الأطفال، إذ كان كثيراً ما يسمح لهم بامتطاء دراجة ابن أخيه زينل ذات الثلاث عجلات، ويُرضي بذلك خاطرهم. كان واقفاً يضحك وسط هؤلاء الأطفال الملتفين حوله يتصايحون، وهو يقول:

ـ سأحضر زينل ودراجته إلى هنا ذات يوم، وسأجعلكم تمتطونها.

سأل علياً ابن الجيران المقابلين لبيت هاجر:

ـ أين حسين؟

أجاب ابن شريفة جارة هاجر المقابلة لها وألد أعدائها:

ـ في الداخل.

ـ لماذا لا يخرج إلى الزقاق؟

ضرب الطفل صدره بقبضته:

ـ لا يستطيع الخروج!

ـ لماذا؟

ـ ليخرج وليرَ.

ـ حسناً ولكن لماذا لا يستطيع الخروج؟

ـ وهل هناك لماذا يا دوران آغا؟ ليخرج وسترى. سوف يحار في أمره!

ضحك تِلّي.

وكان الطفل يعرف عمه تِلّي صديق آغاته دوران، فسأله:

ــ ألا تصدق؟

قال تِلّي متعمداً:

ــ حسين لا يغلبك أنت فقط، بل يغلب عدداً من أمثالك.

جُنَّ جنون الطفل فقال:

ــ من؟ ذاك؟ اثنان وثلاثة من أمثاله لا يساوون شيئاً عندي يا..

ثم التقط حجراً من الأرض، ولكي يدخل في عين آغاته دوران، قذف بالحجر مثله تماماً نحو الصفيح.

... ...

سمع حسين بخوف صوت وقع الحجرة على الصفيح "طاق!" كما سمع صوت وقع سابقاتها من الحجارة. رفع رأسه ونظر إلى "أبيه" الذي هرب إلى السقيفة عندما ألقي الحجر الأول.

جلس حبيب الجريح في ظلمة السقيفة وأشار بيده "اسكت!" أما الطفل فكان محمراً. لم يرفع صوته، لكنه كاد يموت غيظاً، حجرة أخرى، تبعتها أخريات، وكأن مطراً من الحجارة بدأ يتساقط على صفيح الحوش.

زحف حبيب إلى الطرف الآخر من السقيفة الذي يشرف على الزقاق، وألقى نظرة على الخارج، فرأى دوران الأعرج ورفيقه، لم يكن يعرفهما، لكنه عرف من دوام مناداة الأطفال له: "دوران آغا، دوران آغا" أن هذا هو دوران الأعرج.

رجل بقدِّ الجحش لا يفتأ يحرِّض الأطفال!

ــ اشتموه.

راح الأطفال يشتمون حسيناً شتائم لاذعة جارحة، وفي مقدمتهم ابن الجارة شريفة. ولما لم يسمعوا منه ردًّا، لامسوا نقطة الضعف فيه:

ــ ابن الحرام حسين، حسين بلا أب، ابن الحرام حسين!

شريفة الأشبه بالعاهرات بطلاء وجهها وكحل عينيها، قالت بعد أن قهقهت قهقهة ارتجفت معها رقبتها الممتلئة:

ــ لا تقطعوا أنفاسكم، فأولئك معتادون على أنواع الرذائل. إنكم تقطعون

أنفاسكم بلا جدوى...

لكن الأطفال لم يستمعوا فقد كانوا هائجين.

اقترب دوران الأعرج من شريفة وهو يجر ساقه العرجاء جراً وقال:

ــ لقد شكتني إلى المساعد الأول.

ــ اصطنعت شريفة الدهشة، واستغربت وكأنما الشكوى أمر معيب، وقالت:

ــ إذن فقد شكتك دون أن تستحي؟

ــ نعم شكتني.

ــ لماذا؟

ــ ادَّعت بأنني ألاحقها، وأنني أقلق راحتها.

ــ أواه، أواه، أواه..

ــ لكن ليكن ما يكون!

غمزت شريفة بعينها وهي تقول:

ــ قل إذن أن العلاقة هكذا بينها وبين المساعد الأول!

لم يخطر هذا ببال دوران الأعرج:

ــ فعلاً ها، لتعيشي ألف سنة بعقلك الراجح هذا يا أختي، وإلاَّ لماذا ساندها المساعد هكذا صراحة!

ثم نادى على صديقه:

ــ تِلِّي، تعال قليلاً!

كانت معظم معيشة تلِّي جمالي ابن فاطمة الأرملة، الذي لم يكن له عمل محدَّد، على حساب دوران الأعرج. فهما يأكلان ويشربان سوية، ويذهبان معاً بكثرة إلى أضنه بسيارة هاشم آغا للتسلية والمتعة. وحين يفصِّل دوران بدلة لنفسه لم يكن ينسى تِلِّي جمالي.

اقترب من صديقه:

ــ ماذا هناك؟

ــ انظر ماذا تقول الأخت شريفة...

ــ ماذا تقول؟

ـــ أما شكتني هاجر إلى المخفر؟

ـــ فعلتْ.

ـــ تقول حذار من وجود علاقة بينها وبين المساعد الأول!

كان ينظر داخل عيني تلِّلي. أضاف قائلاً:

ـــ منذ مدة طويلة وأنا أتحرش بهذه المرأة، فلماذا لم تشتك طوال تلك المدة...؟

هزَّ تلِّلي رأسه وقال:

ـــ صحيح ها. لماذا اشتكت الآن؟

ـــ لماذا اشتكت؟ لأنها رتَّبت العلاقة حديثاً مع المساعد الأول.

ـــ صحيح بشرفي. انظر هذا لم يخطر ببالنا...

قال دوران الذي رأى أقرب صديق لــه يصدق هذه المسألة:

ـــ لتكن أمي زوجتي إن الأمر كذلك. حسناً أيها المساعد، تذكَّر هذا جيداً، الرجل غير عادي إذن... لو همست في أذن عمي همسة واحدة.. ها تِلِّلي؟

ـــ بالضبط بشرفي.

منذ وقت طويل وعين شريفة على دوران الأعرج. بل كان هذا هو سبب كرهها لهاجر، ولو ترك دوران الأعرج هاجر وبدأ يلتفت بوجهه إليها لما بقيت هناك مشكلة. بل ولصارت صديقة هاجر الروح بالروح.

قالت وهي تتثنى:

ـــ أماناً يا دوران أفندي. يا لعقلك، وكأنه لا توجد امرأة أو فتاة أخرى غير تلك القذرة في هذه البلدة الكبيرة. أليس كذلك يا أخ تِلِّلي؟

كانت الجارات تتجمع حولهم مثنى وفرادى.

قال دوران الأعرج:

ـــ صحيح. إنك محقَّة. محقَّة ولكن أليس العناد غاية؟ طالما شكتني هي إلى المساعد الأول، فإني إن كنت ابن أخي هاشم آغا لن أترك حيلة إلا وسأستعملها معها. هيا بنا نذهب تِلِّلي!

تركا النسوة مجتمعات، واستلما الطريق إلى البقّال همَّت على أمل أن يشرب كل منهما زجاجة من شراب مرمرة.

والبقَّال همَّتْ أيضاً كان أحد الذين نما ريشهم منذ أن استلم مسؤولية بعد انتخابات عام ١٩٥٠. وكان أيام حزب الشعب الجمهوري يبيع الناس السكر الملون البائت، والزَّراق، والإبر والخيطان، والقضامة، والقضامة بالسكر، وأردأ أنواع المغلفات الورقية، والزيتون الأسود الجاف، والمشروبات الكحولية. ولعدم وجود بيع وشراء عنده كان يغفو طوال النهار خلف منصَّة البيع.

وبفضل هاشم آغا حصل من الحزب الديمقراطي على قرض مصرفي فهدم دكانه القديم، وبنى مكانه هذا الدكان الأخاذ بواجهاته الزجاجية البرَّاقة، وبدلاً من السكاكر وسواها التي كان يبيعها أيام حزب الشعب الجمهوري، صار الآن يبيع العرق والبيرة وأنواع شرابات العنبرية التي تتهافت عليها الفتيات والنساء الشابات ذوات التنانير المتطايرة في الهواء، وبدأ يحوي في دكانه مختلف أنواع العطارة، والتحف، وحتى أقمشة البوبلين.

وخلف الدكان بنى دكاناً أخرى، وبالأصح حانة ظريفة بمقاعد دوَّارة عالية على الطراز الأمريكي.

دخل دوران الأعرج وتِلِّي جمالي حانة همَّت البقال، وقد توزعت على جدرانها البيضاء الألوان الحمراء الغامقة والخضراء الداكنة، ورسوم ملائكة وهي تطير، وغروب شمس على شواطئ بحار مجهولة ملأى بعرائس بحر نصف كل منها سمكة ونصفها الآخر صبية حسناء، وأشجار نخيل. وبدون أي مبرر توجد أيضاً رسوم وحوش خرافية بسبعة رؤوس، يهاجمها شبان بأيد بيضاء، تحمل سيوفاً عريضة...

كل هذه الأشياء وغيرها وغيرها كانت تملأ جدران الحانة بتنافر شديد وبدون أدنى ذوق. أما عدا ذلك، فيمكن أن يقال أن كل شيء كان مرتباً في مكانه، وكأن حانة أمريكية من الدرجة الأولى جُلبت ووُضعت هنا في أضنة.

الوقت مازال مبكراً، لذلك لم يكن هناك رواد. فقط وقف عاملان على إحدى الطاولات يفرزان البطاطا لمازة المساء. وما أن رأيا الداخلين أسرعا لاستقبالهما:

ـ تفضل دوران آغا!

وبما أن دوران الأعرج زبون مداوم على الحانة، لم يلتفت إلى النادلَين، بل دخل واتجه إلى إحدى الزوايا فسحب هو وتِلِّي مقعدين بقوائم طويلة وجلسا عليهما.

تساءل دوران الأعرج:

ـ سنشرب شراباً أليس كذلك؟

أجابه تِلّي الذي غيَّر رأيه في الطريق:

ـ لا تبالي بالشراب.

ـ ماذا إذن؟

ـ لنشرب عرقاً!

ضحك دوران الأعرج:

ـ قل إن الشراب للعتالين...

ثم التفت إلى النادلَين المشغولَين بتقشير البطاطا وقال:

ـ أحضرا لنا زجاجة عرق صغيرة!

ترك النادلان عملهما وأسرعا إليه:

ـ والمازة يا دوران آغا؟

ـ ماذا تأمرون مازة؟

فسألهما دوران:

ـ ماذا يوجد؟

ـ مازوات باردة، كل ما تأمرون منها...

ـ إذن فلا توجد مازوات ساخنة؟

ـ لا توجد يا آغا.

ـ أين معلمكم السافل؟

ـ لم يحضر من المنزل بعد....

ـ آه من السافل آه، قولا إنه يستمتع.

ضحك النادلان.

ـ أُحضرا المتوفر. سلطة ملطة...

أسرع النادلان وأحضرا بخفة طبقاً صغيراً من الجبنة البيضاء الباقية من الليلة الماضية، وطبقاً صغيراً من الشيبس، وصحنين صغيرين من سلطة اللبن بالخيار وسلطة البندورة.

ـــ سودة. ألا توجد سودة؟

ـــ توجد، لكنها باردة!

ـــ لتكن. هاتها...

لم يسمح للنادل الصغير أن يفتح زجاجة العرق بالمفتاح. تناول الزجاجة من يده، ولما كان محتدّاً أصلاً، راح يضرب الزجاجة بقبضته على رِجله حتى أخرج الفلينة، وصبَّ العرق في الكأسين مناصفة:

ـــ هيا نخب شرفك!

ـــ أدام الله شرفك.

شربا وتناولا برؤوس الشوكات شيئاً من المازوات، ثم بادر دوران:

ـــ إني مقتنع تماماً يا صديقي، هذا المساعد على علاقة بهذه المرأة! وإلاَّ.. أليس كذلك؟

هزَّ تِلِّي جمالي رأسه:

ـــ بالضبط.

ـــ وإلاَّ لما دافع عنها!

ابتلعا العرق في نصف ساعة دون أن يشعرا. ودارت الخمرة في رأسيهما قليلاً، فأحسَّا بشيء من النشوة، واتفقا أن يستكملا شربهما ليلاً.

ـــ هات الحساب يا بني!

لم ينس النادل الثالث الشاب الذي لم يكن مع زميليه قبلاً، أن يضيف عشرة بالمائة بدل خدمة على فاتورة الحساب التي نظمها بخطه الرديء.

دفع دوران الأعرج الحساب، وترك بقشيشاً، ثم قال لِتِلِّي:

ـــ هيا.

خرجا.

في الخارج كانت حرارة شديدة تقطع أنفاس العصفور الدوري، تخيم على البلدة. وشرب العرق في هذا الجو الحار يوجع الرأس. لذلك توقف دوران لحظة وقال:

ـــ رأسي يوجعني، ورأسك؟

ـــ ورأسي أيضاً.

ــ شرب العَرق نهاراً ليس صواباً أبداً.

ــ لو شربنا شراباً لكان الوضع أسوأ.

ــ إني أقول دوماً بأننا يجب أن لا نشرب هذه القذارة نهاراً ومع ذلك...

ــ وهل يترك الكلب أكل القذارة؟

ــ صحيح. ماذا سنذهب ونفعل الآن؟

ــ أنا أرى أن ننام. وأنت؟

ــ ارفع قدمك فقد دستَ عليه!

ــ أين نلتقي مساء؟

ــ عند همَّتْ.

ــ تماماً.

أشعل تِلِّي سيجارة وقال:

ــ هيا بالسَّلامة!

ــ بالسَّلامة يا ابن أختي!

افترقا..

بدأ رأس دوران الأعرج يؤلمه فعلاً، وكان عليه أن ينام، وأن يأخذ حَبَتَي أسبرين قبل النوم. هو يعرف أن وجع رأسه ناجم عن شرب نصف زجاجة عرق أولاً، وعن شرب عرق النادي بدلاً من عرق ييني ثانياً. أم هل يكون العرق فاسداً يا ترى؟ يحدث هذا أحياناً. فقد يفسد من وضعه تحت أشعة الشمس في واجهات المحلات مدة طويلة. فيشعر المرء بجفاف في حلقه كلما شرب منه.

كان البيت عبارة عن مزرعة عادية فيها آليات زراعية من كافة الأنواع والأحجام والألوان. هذه الآليات التي وردت إلى تركيا من أمريكا بعد عام ١٩٥٠، والتي من المفروض أن تعمل حركة زراعية متسارعة في تركيا.

قابل عمه هاشم آغا في وسط ساحة المزرعة.

توقف هاشم آغا عندما رأى ابن أخيه، وسأله:

ــ ما الخبر؟

ــ خيراً يا عمي...

ـــ هناك شكوى بحقك ثانية.

رفع دوران الأعرج رأسه بحدَّة:

ـــ ممَّن؟ من المساعد الأول؟

ضحك هاشم آغا:

ـــ كيف عرفت؟

ـــ شممت كفي.

ـــ حقاً كيف عرفت؟

ـــ ألا ألاحق تلك العاهرة هاجر؟

ـــ هذا معلوم.

ـــ هو بمركزه ورتبته متعلق بها. أما إذا لاحقتها أنا وشبابي فهناك القانون والنظام!

فكَّر هاشم آغا مليَّاً. هو أيضاً كان معجباً بها جر منذ مدة طويلة

ـــ هو متعلق بالمرأة إذن؟

ـــ إني متأكد من ذلك مثل تأكدي من الله الواحد!

غمز هاشم آغا بعينه متسائلاً:

ـــ من أين؟

ـــ اذهب واسأل جارتها شريفة، اسأل تِلِّلي. هل هناك من لا يعرف ذلك؟

ـــ آه يا ديوث آه!

أضاف دوران يضع رصيداً في خانته:

ـــ وتفلسف عليَّ أمام المرأة!

انتصب حاجبا هاشم آغا:

ـــ مثل ماذا؟

ـــ تفلسف بالقانون والمانون...

احمرَّت وجنتا هاشم آغا غضباً:

ـــ هكذا؟

ــ لأكن عديم الشرف...

ــ ألم تعطه عيار فمه يا حمار؟

أضاف دوران الأعرج رصيداً آخر في خانته إذ قال:

ــ انظروا إلى عمي، كيف لا أعطيه عياره؟ قلت لــه ألا تعرفني أنا ابــن أخي المزارع والصناعي الكبير هاشم آغا. هل يَسري كلامك علينا يا ثرثار؟

ــ بِمَ أجاب؟

ــ القواد لم يتعرف عليك...

ــ كيف يعني؟

ــ قال: لا وزن لأحد عندي، عدا القانون!

اشتعل فتيل هاشم آغا تماماً:

ــ وتقبيل يدي، وقيامه احتراماً لي إذا كان جالساً. ومخاطبته إياي بقولــه حضرة الآغا، حضرة الآغا باشا؟

ــ هذا في وجهك. لكنه صرفنا صرفاً جيداً أمام المرأة!

ــ ... ...

ــ ... ...

اجتازا الساحة وهما يتحادثان. وارتقيا ببطء جنباً إلى جنب ســلالم البيــت الإسمنتي الذي بُني بعناية واهتمام بعد عام ١٩٥٠. كان جو البيت الداخلي بارداً برودة لطيفة بالنسبة إلى حرارة الخارج، مع ذلك لم يفلح هــذا الجــو الرطــب البارد في منع تصبب العرق من القادِمَيْن من حرارة الخارج.

صرخ هاشم آغا منادياً:

ــ بنت يا دوردانا!

خرجت مسرعة من إحدى الغرف فتاة في الرابعــة عشــرة أو الخامســة عشرة من عمرها، سمراء ممتلئة ذات شعر مقصوص ومعقوف كفتيات المدينة، وهي تزرِّر صدر ثوبها البوبلين الأبيض الرقيق المطبَّع بالأحمر:

ــ تفضل يا أبي!

ــ أحضري كرسي (الشيزلونغ) هذا!

رغم كل ما غيَّرته انتخابات ١٩٥٠، لم تتغيَّر بشكل من الأشكال العجوز حجة الدين، زوجة هاشم آغا منذ ثلاثين سنة، بغطاء رأسها الحريري الأزرق المحكم الربط، وبسروالها ذي الساقين الطويلين، التي اقتربت من زوجها ببطء وتثاقل، وقالت:

ــ الصبي زينلْ غائب عن البيت مرة أخرى.

فأجاب هاشم آغا الذي كان قد رآه في الزقاق أثناء مجيئه:

ــ إنه يلعب بدراجته ذات الثلاث عجلات، من هنا إلى هناك، ومن هناك إلى هنا.

قالت العجوز البدينة السمراء:

ــ لا بأس، إن لم يصب بالحمى السامة في تلك الحرارة الصفراء، لكن أمه ليست أماً، إنها خيال ميت بارد من الجبل الأحمر!

وكما جاءت ببطء وتثاقل، ومثل ظل ثقيل، دخلت إحدى الغرف في هذا الطرف، وغابت.

جلبت دوردانا كرسي أبيها، ووضعته بجانب الثلاجة. كان هاشم آغا لا يزال يفكر في المساعد الأول. خلع سرواله الجوخ الكحلي، وجوربيه الصوفيين ــ أجل جوربيه الصوفيين ــ وبقي بسرواله الداخلي الأبيض ذي الساقين الطويلين المربوطين عند كعبَي رجليه. ولو لم يكن عيباً، وبالأحرى لو لم يكن حراماً أمام ابنته وابن أخيه، لو يعرف أنه لن يكون حراماً، لخلع كامل ما عليه من ثياب ولبقي عارياً وارتاح، ولكن لا يجوز.

تمدَّد على ظهره على كرسي الشيزلونغ وقال:

ــ افتحي لنا كازوزة من هنا!

فتحت الفتاة الشابة باب الثلاجة، فهبت منها برودة قطبية وانتشرت في الغرفة كالموج.

تعلَّقت عينا هاشم آغا، وعينا دوران الأعرج بصفوف الزجاجات التي بانت لهما عند فتح باب الثلاجة، مرتَّبة على رفوفها، بألوانها البيضاء والسوداء والصفراء والحمراء، وبأحجامها الصغيرة والكبيرة، وقد تعرَّقت من شدة البرد.

قالت الفتاة الشابة وهي تتناول زجاجتي كازوز:

ــ حذار من التهاب حلقيكما.

فأجابها هاشم آغا:

ـ ليكن موت الحصان من أكل الشعير.

فتحت الفتاة الشابة إحدى الزجاجتين بالمفتاح وقدمتها لأبيها، والغاز البارد يتصاعد منها، ثم قدمت الثانية لابن عمها دوران وهي تقول:

ـ اشربها بتمهل على الأقل!

لكن دوران الأعرج أفرغ الكازوز المثلج في حلقه دفعة واحدة عناداً ونكاية، وأعاد الزجاجة فارغة:

ـ اوووه!

تهادى إلى سمعهم صوت دقماق يضرب في الداخل، فأصاخ هاشم آغا سمعه، ثم قال:

ـ ما هذا؟ هل سنأكل كبَّة نيئة عند الظهيرة؟

أجابته الفتاة الشابة:

ـ نعم كبَّة نيئة، ويخنة بالكبة...

ثم سألته عما كان يشغل ذهنها منذ برهة:

ـ بابا!

قال هاشم آغادون أن ينظر إليها:

ـ ها؟

ـ هل يوجد هارب مختبئ في هذه الأرجاء؟

فتح هاشم آغا الممدد على الكرسي الشيزلونغ عينيه المغمضتين وقال:

ـ هكذا يقولون.

أضاف دوران الأعرج:

ـ يقولون نعم، ولكن أين يمكنه أن يختبئ؟ وهل هناك بلدة متكاتفة مثل بلدتنا؟ حتى لو اختبأ فإن رائحته سرعان ما تفوح. لكنَّ هذا المساعد الأول... ها عمي؟

ـ لا تعره اهتماماً. يقولون إن الخل الثقيل يضرُّ جرَّته!

ـ أبداً يا روحي.

تساءلت الفتاة الشابة:

ـــ ماذا جرى؟

ـــ ماذا سيجري، ألا توجد تلك الغسالة هاجر؟

ـــ أي؟

ـــ العلاقة جيدة بينها وبين المساعد الأول...

قالت أم الفتاة الشابة التي أقبلت في تلك اللحظة بساعديها المكتنزين المشـــمرين حتى المرفقين، وقد سمعت "العلاقة جيدة بينها وبين المساعد الأول..."

ـــ ماذا حدث؟

قالت دوردانا:

ـــ أليست هناك الغسالة الأخت هاجر؟

انتصب حاجبا المرأة:

ـــ أي ي؟

ـــ إنها كذا وكذا مع رقيب الدرك!

نظرت المرأة التي لا تقطع وقتاً من أوقات الصلوات الخمسة وتحافظ على صيام الأشهر الثلاثة، إلى ابن أخي زوجها أولاً، نظرات ذوات مغزى ثم قالت:

ـــ توبة، أستغفر الله. ممن سمعتم هذا؟

قذف دوران الأعرج كلامه قائلاً:

ـــ إنه على كل لسان!

هزَّت المرأة رأسها هزَات ذوات مغزى، ونظـــرت مجـــدداً إلـــى دوران، وكانت نظراتها تحمل معنى: "أنت تذكر يوماً عند الطست أليس كذلك؟".

أردفت وهي تتظاهر بعدم توقفها عند الموضوع:

ـــ ويقال بأن هارباً قدم إلى هذه الأرجاء... هل هذا صحيح؟

أجاب دوران بلا اكتراث:

ـــ هكذا يقولون!

ـــ أهو قاتل دموي؟

فتح هاشم آغا عينيه مرة ثانية وقال:

ـــ أما قتلوا مظفر بيكنا؟

ـــ أي ي؟

ـــ أما بقيت المزرعة والمصنع للسيدة أرملته...؟

ـــ نعم بقيت.

ـــ أما اتفق القرويون وأحرقوا مزرعة السيدة بسبب الأراضي البور التي لا صاحب لها؟

ازداد اهتمام المرأة تماماً:

ـــ نعم أحرقوها.

ـــ رئيسهم الذي حرَّضهم على إحراق المزرعة هو الذي هرب وجاء إلى هنا!

كانت المرأة مغمورة بالدهشة:

ـــ إلهي لا ترينا يا ربي...

ـــ قد يفتش الدرك بيوت البلدة كاملاً!

تبادلت الأم وابنتها نظرات الفزع.

قالت المرأة:

ـــ أي عمل هذا؟

واتجهت باتجاه المطبخ. اتجهت، لكنَّ فكرها ورغماً عن إرادتها صوَّر لها القاتل الدموي الهارب على شكل: رجل كثيف الشعر، ذي لحية، طويل القامة، وحشي البنيان، مجنون يقطر الدم من خنجره. وماذا لو خطر بباله فجاء إلى بيتهم في ساعة متأخرة من الليل؟ وماذا لو لم يكتف بالمجيء؟ ماذا لو انتصب عند رأس هاشم آغا في ساعة متأخرة من الليل وأرداه قتيلاً كما فعل بالمزارع الكبير مظفر بيك؟ ماذا لو أراد سلب أموالهم؟

كانت قد تركت دق اللحمة النيئة بالدقماق في منتصفه وخرجت إلى الخارج. جلست الآن ثانية على كرسيها المنخفض، وأمسكت الدقماق بيدها، وقبل أن تبدأ بالدق، خطرت ابنتها ببالها: وإذا قتل الرجل هاشم آغا، ثم التفت إلى ابنتهم الشابة دوردانا يريد... "إلهي لا ترينا يا ربي!" تمتمت. نعم، إذا عرَّى الفتاة غصباً. وضمها إلى أحضانه، وبالتهديد بالسكين أو بالمسدس...

نادت:

ـــ دوردانا!

أقبلت الفتاة الشابة راكضة:

ـ نعم يا ماما؟

ـ اطلبي من ذلك الأقرع أن يفلت الكلاب. من يعرف ماذا قد يجري. ما دام الرجل قاتلاً دموياً. ما دام يحرق مزارع الأغنياء...

كانت الفتاة الشابة أيضاً في شك وريبة:

ـ هل هذا هو الذي أحرق مزرعة السيدة يا أمي؟

ـ انظري، هكذا يقول أبوك...

ـ وهو الذي قتل مظفر بيك، ها؟

ـ هو، لتُعمى عيناه!

ـ وماذا لو جاء إلى مزرعتنا؟

ومع أن المرأة كانت تفكر بذلك، إلا أنها قالت:

ـ اسكتي. افتحي فمك على خير. فمزرعتنا ليست مزرعة السيدة!

لكن ذلك لم يشبع فضول الفتاة الشابة. لماذا ليست مزرعتهم مثل مزرعة السيدة؟ ما الفارق بينهما؟ تلك مزرعة وهذه مزرعة. وما دام الرجل قد قرر إحراق مزارع الأغنياء، وما دام يزهق أرواحهم، فإنه قد يأتي بهدوء في إحدى ساعات الليل، فيسكب الكاز من زجاجة يحضرها معه، على بيوت المزرعة الخشبية، ويشعل فيها عود ثقاب. من سيعرف ومن سيسأل؟

ـ ماما!

ـ ها؟

ـ الكلاب تشم رائحة الغريب فوراً، أليس كذلك؟

ـ طبعاً تشمها. تشمها نعم، ما قولك عن هاجر الفاجرة؟

ـ يا...

ـ استغنينا عنها في الوقت المناسب تماماً، لتبلى بالعمى. كانت الفاجرة "تطق الحنك" مع دوراننا، فوق طست الغسيل...

لكن ذهن الفتاة كان لا يزال مع "الهارب".

ماذا لو جاء في ساعة متأخرة من الليل؟ ماذا لو دخل غرفتها وعرَّاها بتهديد المسدس؟ لو قبَّلها؟ لو أحبَّها وداعبها؟ لم تكن تبالي بتقبيله لها أو بمداعبته، بل لن يهمها حتى لو تمادى أكثر من ذلك. يكفي أن لا يزهق روحها في النهاية. فالذنب لن يكون ذنبها مهما فعل!

"ـــ ماذا أفعل؟ أشهر الرجل مسدسه وأسنده على جبهتي، ولخوفي... "

حتى لو فقدت عذريتها فإن أباها غني جداً.

لم تكن غير راغبة في سرعة قدوم "الهارب". لا بد أنه رجل وسيم، طويل القامة، عريض المنكبين!

هزت كتفيها، وخرجت من المطبخ.

*

VII

حبيب "الهارب" الذي لا علم لــه بهذا كله، تربَّــع علــى الأرض، وراح "يقمّع" البامياء بسكين كبيرة في يده، غير مبال بلحيته التي طالت تمامــاً، ولا بقطرات العرق التي تسيل على وجهه، متحدثاً إلى "ابنه" حسين الذي يحــاول مساعدته بسكين صغيرة.

قال حسين:

ــ بابا!

حبيب الذي يغمى عليه بكلمة "بابا" هذه، نظر إلى الطفل مبتسماً وقال:

ــ أبي؟

ــ هل ستنام الليلة أيضاً في السقيفة؟

أحسَّ بدفء جسد هاجر الأبيض. لو كان الأمر بيده، فإنه يرغب في النوم تحت بلا أدنى شك، بل وفي الفراش نفسه حضناً لحضن.

قال الطفل عندما لم يسمع جواباً:

ــ نَم معنا.

ــ سنرى.

ــ لماذا لا تنام معنا؟

ــ قد يأتي أحدهم فجأة، ويراني...

ــ وإن رآك!

ــ يلقون القبض علي.

ـ هل يرمونك في السجن؟

ـ يرمونني طبعاً.

ـ ليرموك، تثقبه ثانية وتهرب!

ـ لا أستطيع الهروب. فسيرمونني بين جدران حجرية...

فكر الطفل ملياً بالجدران الحجرية. لقد رآها في أحد الأفلام، كانوا قد زجُّوا عاشق فتاة اختلط شعره بلحيته، بين جدران حجرية، لكن الشاب لكم الحارس الذي فتح الباب وأحضر الطعام، ثم فرّ من الباب المفتوح. وبتسديد الكلمات طرح أرضاً كل من واجههم وهرب.

ـ بابا!

ـ أبي؟

ـ أنت تستطيع ضرب الجميع، أليس كذلك؟

وبدون أدنى تفكير أجاب:

ـ أستطيع.

جال الطفل ببصره في الأرجاء بحسرة برهة، ثم قال:

ـ آه يا، آه يا بابا!

ـ ماذا هناك؟

ـ لماذا دخلت هذا السجن، ثم ثقبت جداره وهربت؟

ـ ماذا كان ليحدث؟

ـ كان الأفضل لو لم تدخل السجن وتثقب الجدار وتهرب.

ـ كان أفضل، لكنه حدث.

ـ ليته لم يحدث.

ـ ليته.

ـ أولئك الذين رموا التوتياء بالحجارة.

ـ أي؟

ـ كنت خرجت إليهم، وأنا من خلفك، وقلت لهم ولك أي ابن زانية رمى تلك الحجارة؟ فإذا قال دوران الأعرج أنا رميتها، ذهبت إليه وأمسكت بتلابيبه، وصفعتَه!

ــ ... ...؟

ــ ها؟

أدرك حبيب، وضحك قائلاً:

ــ صحيح من هو دوران الأعرج هذا؟

ما أراد الطفل التوقف عنده، فقال:

ــ لا شيء يا روحي، إنه واحد تافه.

ــ ماذا يريد منكم؟

ــ إنه لا يكف عن إزعاج أمي.

ــ لماذا؟

ــ وما أدراني؟ أمي دائمة البكاء بسببه، لو أكبر. آه لو أكبر...

ــ افترض بأنك كبرت؟

ــ عندها يكون قد هرم. سكيني في جيبي، أسحبها وأقول له: ولك أنت أبكيت أمي كثيراً، خذ خذ، طعنتين ورفسة...

داعب حبيب ذقن الطفل.

تساءل الطفل:

ــ أليس هذا ظلم لأمي؟

ارتأى حبيب عدم الإجابة، لكن الطفل كرر تساؤله:

ــ ها بابا؟

ــ ... ...

ــ باباااا!

ــ ... ...

لكزه:

ــ بابا يا!

ــ أبي؟

ــ أليس هذا ظلم لأمي؟

لا جدوى:

ـــ ظلم..

ـــ ثم علي هذا ابن شريفة. إنه ينتفخ لأنه يكبرني بسنتين. أنا أيضاً سأكبر، عندها سوف أحاسبه. علي هذا واحد، ودوران الأعرج واحد. هذان الاثنان لا أشفق عليهما أبداً، لا أشفق عليهما ولو فطسا!

نظر إلى "أبيه": الذي كان منهمكاً بتقميع الباميا. لماذا لم يهتم عندما قال: "لا أشفق عليهما ولو فطسا"؟ أم لعله يشفق؟

ـــ بابا!

ـــ أبي؟

ـــ هل تشفق أم لا تشفق؟

كان الرجل قد نسي:

ـــ على ماذا؟

ـــ على علي ودوران الأعرج؟

ـــ لا أشفق.

نهض وذهب إلى طرف الغرفة وراح يحرك بملعقة خشبية قطع اللحم التي تُقلى في قِدر مرفوع فوق بابور الكاز.

اقترب الطفل منه بسرعة:

ـــ بابا!

ـــ أبي؟

ـــ أعطني قطعة من اللحم!

كان أنفه الصغير يرتجف لرائحة اللحم المقلي التي تفتح الشهية. قال وهو يتلمظ:

ـــ هي بابا؟

ـــ ماذا؟

ـــ أقول أعطني واحدة من قطع اللحم تلك!

تناول الرجل الشوكة وغرزها في إحدى قطع اللحم التي تُقلى مع كمية وافرة من البندورة وتفتح رائحتها الشهية، وقدَّمها للطفل قائلاً:

ـــ خذ ولكن حذار أن تحرق فمك. دعها تبرد...

ووضع الشوكة في غطاء القِدر المقلوب على الأرض.

جلس الطفل بأنفه الصغير المرتجف، القرفصاء أمام غطاء القِدر يــزدرد ريقه، وقد مُسحت الدنيا كلها، فلم يبق الآن علي ابن شريفة ولا دوران الأعرج. يتناول الشوكة، ينفخ قطعة اللحم، يشمها، ينفخ من جديد، يتحسسها بطرف لسانه ويسحبه، ثم يجربها بأسنانه، لا تزال ساخنة. نفخ من جديد، ولمســها بطــرف لسانه، فازدادت شهيته، ولمعت عيناه بجوع وحشي، فليحصــل مــا يحصــل، سيضع الآن قطعة اللحم بملحها وبندورتها وما علق بها من مرق بين أســنانه، ويمضغها ويمضغها. إنه يحب كثيراً اللحم بهذا الشكل، لا يحبه مطبوخــاً فــي الطعام، لماذا لا يُطعم الكبارُ اللحم هكذا؟ هو لو كبر وصار رجلاً، لــو صــار بعمر أبيه، وصار لديه الكثير الكثير من المال سوف يشتري كــل يــوم لحمــاً ويقطعه قطعاً ويقليه مع البندورة، ويأكله بنهم.

أخذ قطعة اللحم التي بطرف الشوكة بين أسنانه، لا تزال ساخنة، احتــرق فمه، و لكن ماذا في ذلك؟ هل هو طفل ؟ لو كان طفلاً لبكى، لكنه ليس بطفــل، إنه في السادسة من عمره، علي ابن شريفة يكبره بسنتين، إنه في الثامنة. هــو أيضاً سيدخل الثامنة بعد سنتين، وسينجح إلى الصف الثاني في المدرسة!

أغمض عينيه قليلاً فيما هو يمضغ قطعة اللحم بتلذذ.

بعد سنتين ثمانية، وبعد عشر سنوات ثمانية عشر، ثمانية عشر عاماً!

كان سيسأل أباه عما إذا كان عمر الثامنة عشرة قليلاً أم كثيراً، بــل كــان سيسأل عن عمر أبيه أيضاً، لكنه عدل عن ذلك. فقطعة اللحم التي بين أســنانه هي الأهم. لقد أكل يوماً وربما للمرة الأولى قطعة لحم مقلية هكذا في بيت أهل زينل. إذ قدَّمت جدة زينل اللحم لكليهما... إنه يحب زينل، خاصة لأنه يُركبــه على دراجته ذات الثلاث عجلات. هو لم يركب دراجة علي ابن شريفة، فــذاك لم يكن يُركبه!

ــ بابا!

ــ أبي؟

ــ ألا يمكن أن يصير لديك مال كثير؟

ــ كم مثلاً؟

ــ بقدر أموال هاشم آغا.

هو لا يعرف هاشم آغا، لكنه لم يفتأ يسمع عنه منذ المساء عن طريق ذكر

دوران الأعرج، إنه مزارع كبير غني.

ـــ ها بابا؟ ألا يمكن؟

ـــ لا يمكن.

ـــ لماذا؟

ـــ أولئك يملكون أراضٍ شاسعة، ولديهم اعتماد مصرفي...

ـــ اعتماد؟ ما هذا؟

ـــ قدرة.

كذلك لم يفهم الطفل شيئاً، فكرَّر:

ـــ قدرة. ما هي القدرة؟

ـــ أي المصرف، أليس هناك مصرف؟

مرت ببال الطفل لوحة في واجهة أحد المصارف في السوق، كان طائر بطريق يحلِّق في الجو وقد حمل بمنقاره صرَّة.

ـــ أهو ذاك الذي يطير حاملاً بمنقاره صرَّة؟

فهم الرجل، إنها لوحة إعلانية لأحد المصارف يحمل فيها طائر السعد البطريق في صرَّته رزم الأموال للمودعين في ذلك المصرف، إنها الفوائد المصرفية...

ـــ تماماً، هو ذاك!

ـــ توجد أموال في صرَّته...

ـــ نعم توجد. الاعتماد يعني أن تكون لائقاً للأموال التي يقدمها لك المصرف. فالمصرف لا يدفع المال لكل شخص لا على التعيين.

ـــ لماذا؟

ـــ لأن على من يأخذ المال من المصرف أن يعيده إليه بعد إنجاز مشروعه!

فكَّر حسين مليًّا، وفيما هو يفكر كانت عيناه على قطع اللحم التي تُقلى في القدر، وسرعان ما أنسته رائحة اللحم المقلي المصرف والاعتماد وما شابه، بينما انهمك أبوه مجدداً بالباមياء. تناول الشوكة بخفة وأدخلها في القدر من الجانب الذي لا يراه أبوه، وبخفة الطائر اللص، غرز الشوكة في قطعة لحم.

كانت القطعة هذه المرة أكبر من سابقتها، كما كانت مقلية أفضل. ما أحسن أباه! لو كانت أمه لما أعطته قطعة لحم، ولما سمحت لـه بالسرقة: "ـ ابتعد عن القِدر!"

رمق أباه بطرف عينه، وراح ينفخ على اللحمة بسرعة:

ـ بابا!

ـ أبي؟

ـ لو صار لدينا مال بقدر آل هاشم آغا...

ـ لا يمكن أن يصير...

ـ لنقل صار..

ـ افرض أنه صار.

ـ عندها!

ـ ماذا يحدث عندها؟

ـ كنا نشتري لحماً كثيراً!

فهم الرجل، كما لاحظ أن الطفل أخذ قطعة لحم أخرى من القِدر، لكنه لم يواجهه بذلك.

ـ لا حاجة لأن نكون أغنياء بقدر آل هاشم آغا لكي نشتري لحماً كثيراً.

ـ ألا حاجة لذلك؟

ـ لا حاجة طبعاً!

ـ يعني هل نستطيع نحن الآن شراء لحم كثير؟

ـ ولِمَ لا نشتري؟

ـ أتدري بماذا أفكر يا بابا؟

ـ بماذا؟

ـ أقول لو أننا نشتري كمية من اللحم ونقطعها ونضعها في القِدر!

ـ نقطعها ونضعها.

ـ ونضيف إليها بصلاً وبندورة.

ـ نضيف البصل والبندورة.

ـ وعندما تُقلى...

ـــ عندما تقلى؟

ـــ دون أن نضيف إليها بامياء أو فاصولياء...

ـــ دون أن نضيف؟

ـــ يجب أن نأكلها بشهية!

وضع قطعة اللحم في فمه، وراح يمضغها بسرعة، ويغيب عن نفسه فيما هو يمضغها. لاحظ الرجل ذلك كله وابتسم. وقبل أن يفرغ وعاء البامياء المقمَّعة فوق اللحم المقلي، التقط بطرف الشوكة قطعتي لحم ووضعهما فوق غطاء القِدر المقلوب على الأرض.

عندما رأى الطفل وهو يمضغ اللحمة التي في فمه، القطعتين الأخريين أحبَّ أباه أكثر. لا أحد يشبه أباه. ما أحسن عودته. لا يمكن أن يكون لأحد أباً مثله. عاش أبوه، إذن هو سوف يقدم له دائماً قطع اللحم المقلي هكذا. هل يعطي أبو علي ابنه لحماً مقلياً هكذا؟ تخيَّل أنه لا يعطيه. فوالد علي لا يبقى في البيت ويطبخ الطعام مطلقاً. أما أبوه.. أبوه يطبخ، إنه هارب ولذلك. ربما لو لم يثقب جدار السجن ويهرب، لما بقي في البيت هو أيضاً، لغادر البيت صباحاً باكراً ولعاد عند المساءات مثل آباء بقية الأولاد يحمل تحت إبطه صمنتين أو ثلاثاً، وفي يده سلة أو صندوق. ولدخل البيت مع ابنه متعباً متجهم الوجه.

بلع ما في فمه، وتناول الشوكة، وفيما كان يغرزها في إحدى قطعتي اللحم التي يتصاعد منها البخار، نبهه أبوه قائلاً.

ـــ انتبه، لا تحرق فمك!

ثم أفرغ البامياء في القِدر.

رأى الطفل هذا كله، رأى إفراغ البامياء في القدر، ورأى تحريكها وتقليبها، لكنه لم يفهم سبباً لذلك. كان يفكر في أبيه. ما أحسن أباه، سوف يعمل هذه الليلة ما بوسعه كي يؤمن نومه معهما. ألا تقبل أمه؟ ربما، لكنه سيتوسل إليها.

قال فجأة:

ـــ لا يأتي أحد يا!

تساءل أبوه الذي يسكب الماء في قِدر البامياء:

ـــ أي أحد؟

ـــ لا يأتينا أحد في الليالي...

نظر إلى الطفل بعينين مستغربتين: ماذا كان يقول؟

قال الطفل، بعد أن نفخ قطعة اللحم التي في طرف الشوكة:

ـــ من سيدري لو نمت معنا؟

أدرك فتساءل:

ـــ ألا يدري أحد؟

ـــ لا يدري.

يدري، لا يدري، ينام، لا ينام... راودته أيضاً رغبة في إشعال سـيجارة، وفيما هو يضع فضلات البامياء والأواني المتسخة عند الباب، قال:

ـــ حسين!

كان الطفل قد وضع اللحمة في فمه وبدأ يطحنها بأسنانه:

ـــ هِيِ؟

ـــ أحضر لي بعض الماء بالإبريق.

ـــ ماذا ستفعل؟

ـــ سنجلي الأواني.

ـــ لا تبالي بها!

ـــ لماذا؟

ـــ أمي تجليها حين تأتي!

ـــ أمك ستعود متعبة، أليس حراماً؟

صاح الطفل محتداً:

ـــ لكن لا أحد من آباء الآخرين يجلي!

فهم الرجل.

أردف الطفل وهو يغمز بعينه:

ـــ هل يجلي الرجل الأواني؟

ـــ ألا يجلي؟

ـــ طبعاً لا يجلي. آباء الجميع لا يجلون الأواني، لا يكنسون أنحاء البيت،

لا يخيطون المفتوق...

ــ وهل تغسل الأمهات جميعاً غسيل الآخرين مثل أمــك؟ وهــل يــنقلن الحطب من الغابة مثلها؟

فكَّر الطفل، وفكَّر مليًّا. شريفة التي يعرفها عن كثــب لا تغســل غســيل الفنادق، ولا تحمل الحطب من الغابة مثل أمه، أبو علي هو الذي يجلب الحطب من الغابة، لكنه هو أيضاً الذي يكسب المال لبيته، أما أمه فهــي التــي تحمــل الحطب وهي التي تكسب المال لبيتها أيضاً.

مع ذلك لم يتوقف عند هذا وقال:

ــ الأواني لا تجلى بالماء البارد!

ــ صحيح.

ــ يلزمها ماء ساخن.

وافق على قول الطفل، ونزل إلى الغرفة السفلية فغسل يديه جيــداً بالمــاء والصابون ثم جففهما، وصعد إلى الأعلى. أخرج علبة سجائره، وألقــى بنفســه على الأريكة وهو يشم العلبة. آه لو يستطيع أن يشعل إحدى هذه السجائر كمــا فعل ليلاً، ويملأ رئتيه بدخانها.

بعد أن أكل اللحم، مسح الطفل فمه بخرقة مبللة، ثم اقترب من أبيه الممدد على الأريكة، فصعد فوقه وأسند رأسه على صدره المتين وقال:

ــ بابا!

ــ أبي؟

ــ لماذا لا تحلق لحيتك؟

فوجئ بالسؤال ولم يدر بماذا يجيب، فقال:

ــ بماذا، وكيف أحلقها؟

نهض الطفل مبتهجاً، ونظر إلى وجه أبيه الملتحي وقال:

ــ بآلة حلاقتك!

لم يرتبك الرجل، وسأله:

ــ حسناً، ولكن أين هي الآن؟

ــ في صندوق أمي!

وببهجة واهتياج أكبر قفز إلى الأرض، وقال:

ــ سأجلبها، وانظر!

راقبه حبيب مبتسماً.

هرع الطفل إلى صندوق أمه الخشبي المركون في طرف الغرفة، فرفع غطاءه، وبعد أن نبش وبعثر بعض الملابس الداخلية، عثر على عدة الحلاقة، ودون أن يخطر بباله إغلاق الغطاء، عاد إلى أبيه بالهيجان نفسه، ومدَّ له يده قائلاً:

ــ خذ!

تناول الرجل عدَّة الحلاقة التي فهم أنها لوالد الطفل الحقيقي، وفتح غطاء العلبة، ليجد معدن الآلة صدئاً بشكل، فقال محاولاً أن لا يكشف الحقيقة.

ــ نعم، لقد نسيتها. إذن فقد حفظت أمك هذه العدَّة طيلة تلك السنوات.

ــ أخرجها وانظر!

ــ علامَ أنظر؟

ــ هناك تحت الآلة شفرات زرقاء!

أخرج الرجل آلة الحلاقة الصدئة المعدن من مكانها في العلبة، ووجد فعلاً تحتها شفرتين جديدتين بغلافين أزرقين.

قال الطفل:

ــ كما أني أحب أمي هذه كثيراً، كذلك فإني لا أحبها أبداً.

ــ لماذا لا تحبها؟

ــ لأنها كانت تصرخ في وجهي كلما أخرجت هذه الآلة من الصندوق.

ــ لماذا؟

ــ كانت تقول سيعود أبوك يوماً، وسيستعمل هذه الآلة عند اللزوم، لا تلعب بها. وكأن هناك من يلعب، هل يمكن اللعب بآلة الحلاقة؟

ــ ... ...؟

ــ بابا!

ــ أبي؟

ــ لو لم تعد أبداً، لو كبرت أنا، ونبتت لحيتي؟

ـــ تنبت.

ـــ لبقيت هذه الآلة لي، أليس كذلك؟

ـــ طبعاً.

مرَّر يده على وجهه:

ـــ متى ستنبت لحيتي؟

ـــ عندما تصير أباً!

فكرَّ الطفل مليَّاً، لقد ملَّ هذه الطفولة. ففي البيت أمه تحتدُّ إذا ما استلقى على أي شيء. وفي الزقاق يضايقه الأولاد، لو يكبر، آه لو يكبر، ولو تنبت لحيته مثل لحية أبيه، ولو يذهب إلى الحلاق لوحده مثل بقية الآباء فيقص شعره ويحلق لحيته.. ثم ساعداه، أفضل شيء أن يقوى ساعداه كثيراً!

تلمَّس ساعد أبيه، وضغط على عضلاته:

ـــ ايه ايه!

ـــ ماذا هناك؟

ـــ هكذا فليكن الساعد!

أمسك الرجل بساعد الطفل:

ـــ ساعدك أيضاً لا بأس به!

ـــ توهجت عينا الطفل:

ـــ حقاً؟

ـــ طبعاً.

ـــ هل كان ساعداك مثل ساعدَيَّ عندما كنت طفلاً؟

ـــ كيف؟

ـــ يعني نحيفان، هزيلان.

ـــ كل شخص عندما يكون طفلاً يكون ساعداه نحيفين، ضعيفين!

ـــ وعندما يصبح بعمرك؟

ـــ عندها يتغير الأمر.

إذن هو أيضاً عندما يكبر سوف يكبر ساعداه ويقويان مثل ساعدَي أبيه، عندها يستطيع أن يضرب أي واحد في الزقاق.

ـــ بابا!
ـــ هه؟
ـــ هل سأصير أنا أيضاً مثلك عندما أكبر؟
ـــ ستصير مثلي.
ـــ وما أدراك؟
ـــ مادمت ابني.. الأبناء يشبهون آباءهم حين يكبرون!
ـــ وهل أنت تشبه أباك؟
خطر أبوه الذي في القرية بباله، ومع أنه لم يكن يشبهه مطلقاً، أجاب:
ـــ بالضبط.
داعب وجه الرجل الملتحي:
ـــ أنا أيضاً ستكون لي لحية هكذا. تعيش!
ـــ ستكون طبعاً.
ـــ وإذا رموني في السجن، هل أستطيع أن أثقب الجدار وأن أهرب؟
ـــ تهرب.
ـــ الرجل في السينما رمى خمسة أشخاص بلكماته!
ـــ قد يصبح الإنسان وحشاً حين يقتضي الأمر.
ـــ كيف؟
ـــ من حلاوة الروح.
ـــ وأنت هل هربت من حلاوة الروح؟
ـــ طبعاً.
ـــ وكم شخصاً تغلبت عليه؟
كان مسترسلاً مع رغبات الطفل:
ـــ لم أعد أذكر، ولكن...
ـــ هل كانوا خمسة؟
ـــ لم أحصهم.
ـــ عشرة؟

ـ ربما أكثر!

هاج الطفل وصاح:

ـ عاش أبي... عشرة أشخاص ها؟ هل هجموا عليك دفعة واحدة؟

ـ واحداً واحداً، اثنان اثنان، ثلاثة ثلاثة....

استيقظ فيلم ذلك اليوم في مخيلة الطفل، فشرد برهة، ثم قال:

ـ هل كان الحارس قد أحضر الطعام؟

ـ أحضر الطعام.

ـ فتح الباب ودخل، ووضع صينية الطعام على طرف...

ـ وضعها.

ـ وفيما هو يستوي واقفاً؟

ـ سددتُ إليه لكمة!

اعتبر الطفل هذا عملاً خاطئاً، كما اعتبره كذلك عندما شاهد الفيلم، فهل من العدل لَكْم جالب الطعام، أي مقدم المعروف الذي لم يقترف ذنباً؟

خشي أن يتوقف عند هذه الفكرة، فكل ما يفعله أبوه هو أحسن شيء وأصح شيء وأجمل شيء.

ـ بابا!

ـ أبي؟

ـ طالما أنني ابنك، فسوف أشبهك عندما أكبر أليس كذلك؟

ـ طبعاً.

ـ عندها لا يجرؤ أحد على توجيه كلمة إلي، أليس كذلك؟

ـ لا يجرؤ.

ـ وعلي ابن شريفة؟

ـ وعلي.

ـ ألا يكبر هو أيضاً مثلي؟

ـ إذا كان أبوه مثل أبيك، فربما... فكر الطفل بأبي علي، وفرح، فأبو علي ليس طويل القامة قوي البنية مثل أبيه، بل هو على العكس من ذلك قصير القامة، ناحل.

ــ لا يمكن لأب أحد أن يكون مثل أبي!

ــ إذن وأنت أيضاً ستكون أقوى من أبناء الجميع.

ــ ودوران الأعرج أيضاً لا يجرؤ على توجيه كلمة إلي، أليس كذلك؟

ــ لا يجرؤ.

ــ هل يصير لدي مال كثير؟

ــ كثير.

ــ وزوجة؟

ــ وزوجة...

ــ هل تشبه أمي؟

ــ ذاك لا يمكن معرفته.

ــ وابن؟

ــ وابن.

توقف، فكَّر، بالجيران، بالأزقة الخلفية، بالسوق، بالسينما، بالمصرف، بالمصارف، ثم لما مرَّ بذهنه بسرعة حفيد هاشم آغا بدراجته ذات الثلاث عجلات، توقف عند الدراجة وقال:

ــ عندما يصبح لدي مال كثير...

ــ عندما يصبح؟

ــ لابني...

ــ لابنك؟

ــ أشتري دراجة بثلاث عجلات.

فهم حبيب المسألة. وكان لديه في جيبه ما يشتري به دراجة بثلاث عجلات، ولكن كيف ينزل إلى السوق، وكيف يشتري الدراجة، وكيف يجلبها وهو في حالته هذه؟ حتى لو أرسل أم الطفل وجعلها تشتري الدراجة، فسوف تكثر المشاحنات والأقاويل بين أبناء الجيران نتيجة الحسد والغيرة. مع ذلك قال:

ــ أنا أيضاً بإمكاني أن أشتري لك دراجة إذا أردت.

نظر الطفل إلى أبيه بعينين تشعان أملاً وقال:

ــ حقاً؟ هل بإمكانك؟ هل بإمكانك حقاً أن تشتري لي دراجة يا أبي؟

ــ بإمكاني.

ــ متى؟

ــ حين نتخلَّص من هنا بخير...

راح الطفل يفرقع بأصابعه ويرقص ويقفز كأنما فقد صوابه لبرهة، ثم صاح:

ــ يعيش أبي، سيشتري لي دراجة بثلاث عجلات، هي هي....

ثم سأل:

ــ مثل دراجة زينل أليس كذلك؟

ــ مثل دراجة زَيْنَلْ.

ــ وسيكون لها زمور؟

ــ سيكون.

ــ متى سنتخلَّص من هنا يا بابا؟

سعادة الطفل ولَّدت في نفس الرجل تأثراً وحزناً، وما أدراه متى وكيف سيتخلَّصون؟ "سيتخلصون" نعم. لأنه ألقى بالطفل وأمه معه في التهلكة، وهما امرأة تعيسة وطفل تعيس. ماذا سيحل بهما إذا ألقي القبض عليه؟ أو حتى إذا لم يلق القبض عليه وهرب؟ سيلاحقهما القانون بدعوى إخفاء "هارب" في بيتها، وسيرمى بها في السجن، وبعد ذلك ستكثر أقاويل وإشاعات دوران الأعرج ورفاقه، وكل من لا يحب المرأة من ذوي الألسنة الطويلة السوداء. ولن تستطيع الاستمرار في العيش هنا. "مسكينة!" قالها في نفسه "ــ سوف يقاسي رأسك ويعاني من المشاكل بسببي. وحسين؟ إنه يظنني أباه الحقيقي، ومن يدري كيف سيبكي إذا ما عرف يوماً بأنه خدع!"

ــ بابا!

ــ أبي؟

ــ متى سنتخلص من هنا؟

ــ عندما يشاء الله.

رفع الطفل رأسه إلى الأعلى ونظر إلى السقيفة، كأن الله في السقيفة، ثم سأل مجدَّداً:

ـــ بابا أين الله؟

ـــ الله موجود في كل مكان.

ـــ متى يشاء خلاصنا؟

ـــ حين يحين وقته وساعته.

ـــ ومتى يحين وقته وساعته؟

ـــ الله أعلم.

تنهد الطفل بحسرة وقال:

ـــ أنا، لو كنت الله.؟..

أجفل حبيب وصاح:

ـــ هش ش ش

حار الطفل:

ـــ ماذا حصل؟

ـــ قل التوبة!

ـــ لماذا؟

ـــ هذا حرام جداً.

ـــ ما هو الحرام؟

وعندما لم يتلق جواباً لم يكرر السؤال. كان قد سمع من أمه أشياء حول الحرام، مثل المياه المغلية، وجهنم، والزبانية.... استيقظت في مخيلته قدور المياه المغلية، وألسنة لهيب جهنم، أما اسم الزبانية فقد رسم في ذهنه مخلوقات ذوات شعور طويلة، وأيد وأذرع ضخمة أشبه بالحيوانات المتوحشة. أجفل وارتجف وكأن هذه المخلوقات المرعبة سوف تمسك به من يديه وتلقي به في نيران جهنم. صعد إلى الأريكة بجانب أبيه وأتكأ على صدره، وفيما كان يداعب وجه الرجل الملتحي،تذكر مجدداً:

ـــ بابا!

ـــ أبي؟

ـــ لماذا لا تحلق لحيتك؟

ـــ لا يوجد ماء ساخن.

قفز عن الأريكة بخفة وقال:

ـــ هل أسخِّن لك؟

ودون أن ينتظر جواب الرجل: أسرع ووضع ماء في طاسة الحمَّام الصفراء، وذهب إلى حيث بابور الكاز، فأنزل قِدر البامياء عنه، ووضع طاسة الحمَّام الملأى بالماء بدلاً من القِدر.

كان الرجل يراقبه فقط. من يدري كيف سيبكي حين يعلم يوماً أنه ليس أبوه الحقيقي؟

انسحب الطفل من جانب بابور الكاز:

ـــ بابا!

ـــ أبي؟

ـــ دع أمي تراك بدون لحية حين تعود.

ـــ ماذا يحدث؟

ـــ تفرح.

ـــ لماذا؟

ـــ لا أحد من الأزواج بلحية مثلك!

كانت نار بابور الكاز المتأججة تسخِّن الماء في طاسة الحمَّام بوحشية. وقبل مضي وقت طويل راحت فقاعات الهواء تتشكل في قعر الطاسة، ثم راحت تصعد إلى الأعلى فقاعة فقاعة ثم اثنتان اثنتان ثم ثلاثة وأربعة وخمسة وعشرة. وغلى الماء.

أسرع الطفل وأمسك بخرقة وأنزل الماء المغلي عن النار:

ـــ أفسح مكاناً يا بابا، الماء قادم!

مشى الرجل وآلة الحلاقة بيده ووقف أمام مرآة الحائط، بينما وضع الطفل طاسة الماء المغلي على مقعد خشبي، ثم سحب المقعد وقرَّبه من أبيه.

ـــ الصابون؟ الفرشاة؟

أسرع الطفل إلى الصندوق الذي مازال غطاؤه مفتوحاً، وبحث بين الأشياء المبعثرة فيه، فعثر على صابونة وعلى فرشاة قديمة فجلبهما:

ـــ غيره؟

ـ سلامة عمرك.

استلقى الطفل على بطنه عند قدمي أبيه في موقع يراه منه جيداً، أسند مرفقيه على الأرض، ووضع وجهه بين راحتيه، وراح بأنفه الصغير، وبعينيه اللتين تشعان ذكاء يراقب أباه بدقة.

لم يَدع حركة من حركات أبيه تغيب عن ناظريه. فتح الرجل لآلة الحلاقة، وإخراجه الشفرة الجديدة من ورقتها الزرقاء، وتركيبها في مكانها من الآلة، ووضعه مشط الآلة فوق الشفرة، ثم تركيبه ساعد الآلة، ثم ترك آلة الحلاقة الجاهزة فوق المقعد الخشبي. ورغي الصابون بالفرشاة فوق لحيته القاسية، هذه الأمور كلها كانت تبدو للطفل وكأنها فوق العادية.

لاحظ الرجل ذلك كله، فتقصد أن يطيل أمد تصرفاته لكي يراها الطفل جيداً. رغى الصابونة بفرشاة الحلاقة المبللة بالماء الساخن، ثم راح يفرِّش لحيته مطولاً بالفرشاة ذات الرغوة الكثيفة، حتى غابت شيئاً فشيئاً تحت الرغوة المتكاثفة. وبعد فترة تناول آلة الحلاقة. وأحس الطفل بأن أباه تمتم بأشياء لم يسمعها:

ـ بابا!

ـ أبي؟

ـ ماذا قلت؟

ما كان الرجل منتبهاً للأمر. فتساءل:

ـ متى؟

ـ بعد أنت تناولت آلة الحلاقة.

تذكَّر:

ـ قلت يا الله يا ستار.

ـ ما معنى هذا؟

ـ إنه قريب من بسم الله...

ـ لماذا لم تقل بسم الله؟

ركَّز الآلة عند بدايات لحيته، وأنزلها إلى الأسفل مرة واحدة فانفتح طريق عريض من خلال اللحية المغطاة بالصابون.

ـ أما قلت يا الله يا ستار؟

ـــ لماذا قلت؟

ـــ ما أدراني؟ اعتياد.

ـــ ألا يغضب الله؟

التفت ونظر إلى ابنه المستلقي عند قدميه على بطنه، ينظر إليه مـــن بـــين كفيه مثل جني،غمزه بعينه وسأله:

ـــ هل يغضب؟

ضحك الطفل:

ـــ وما أدراني أنا؟

ـــ لماذا لا تدري؟

ـــ أنا لست أباً.

ـــ هل يستطيع الآباء معرفة كل شيء؟

ـــ ألا يعرفون؟

ـــ طبعاً لا يعرفون، انظر هأنذا لا أعرف!

ـــ إلى أي صف وصلت يا بابا؟

كانت عملية الحلاقة تتقدم بسرعة.

ـــ أنا؟ إلى الصف الخامس.

ـــ إلى الصف الخامس؟

ـــ إلى الصف الخامس.

ـــ ألم تنهه؟

ـــ لم أنهه.

ـــ لماذا؟

تركزت آلة الحلاقة عند بدايات اللحية في الطرف الآخر من الوجه الظاهر في مرآة الحائط، وكما في الخد الأول، نزلت الآلة من خلال اللحيـــة المغطـــاة بالصابون، وفتحت طريقاً أسمر سليماً في الخد.

لم يتلق الطفل جواب سؤاله "ـــ لماذا؟"، فلم يتخلَّ عنه:

ـــ ها بابا؟

ـــ ماذا؟

ـــ لماذا لم تنه الصف الخامس؟

لم يكن الرجل يعرف.

ـــ والله، عبثية على الأغلب.

ـــ هل كنت مشاغباً جداً؟

ـــ كنت أحب النوم كثيراً، وكان الاستيقاظ عند الصباح الباكر والذهاب إلى المدرسة يزهق روحي...

سحب الطفل كفيه عن وجهه، ونهض عن مرفقيه:

ـــ أنا لن أكون نوِّيماً عندما أبدأ بالذهاب إلى المدرسة!

ـــ أحسنت!

ـــ بعد الخامس سأدرس الإعدادية، ثم.. بابا!

أنهى الرجل حلاقة خده الثاني، وبدأ ينظف ذقنه ورقبته:

ـــ أبي؟

ـــ لا توجد هنا مدارس أعلى من الإعدادية!

ـــ ألا توجد؟

حار الطفل:

ـــ لماذا؟ ألا تعرف؟

قال الرجل وقد أدرك غلطته:

ـــ نعم، نعم، لا توجد. صحيح.

حُلقت الذقن، وبرزوجه شاب جميل يضج حيويَّة، فنسي الطفل المدرسة والمدارس الأعلى وغيرها، وصفق بيديه وصاح:

ـــ يعيش أبي ي ي ي !

طار صواب الرجل:

ـــ هس س س س !

حار الطفل:

ـــ ماذا هناك؟

ـــ يسمعون في الخارج!

سمعت هاجر العائدة إلى بيتها تحمل حملاً من الحطب، في تلــك اللحظــة بالذات، صوت ابنها، فطار صوابها، وفيما كانت تحث خطاها، ارتاحت لخلــو الزقاق في تلك اللحظة. حسناً، ربما هي سمعت لأن أذنيها متنبهتين، ولكن كان بإمكان غيرها أن يسمع أيضاً.

طار صواب حبيب عندما فتح باب باحة الدار المخلَّع بجلبة، فتــرك كــل شيء وأسرع إلى سلم السقيفة. كان قلبه يخفق بشدة، ومــا أدراه بــأن القادمــة هاجر؟

سوف يهرب إلى الأعلى ومسدسه بيده، وسوف يتدلى من طرف الســقيفة المطل على الزقاق الخلفي، ويقفز إلى الأسفل، وإذا لم ينجح فسوف يجندل كــل من يقف في وجهه كائناً من كان، وسوف يفتح لنفسه طريقاً يهرب منه، وإن لم يستطع يموت رجلاً وهو يقاتل.

ألقت هاجر حملها فوق كومة الحطب في باحة الدار، ومشت نحــو بــاب الغرفة، متضايقة، متعبة، منهكة، منسحقة، وفتحت الباب.

نظر حسين من خلف ستارة النافذة البيضاء ورآها، ولمــا اقتربــت مــن الباب هرع إليها صائحاً:

ـــ ماما!

كانت روح المرأة واصلة إلى أنفها: فردت ابنها ونهرته:

ـــ مالك تصرخ ولك؟

لم يكن الطفل يدري أن أمه سمعت هتافه "يعيش أبي ي ي ي!"

ـــ متى صرخت؟

ـــ قبل قليل، سمعتك من الزقاق!

ـــ حقاً؟

ـــ لا، كذب!

لاحظت الرجل المنتصب عند السلم المؤدي إلى السقيفة، بوجهــه الحليــق البراق، لكنها لم تعره اهتماماً.لقد كذب عليها وخدعها. لو لم تر صــورته فــي مخفر الدرك لظنت بأن "الهارب غيره!" لكنها رأت صورته بعينيها.

سألها الرجل وقد خمَّن أشياء:

ـــ خيراً؟

أشاحت المرأة بوجهها عنه، وخلعت معطفها الرقيق، ثم نزعت غطاء رأسها، وقالت وهي تزفر:

ــ خير.

اقترب الرجل قليلاً وسألها:

ــ فعلاً، مَمَّ أنت متضايقة؟

كذب عليها وخدعها، لكنه وسيم جداً:

ــ لا شيء. من هذا الطفل المستهتر!

نظر الرجل إلى الطفل الواقف عند الأريكة. كمن اقترف ذنباً.

ــ لقد سمعتُ هتافه يعيش أبي، من الخارج!

ــ لا يا؟ إذن...

ــ لو تكلمنا بصوت مرتفع قليلاً، لتمَّ الأمر!

بتهذيب طفل كبير، اتجه الرجل نحو المرآة التي حلق لحيته أمامها ففك آلة الحلاقة التي بيده، وغسلها بالماء الساخن الذي في الطاسة الصفراء، ونظَّفها من الشعر والصابون العالق بها.

كانت المرأة تراقبه مبهورة وقد تهدل حاجباها، ولكن مهما يكن فهي مستاءة منه. وما نفع أن يغسل آلة الحلاقة بعد أن يحلق لحيته هكذا تماماً مثل زوجها؟ لماذا كذب عليها؟ هل كان يظن بأنها سوف تسرع إلى تسليمه لو أنه صارحها بالحقيقة دون اللجوء إلى الكذب والخداع؟

رتَّبت الأغراض المبعثرة في الصندوق، وحدجت ابنها بنظرات استياء فيما هي تغلق غطاءه. لكن الطفل لم يكن يفهم أمه هذا اليوم. حتى لو غضبت لسماعها صوته من الخارج، لماذا تستاء من بعثرة أغراض الصندوق، ومن فتح غطائه؟ أليس هذا أبوه؟ أو ليست آلة الحلاقة والمعجون والفرشاة كلها له؟ أو لم تكن تقول له دائماً "ــ سيأتي أبوك يوماً ويحلق بهذه الآلة، لا تعبث بها، فتخربها!"؟ لم يعبث بها، وانتظر عودة أبيه. وها هو أبوه قد عاد. فلماذا تغضب؟

اتجهت المرأة نحو بابور الكاز الذي كان لا يزال يشتعل خافتاً، ورفعت غطاء القدر بخرقة، فانتشرت رائحة الباميا المطبوخة باللحم والبندورة فواحة تفتح الشهية.

قال الرجل:

ــ سنرى إن كانت ستعجبك؟

ورغم أنها فهمت إلا أنها تساءلت:

ــ ما هي؟

ــ الباميا التي طبختها.

غطت غطاء القدر، وضربت طلمبة البابور عدة مرات متتالية. وماذا لــو أعجبها؟ وماذا لو لم يعجبها؟ كذاب. إذن فقد أحرق "مزرعة الســيدة" وهــرب؟ ومن قبل كان قد قتل صاحب هذه المزرعة مظفر بيك، ولم ينل عقوبة فعلته، ما هو إلا قاتل دموي!

أما حبيب فقد لاحظ أن هذه المرأة ليست هي نفسها امرأة مساء الأمس، ما هو سبب تغيرها الواضح يا ترى؟ كائناً ما كان السبب، وبــالرغم مــن أنهــا ضمدت جرحه، وهيأت لــه فراشاً، وآوته في بيتها، فإنه كان مســتعداً للقتــل حتى لا يُقتل. فهو ليست لــه نهاية مرجوة على أية حال. وهو يعرف تماماً أنه إذا ما جرح وألقي القبض عليه، فالمحكمة والمحاكمة وخشبة الإعدام بانتظاره. الموت نهاية كل حي، سواء على فراش الموت، أو على خشبة الإعدام، أو وهو يَقتل ويُقتل بمسدس في يده. وهو سوف يموت وهو يَقتل إذا اقتضى الأمر.

جفَّف عدَّة الحلاقة، وقدَّمها للمرأة وهو يقول:

ــ رغبة ابنك!

وبلا رغبة، تساءلت المرأة المتضايقة:

ــ ماذا؟

ــ أقول إنها رغبة ابنك. أصرَّ على أن أحلق لحيتي...

ركض الطفل من جانب الأريكة والتفَّ بأمه وقال:

ــ أبي يقول الحقيقة، فأنا ألححت عليه!

أصيب الرجل أيضاً بضيق شديد. إذ قد يغادر في ساعة متأخرة من الليــل إذا اقتضى الأمر، من يدري لعلها عرفت الحقيقة فتجهم وجهها، وعبست لأنهــا لا تستطيع أن تقول لــه صراحة: "ــ غادر بيتي فوراً!".

صعد السلم إلى الأعلى، واجتاز السقيفة إلى طرفها الآخر حبواً. وتفحــص الأخشاب، كانت جيدة ملائمة، يستطيع أن ينزلق مــن خلالهــا بيســر إذا مــا

حوصر. ويبدو أنه مرغم الآن على الانزلاق حتى ولو لم يكن محاصراً، فما هذه السحنة المقلوبة هكذا يا؟

ساقان ضخمتان ممتلئتان، وذراعان ضخمتان ممتلئتان.. حسن ولكنه كذب عليها، لماذا؟ هل خشي أن تتخلى عنه وتسلمه؟

ذابت وتلاشت مرة أخرى بعد أن نظرت إليه مطولاً من خلفه، وضجت مجدداً بين جوانحها الرغبة التي اجتاحتها في الليل. فلقد صار بوجهه الحليق أكثر جاذبية لأنوثتها، وبشكل أدق، صار يلامس مشاعر الكبت والحرمان الذي تعانيه. وكيف تسلَّق السُّلم بخفة ذئب مدرب!

ــ ماما!

ــ ماذا هناك؟

ــ أبي سيشتري لي دراجة بثلاث عجلات مثل دراجة زينل!

ــ متى؟

ــ عندما نذهب من هنا!

ــ إلى أين نذهب؟

ــ إلى بلدة أخرى!

ــ أيُّ بلدة أخرى ولك؟

ــ اسألي أبي وتأكدي، سوف نذهب من هنا إلى بلدة أخرى أنت وأنا وأبي. سوف يكون لدى أبي مال كثير، وسوف يشتري لي دراجة مثل دراجة زينل!

ــ ....

ــ اسأليه إن كنت لا تصدقين!

ليست الدراجة، وإنما فكرة مغادرة هذه البلدة سوية، لم تكن خارج نطاق تفكير المرأة، ولكن كيف؟ فالبلدة كلها تتحدث عن "الهارب" وكافة الأرجاء مطوقة، واليوم أو غداً، وإن لم يكن فبعد غد سوف يتم تفتيش بيوت البلدة بيتاً بيتاً. وحينذاك؟ ماذا سيحدث حينذاك؟

ضربت درجات السلم:

ــ انظر إلي!

كان الرجل في الطرف الآخر من السقيفة يتفحص المكان الذي سيهرب

منه حين يستدعي الأمر. حبا حبواً ووصل إلى حيث فتحة السقيفة، وأطل على الأسفل بوجهه الحليق وشاربيه الأسودين الكثيفين:

ــ ماذا هناك؟

هذه الــ "ــ ماذا هناك؟" كانت تفصح عن ضيق، وتحمل معنى اللامبالاة بما ستؤول إليه الأمور.

أحسَّت المرأة بمقدمات تمرد فقالت:

ــ البلدة كلها تتحدث عنك!

وبصوت احتدَّ فجأة سأل الرجل:

ــ ماذا تتحدث عني؟

ــ تتحدث عن هروبك!

انقلب الرجل الآن فجأة من ذئب مدرَّب إلى أسد كاسر، وتحركت بخفة السنجاب يداه ورجلاه الضخمة الممتلئة، التي ما فتئت المرأة معجبة بها، فسحب مسدسه ونزل السلم بلمحة:

ــ هل وشيتِ بي؟

صار وجه المرأة كالحوار:

ــ أنا؟

ــ لا أنا!

ــ والله، بالله لم أقل شيئاً!

صاح الطفل فزعاً:

ــ بابا!

لكن الرجل لم يسمع. كان مسدسه الموجه صوب المرأة يرتجف في يده من شدة الحنق:

ــ أقول لكِ قولي الصدق. إذ لم يرَ أحد دخولي إلى هنا. إن كنت أخبرت عني، وإن جرت مداهمة...

كان جسم المرأة كله يرتجف أيضاً، وراحت تداعب يد الرجل الممسكة بالمسدس وهي تقول:

ــ أنا لست امرأة عاهرة، ولماذا أسلمك؟

ـــ اسحبي يدك عن المسدس!

سحبتها.

ـــ إن كنتِ وشيتِ بي فاعلمي بأنها نهايتك!

ـــ لأغسل جثة حسيني بيدي أن لا ...

ـــ طيب وما أدراهم بوجودي في هذه البلدة؟

تأتأت:

ـــ وَرَدَ هاتف للدرك!

ازداد شك الرجل أضعافاً:

ـــ وَرَدَهم هاتف؟

ـــ وَرَدَهم هاتف.

ـــ وهل وَرَدَ الهاتف عندك؟

ـــ أنا كنت هناك...

ـــ أين؟ في مخفر الدرك ها؟ ماذا كنت تفعلين هناك؟

ـــ هذا، هذا الدوران الأعرج... لاحقني أثناء ذهابي من هنـــا... فـــذهبت أشكوه إلى المساعد الأول. في هذه الأثناء ورد الهاتف. وصورتك أيضاً كانـــت في يده. نظرتُ إليها، أنت!

ـــ وطبعاً اضطربت وارتبكت حينها وصحت آي، مَي. فســـألك المســـاعد الأول عن سبب اضطرابك، وأنتِ...

ـــ لا والله!

ـــ ماذا؟

ـــ ما اضطربت، وما صرخت، وما سألني المساعد الأول شيئاً..

ـــ ولِك انظري إلي، ليس في هذا الأمر مزاح، إن كنـــت أخبـــرت عنـــي فقولي لأهرب. لا تسلميني إليهم أثناء نومي في إحدى ساعات الليل!

ـــ ليعمي الله عينيَّ الاثنتين لم أخبر عنك. لماذا لا تصدِّقني؟ أمـــا كـــانوا داهموا البيت لو أخبرت عنك؟

نعم هكذا، لكانوا جاؤوا.

ـــ ثم لو سلمتك فسوف أحترق أنا أيضاً. دع مسألة زجِّـــي فـــي الســـجن،

سوف أصبح مضغة في أفواه أهل البلدة. أيمكن أن أسلِّمَك؟

ــ أترين هذا المسدس؟ إن كنت أخبرت عني، وإن جاؤوا للقبض علي، فسوف أطلق رصاصة عليك، ورصاصة على ابنك، ورصاصة على نفسي. اعلمي ذلك!

وكأسد غاضب مزَّق المصارعين وأشبع بطنه من أشلائهم، صعد السلَّم ببطء، ودلف من الفتحة إلى داخل السقيفة.

نظرت المرأة إليه من خلفه بخوف، ولكن بلا كراهية، كان يجب أن يكون هذا زوجها. وأن يأخذها بين ذراعيه بهذا الحنق وأن يضمها إليه ويضغط عليها ويطقطق عظامها!

توجهت نحو السلم رغماً عنها، بل وصعدت بضع درجات، وتوقفت. كان الرجل جالساً على فراشه. وخيط رفيع من ضوء ينسل من شق في الخشب ويرتمي على القسم المعدني من المسدس الذي في يده فيضيئه.

اقتربت المرأة ببطء شديد من الرجل القابع في ظلمة السقيفة مثل كتلة من الغضب، وتوقفت عند الدرجة قبل الأخيرة من السلم، رأت الرجل المحتد ينظر بقسوة. أما نظراتها فما عادت غاضبة الآن. نظرا إلى بعض برهة، لم يكونا يريان نظرات بعضهما في البداية، ثم اعتادت عيونهما الظلام فالتقت نظراتهما.

ما عادت نظرات الرجل مخيفة.

وبصوت خافت همس:

ــ تعالي!

نظرت المرأة إلى الأسفل، فرأت ابنها واقفاً قرب الأريكة، فأجابته:

ــ لا يمكن!

ــ لماذا؟

ــ الولد موجود!

فصرخ الرجل:

ــ حسين!

وبعينين جفَّت الدموع من حولهما نظر الطفل إلى الأعلى وقال:

ــ نعم بابا؟

ــ تعال إلى هنا يا ولدي!

أسرع الطفل بتسلق درجات السلم بخفة سنجاب، ووقف منتظراً بجانب أمه. مدَّ الرجل يده الضخمة القوية وأمسك بذراع الطفل وسحبه إلى الأعلى، وضمَّه إلى صدره.

صعدت درجة أخرى بارتياح، وجلست على حافة السقيفة الخشبية. لم يقتربا جداً من بعض. أما الطفل فكان ملتفّاً تماماً بأبيه:

ــ بابا!

ــ أبي؟

ــ متى سنرحل من هنا إلى المدينة؟

قال وهو يضغط على الكلمات:

ــ عندما تشاء أمك.

إنها تتمنى ذلك من صميم قلبها، لكنها الآن مشغولة في التفكير في كيف تكون في هذه اللحظة بين ذراعي الرجل الضخمتين القويتين إلى حد طقطقة عظامها.

التفت الطفل إلى أمه بفرح وسألها:

ــ هل سمعت؟

وعندما لم يتلقَّ جواباً كرَّر سؤاله:

ــ ها؟ هل سمعت؟ هل سمعت يا؟

هزَّ أمه، وعندها فقط قالت المرأة:

ــ ماذا هناك؟ ما بك؟

ــ أبي يقول عندما تشاء أمك!

والتفت إلى الرجل يتأكد منه:

ــ أليس كذلك يا بابا؟

ــ نعم كذلك. نرحل ثلاثتنا من هنا، إلى مدينة بعيدة، بعيدة جداً، إلى دنيا جديدة تماماً لثلاثتنا. ومن سيعرفنا هناك؟

همست المرأة:

ــ الزواج؟

ــ أمره سهل.

ـــ كيف؟

ـــ لدي وثائق فلاح ميت...

أجفلت المرأة:

ـــ فلاح ميت؟

ـــ ماذا هناك؟

ـــ هل ذاك أيضاً؟

ارتاب الرجل، وصار وجهه مرة أخرى وجه سفاح متوحش، لكن المـــرأة لم تلحظه.

ـــ هل ذاك أيضاً، يعني هل تظنين أنَّي قتلت قبله آخرين غيره؟

ـــ المساعد الأول يقول ذلك!

ازدادت وحشيته:

ـــ ماذا يقول؟

ـــ أنك قتلت مظفر بيك أيضاً!

ـــ مظفر بيك؟

هزَّ رأسه، لم يعد هناك داعٍ للإنكار. إنه تماماً وقت إشعال سيجارة. آه لو يستطيع إشعال سيجارة!

تنهَّد.

أغلب الظن أن المرأة والطفل ربطا مصيرهما بمصيره. يجـــب أن يعمـــل على أن لا يموت هؤلاء الأشخاص الثلاثة، وأن يعمل على بقائهم أحياء وتأمين معيشتهم. موته لن يغير شيئاً أبداً. لكنه سيلطخ سمعة المـــرأة والطفـــل اللـــذين سيتركهما وراءه، بحيث لا يمكن لأي صابون تنظيف سمعتهما.

نظر إلى المرأة فجأة:

ـــ انظري إلي!

نظرت إليه المرأة بخوف. كان هذا خوفاً جديداً مختلفاً:

ـــ تفضل.

ـــ كل ما سمعتِه صحيح. أنا قتلت مظفر بيك، لأنه استحق القتل ألف مرة لا مرة واحدة.

ـــ بسبب الأراضي البور التي لا صاحب لها ، أليس كذلك؟

ـــ نعم بسبب الأراضي البور التي لا صاحب لها وبسبب غدره.

ـــ وأنت أحرقت المزرعة أيضاً؟

ـــ حرَّضت على إحراقها.

ـــ حسناً، لماذا لم تخبرني بالحقيقة؟

ضحك:

ـــ كنت شخصاً اليوم هنا، وغداً من يدري أين أكون؟ ولم أكن واثقاً من أن بإمكانك سماع الحقيقة، فلم أشأ إطالة الحديث وإضاعة الوقت، ورغبت في إقناعك وكسب عطفك. هذه هي المسألة!

ـــ كنت أيضاً عطفت عليك.

ـــ لم أفكر بذلك.

قالت مازحة:

ـــ كذاب!

ـــ ربما.

ـــ لا ليس ربما. إنك كذاب طبعاً!

ـــ ما دمت تريدين ذلك...

ـــ حسناً، وماذا سيحدث الآن؟

ـــ لا أدري.

ـــ سيفتش الدرك البيوت!

هزَّ الرجل كتفيه:

ـــ إن شئت الليلة فوراً...

طار صواب المرأة:

ـــ هل ستغادر؟

ـــ ألا تريدين ذلك؟

ـــ لا أدري.

ـــ إن كنت تخافين من أن أقر، إذا ألقي القبض علي، بأني كنت مختبئاً هنا فلا تخافي. أموت، ولا أسلمك لأيديهم!

أجهشت المرأة بالبكاء رغماً عنها، وجاراها ابنها، فـأجهش هـو أيضـاً بالبكاء، إنه لا يريد ذهابه.

أمسك الرجل بيد المرأة للمرة الأولى:

ـ لماذا تبكين؟

ـ ... ...؟

ـ هل لأني سأذهب؟

ـ ... ...؟

ـ وماذا في ذلك؟ ففي النهاية هل أنا إلا مجرد قاتل مجرم كذاب؟ سـحبت المرأة يدها من بين يدي الرجل بحدة، ونظرت في عينيه بعينين دامعتين.

ضحك الرجل:

ـ ما هذا؟

ـ سم!

ـ أذهب وأغادر، ولا يصيبكم أي ضرر بسببي!

بحثت المرأة عن يد الرجل وهزّتها:

ـ يقتلونك!

ـ ليقتلوني.

ـ لا!

ـ ماذا؟

ازداد نحيب المرأة، ورغماً عنها أسندت رأسها إلى صدره، كانت تجهـش بالبكاء كأنها زوجته حقيقة، وفيما كانت يده تداعب شعرها، سألها:

ـ ماذا يحدث إذا قتلوني؟ تتخلص الدنيا من مجرم كذاب، كذلك تتخلصين أنت وغيرك مني. وطالما أنا ميت لا محالة، وبما أنـه لـن يصـيبكم ضـرر بسببي...

رفعت المرأة رأسها عن صدر الرجل بحدَّة:

ـ أغلق هذا الموضوع، يكفي!

ـ لماذا؟

ـ هكذا أريد!

ـــ يعني؟

ـــ ... ...؟

ـــ ألا تريدين أن أذهب وأنقلع؟

ـــ لا أريد!

ـــ وإذا فتشوا البيوت؟

ـــ ليفتشوها!

ـــ وإذا عثروا علي هنا؟

ـــ ليعثروا!

ـــ وإذا ألقوا بك في السجن لإيوائك هارباً؟

ـــ ليلقوا!

أسندت رأسها ثانية إلى صدر الرجل. لم تعد تبكي. وتركت يدها في كف الرجل الضخمة الحارة.

وقفا هكذا فترة بدون كلام، كان رأس الطفل أيضاً مسنداً إلى صدر الرجل مثل رأس أمه، لكن المرأة لم تكن تفكر لا في ابنها ولا في زج الغريب في السجن إذا ما ألقوا القبض عليه، بل لم تكن تبالي حتى في سجنها هي...

أغمضت عينيها. وبعد مدة قالت:

ـــ من الآن فصاعداً سنكون سوية دوماً. لقد أرسلك الله إلينا، أنت غريب ونحن غرباء، أنت لك الله ونحن لنا الله...

مرَّر الرجل كفَّ المرأة على وجهه الحليق وقال:

ـــ صحيح.

إذا قدِّر لنا أن نتخلص من هنا، نذهب إلى بلدة بعيدة كبيرة!

انبرى حسين قائلاً:

ـــ هناك سيشتري لي أبي دراجة بثلاث عجلات!

سمعت المرأة ذلك وما فهمت. وأردفت:

ـــ من سيعرف هناك بأنك هارب؟ أنا أعمل، وأنت تعمل...

ـــ تمام.

ـــ ويكون لنا بيت صغير مكون من غرفة ومطبخ...

ــ ولابننا الصغير دراجة بثلاث عجلات طبعاً!

جاش الطفل وصاح:

ــ تعيش يا بابا!!!

ــ وعش أنت يا ولدي.عندما يكون ابني وزوجتي بقربي لا يرتـاب بـي أحد. أما لو كنت وحدي فربما. المسألة كلها تنحصر الآن في أن نخرج من هنا دون أن يرانا أحد، ونصل إلى الجبال. لقد تجولت طويلاً في هذه الجبال. ما أن نصل إلى الجبال، فلا تسألوا عن الباقي ليس للجبال مثيل. الجبال لا تشبه السهول. والجبليون رجال. الجبليون أشداء، حتى قرارات الملك لا تسري على الجبال. الجبال لا تتخلّى عنّا وتسلمنا...

أحسَّ الآن بطغيان أنوثة المرأة، فانتشى لذلك. ضمها إليه أكثر.لم تستغرب المرأة. كانت ذراعه اليمنى تضم الطفل بأبوة، وكانت ذراعه اليسرى تضم المرأة، كأنه زوجها!

التقت المرأة المحرومة من الرجل لسنين وسنين، بالرجل؛ والتقى الطفل المحروم من الأب بأبيه. ضغطت يد الرجل التي تلف المرأة على لحم المرأة. ارتاح لهذا جسدها الذي لم تضغط عليه يد رجل لسبع سنوات طوال. وانتصبت في داخلها أحاسيسها الأنثوية تنتظر أشياء رجولية أكثر. أغمضت عينيها بنشوة، وأسقطت رأسها على كتف الرجل القوي. فانزلقت يد الرجل بارتياح إلى تحت إبطها، ومن رطوبة تحت الإبط إلى الصدر.

كان الصدر منتفخاً، بشدة!

رغم جنونها باللذة والنشوة، قالت:

ــ الطفل.

سحب الرجل يده قليلاً، ولكن ليس كلياً.

أما الطفل فكان في المدينة الكبيرة جداً التي سيذهبون إليها سوية، ولم يسمع قول أمه "ــ الطفل". كان في أحد أزقة تلك المدينة الكبيرة، يمتطي دراجة بثلاث عجلات، دراجة حمراء مثل دراجة زينل. ولم يكن هناك علي ابن شريفة ولا دوران الأعرج. وكما كان يفعل عندما يمتطي دراجة زينل، ها هو يضغط بقوة على بدَّالات دراجته الخاصة به، والدراجة تروح وتجيء مسرعة في الزقاق الضيِّق.

ما كانت يد الرجل في حالة تسمع معها كلمة "الطفل" أو غيرها، إذ كانت

ممسكة بإحكام بتحت الإبط الذي ازدادت رطوبته بالتعرق، وكمن يريد أن يدخل المرأة إلى داخل صدره راح يضغط عليها نحوه.

ـــ حبيب!

ـــ روحي؟

ـــ ستعقد علي النكاح أليس كذلك؟

ـــ فور وصولنا إلى المدينة!

فيما كان الطفل يروح ويجيء بدراجته في أحد الأزقة الضيقة من أزقة المدينة الكبيرة البعيدة، كان دائم الضغط على زمور دراجته إذ غالباً ما كان العمال المتعبون المتعرقون الشاردون العائدون من أعمالهم يظهرون أمامه... ويجب عليه أن لا يصدمهم، لأن أولئك مثل أبيه وأمه عائدون إلى بيوتهم بعد ساعات طويلة من العمل!

ـــ حبيب!

ـــ هي؟

ـــ قل لي روحي!

ـــ روحي.

ـــ روح روحي!

ـــ روح روحي، وحيدتي...

ـــ لننتظر المساء!

همس في أذنها دون أن يُسمع الطفل:

ـــ لن أستطيع الانتظار!

ضربته على فمه بظاهر يدها ضربة خفيفة:

ـــ مجنون!

ـــ قولي ما تقولين.

ـــ طيب، وماذا سيحدث؟

ـــ لا أعرف.

انزلقت اليد المجنونة من تحت الإبط المتعرق، واجتازت الصدر المنتفخ بشدة، ونزلت إلى الأسفل، فأثارت أنوثة المرأة بشكل لا يمكن احتماله، ووجدت

المرأة في ذلك ذروة لذتها.

ــ الرجل الذي لا يسأل عني ولو بسطرين طوال هذه السنين...

فهم الرجل فقطع كلامها:

ــ لا تبالي!

ــ لو كانت امرأة أخرى مكاني؟

ــ لا تبالي!

ــ قل، قل، ماذا كانت صارت؟

ــ لا أعرف!

ــ كانت صارت عاهرة!

ــ لا تبالي!

ــ سبع سنوات، سبع سنوات طوال، أليس حراماً؟ فأنا شابة، وأنا لي روح، الله لا يكتبها خطيئة إن كان يعرف دخيلتي.. لم يستطع أشد الرجال أن يخطو خطوة فوق عتبة باب بيتي طوال هذه السنين!

كانت يد الرجل تتحرك بلا صبر.

ــ ... أنت الوحيد. هل فيكَ ريش شيطان، أم ماذا...

ــ وفيكِ أيضاً!

ــ لماذا؟

ــ غلى دمي عليك منذ رأيتك!

ــ لماذا لم تأت ليلة البارحة؟

ــ خفت.

ــ ممن؟

ــ منكِ!

ــ لماذا؟

ــ من أن تصرخي.

ــ مجنون.

ــ لماذا أنا مجنون؟

ـ أن أصرخ...

ـ ثم إنك أسديت لي جميلاً، ضمدت جرحي، وهيأت لي فراشاً...

ـ أنا جاهزة دوماً لتضميد جرح رجل مثلك، ولتهيئة فراش له. ألا يُضمد جرح رجل مثلك؟

ـ وما أدراني أنا؟

ـ ... ...؟

ـ ... ...

لم يعد الطفل يسمع. فقد جلبت عتمة السقيفة نعاسه، فتثاقلت مقلتاه. وفيما كان يفتح جفنيه بصعوبة، ترك ذلك وما عاد يغالب نفسه، فأغمض الجفنان وما عادا يُفتحان. وخلف الجفنين المطبقين بدأ حلم المدينة الكبيرة البعيدة جداً: زقاق ضيق، دراجة حمراء بثلاث عجلات تحته، ونساء ورجال عائدون من أعمالهم متعبين متعرقين محمَّلين بالخبز تحت إبط كل منهم. في هذه الأثناء قال أبوه:

ـ الطفل غفا!

نهضت بفرح من تخلَّصت من عائق كبير جداً يعيق رغباتها المتأججة:

ـ حقاً؟

ـ انظري!

ـ فلآخذه ولأمدده في الأسفل!

ـ انزلي، وأنا أعطيك إياه من فوق...

ـ حسناً طبعاً.

نزلت المرأة عدة درجات، وحمل الرجل الطفل برفق وناولها إياه. وخلف العينين المغمضتين كانت هناك دراجة حمراء بثلاث عجلات، ونساء ورجال عائدون من أعمالهم متعبين متعرقين، والزمور المنبه يُدَوِّي. اهتز حلم الطفل قليلاً عندما أخذته المرأة من يد الرجل، لكنه عاد واستوى عندما مددته على الأريكة.

كان الجو حاراً، فما فكَّرت في أن تغطيه بشيء.

نسيت الطفل وسواه، ونظرت فوراً إلى الأعلى. كيف ستصعد إليه؟ إنه شيء فوق الوصف، إنها سعادة كبرى رائعة لا يمكن تحملها، ولا الوصول إليها. لقد قضت الليالي وهي تفكر بمثل هذه السعادة. حتى لو جاء زوجها في

أحد الأيام لم تكن لتسعد هكذا.

صعدت درجات السلَّم على خفقات قلبها.

كان الرجل قد خلع قميصه، وراح جسمه الضخم المتعرق يلمع. وقد انزاح الضماد عن كتفه الأيسر، بل وانفك في بعض الأمكنة، لكن الرجل لم يكن منتبهاً ولا مبالياً بذلك.

ــ ها قد جئتُ!

ــ أهلاً بكِ...

ــ أهلاً بكَ.

ــ ألا تتفضلين هكذا؟

ــ هل تسخر مني؟

ــ ألا يكرم الأكابر بعضهم بعضاً هكذا؟

ــ انظر إلي!

ــ نظرت.

ــ ستعقد علي النكاح، أليس كذلك؟

ــ أما زلت تشكِّين حتى الآن؟

ــ لو كان زوجاً، ولو لم ينس سبع سنوات، أليس كذلك؟ لم يكن لدى الرجل وقت للتفوه بكلمة.

* *

VIII

كان الوقت ليلاً عندما استيقظا.

استيقظت المرأة أولاً، ولم تشاهد نوم الرجل في الظلام. لم تشاهده، ولكن لماذا، لماذا.. "ـ ليس هناك لماذا. حسناً فعلت، ماذا؟ هل كنت سأنتظر عودة الزوج حتى نهاية عمري؟"

نهضت تريد إشعال المصباح.

كان الرجل مستيقظاً أيضاً:

ـ إلى أين؟

ـ لقد استغرقنا في النوم. الطفل تحت، بمفرده!

نزلت درجات السلم على عجل. كان المكان شديد الظلمة، وبمساعدة يدها عثرت على علبة الثقاب فأشعلت عوداً أشعلت به مصباح الكاز لا مصباح الصيد. ورأت حسين النائم على الأريكة، وبابور الكاز الذي نفد كازه فانطفأ من تلقائه. أسرعت كمتأخرة ورفعت الغطاء: الباميا ملتصقة في قعر القدر، وقد جفت مرقتها، أما اللحمة فصارت قطعاً من الفحم. قالت:

ـ أواه.

كان الرجل في الأعلى عند فتحة السقيفة. وعلى ضوء مصباح الكاز المنبعث من الأسفل أضيء وجهه فبدا وسيماً جداً. نظرت المرأة ورأته فقالت:

ـ التصقت بامياؤك بالكامل بقعر القِدر.

ـ لا تبالي.

ــ حرام، كل هذا المصروف والتعب...

ــ غداً نطبخ غيرها، لا تهتمي. ماذا ستفعلين الآن؟

ــ سوف أسخِّن ماءً.

ــ وبعد ذلك؟

ــ نغتسل ونمد الفراش وننام.

ــ والولد؟

ــ ينام على الأريكة من الآن فصاعداً!

بدت المرأة أكثر حيوية ونشاطاً من أي وقت مضى، وبدت مقبلة على العمل برغبة أكثر.

ملأت بابور الكاز الذي نفد كازه، كازاً من جديد، وأشعلته ووضعت فوقه صفيحة ملأى حتى أكثر من نصفها ماء.

نزل الرجل بهدوء، وفي يده علبة السجائر يشمها.

سألته المرأة:

ــ ما هذا؟

ــ سجائر. آه لو أستطيع تدخين سيجارة...

تلفتت المرأة حولها، ثم وبدون أي سبب رتَّبت وأحكمت إغلاق ستارة النافذة البيضاء. فعلاً لم يكن هناك أي سبب لذلك فستارة النافذة كانت محكمة الإغلاق تماماً.

نظرت إلى الرجل:

ــ سأقول لك دخِّن، ولكن لا أعرف هل يحدث شيء عكسي؟ تقدم الرجل والتصق بالأريكة:

ــ وأنا أخشى ذلك.

إذا رأى أحدهم دخان السيجارة من الخارج، سوف يتساءل من الذي يدخن سيجارة في بيت هاجر. والجميع يعلمون أني لا أدخن.

تلفتت المرأة حولها ثانية:

ــ لا أعرف ماذا نفعل.

قسم الرجل السيجارة التي أخرجها من العلبة إلى نصفين:

ـــ لو دخَّنت هذه القطعة لكفتني حتى الصباح...

نظرت المرأة إلى الرجل بإشفاق، فهي تعرف من زوجها عديم الوفاء، كم تتوق نفسه الآن إلى التدخين، وكم هو مستعد الآن لأن يدفع كل ما يملـــك مـــن أجل سحب نَفَسَين من سيجارة.

ماذا سيحدث لو دخَّن؟

نظرت إلى الرجل بانفعال:

ـــ دخِّن يا!

فرح الرجل:

ـــ حقاً؟ تعيشي يا!

ـــ عش أنت أيضاً! دخِّن! أو انتظر، خطر ببالي شـــيء، نحـــن نســـتعمل المكان الذي تحت غرفتنا كحمَّام. لننزل إلى هناك إذا أردت، هه؟

ألا يخرج الدخان إلى الخارج؟

ـــ لا أعتقد.

ـــ نعم نعم.

وبلمحة أشعلت مصباح الصيد، وتقدمته. فعلاً كان المكان هنا مثل حمَّـــام. إذ توجد خشبة عريضة على الأرض، وفوقها مقعـــد خشـــبي صـــغير، وأرض ترابية رطبة مبيضَّة بمياه الصابون.

رفعت المرأة زجاج مصباح الصيد، وقالت:

ـــ أشعل!

أشعل الرجل سيجارة من لهب مصباح الصيد الأصفر، وتلاحقت ســـحب الدخان الكثيفة، وكان كل نَفَس من الدخان يسحبه كأنه يعيد إليه شيئاً من روحه، ويعيده إلى وعيه.

أما المرأة فكانت تراقب بنشوة تدخين الرجل، أو بالأحرى الذكر، للسيجارة بنشوة. لابد أنه جائع:

سألته:

ـــ هل أنت جائع؟

نظر إلى المرأة وضحك:

ــ أترين هذه السيجارة، إنها تنسي الإنسان الخبز والطعام!

ــ أيمكن ذلك؟ ما الذي يمكنه أن يحل محل الخبز والطعام؟

جلست القرفصاء هناك.

أما الرجل فكان واقفاً. وقد كبَّر ضوء مصباح الصيد الأصفر، ظلَّ الرجل على الجدار.

كانا صامتين.

لم يعد في داخلها الآن أي أثر لذلك الجوع للرجل المتراكم منذ سنين. ولكن هناك خوف. خوف من الله، خوف من المداهمة، خوف من إلقاء القبض عليها والفضيحة، والخوف الكبير كان الخوف من إلقاء القبض على حبيب وأخذه، وعدم عودته ثانية أبداً.

وكان هناك خوف آخر، خوف من ظهور وعودة زوجها بعد سبع سنوات!

لم تكن مقتنعة تماماً بإمكانية ظهور وعودة زوجها، ولكن الشيطان، من يعرف، قد يظهر فجأة، ويرى الغريب، ويسأل عنه، وعندما يعرف القصة لا ينسحب، وقد يقتله.

سألت الرجل فجأة:

ــ أين مسدسك.؟

ارتاب الرجل:

ــ ماذا ستفعلين؟

أجفلت المرأة:

ــ لاشيء.

ــ لماذا سألت؟

ــ أليس من الأفضل أن يكون معك دوماً؟

ازداد ارتياب الرجل:

ــ لا، ما الذي دعاك إلى أن تسألي هكذا فجأة؟

أدركت المرأة أنه لا مناص:

ـــ لاشيء يا روحي، أتدري ماذا خطر ببالي؟

ـــ ماذا خطر ببالك؟

ـــ وساوس شيطان... مكسور الرقبة الذي لم يسأل عني ولـــو بســـطرين خلال سبع سنوات، ماذا لو ظهر وجاء الآن....

انفرجت أسارير الرجل:

ـــ تلك المسألة.

ـــ لا يأتي، ذاك اختلط بالذين يذهبون بلا عودة، يقصف عمره، حتى لـــو جاء بعد الآن هواء... لكنه خطر ببالي هكذا....

ـــ أنت على حق.

قفز من الغرفة السفلية غير مبال بجرح كتفه، وأثناء مروره بالغرفة التـــي أضاءها مصباح الكاز جيداً، ألقى نظرة على حسين، كان نائماً، صعد درجـــات السلم بسرعة، ودخل حتى خصره في فتحة السقيفة، وبحث بيده عـــن مسدســـه وعثر عليه فتناوله ونزل إلى الأسفل. وقبل أن ينزل إلى الغرفة السفلية أَخْفَـــتَ ضوء مصباح الكاز قليلاً.

كانت المرأة تنتظر:

ـــ هل جلبته؟..

ـــ جلبته.

ـــ حسناً فعلت.

ـــ..................؟

ـــ أتدري ماذا يخطر ببالي؟

ـــ ماذا يخطر؟

ـــ أننا أثناء دخولنا المدينة البعيدة التي سنذهب إليها.....

ـــ أثناء دخولنا؟...

ـــ يجب أن ترمي المسدس في الخندق...

دهش الرجل وقال:

ـــ مجنونة!...

ـــ لماذا؟...

ـــ مسدس الرجل يعني دمه وروحه وشرفه يا. وهل يرمي رجل شـــريف زوجته ويلقي بها؟..

أعجبت المرأة بكلامه، وتذكرت زوجها الذي رماهـــا وألقـــى بهـــا ســـبع سنوات. فقالت:

ـــ صحيح.

ـــ ثم.... افرضي أني ألقيت بالمسدس، عثروا عليه، ألـــن يبحثـــوا عـــن صاحبه؟...

ـــ وما يدريهم بأنه أنت؟...

ـــ هل تعرفين الحكومة؟.. إنها تعثر على الشخص من رائحته!..

ـــ ....؟...

ـــ وأحياناً تكونين واقفة أمامها مثل عمود ولا تراكِ، وتلك مسألة أخرى...

سألته أيضاً على حين غرة:

ـــ ماذا يفعلونه بك إذا ألقوا القبض عليك..

ودون تفكير أجابها:

ـــ يعدمونني!

ـــ جريمتك كبيرة لهذه الدرجة إذن؟...

ـــ كبيرة.

ـــ قتلت سيد مزرعة.... ماذا كان اسمه؟

ـــ مظفر.

ـــ لماذا قتلته؟..

ـــ استحق القتل، ولذلك...

ـــ ألم تعرف الحكومة بأنك أنت الذي قتلته؟..

ـــ لم تعرف حينها، لأن القرويين كلهم كانوا معي، كانوا يشـــتكون منـــه، ظالم، شؤم، مغرور، ملعون، استحق الموت أ لف مرة لا مرة واحدة....

ـــ لماذا؟

ـــ شرحه يطول، بداية كان فاسقاً عدواً للناموس والشرف ثم هو طاغية جبار. لدينا هناك منذ سنين وسنين أراض بور لا صاحب لها. تارة يحرثها الآغا، وتارة يحرثها الفلاحون، من يحرثها ويبذرها أولاً يكون المحصول من حقه، أما هذا فقد استولى على الأراضي وزرعها عشر سنوات متتالية، وفي السنة العاشرة، راجع المحكمة لتسجيلها باسمه. وانتشرت وكثرت الاحتجاجات والتهديدات، بحيث لو لم أقتله أنا، لقام غيري بهذا العمل!

ـــ صحيح..

ـــ ثم إنه كما قلت لك عدو للناموس. فكري، إنه خال، وابن أخته أحب فتاة تعمل في معمل في المدينة. يشتري الفتاة ويحضرها إلى المزرعة، ماهو القصد؟.. سوف يزوج ابن أخته، ويجعله صاحب بيت وأسرة أليس كذلك؟...

ـــ طبعاً كذلك فالخال أب.

ـــ كلنا نعرف هذا. لكنه عشق الفتاة، وأخذها من ابن أخته، وتزوجها. وفوق ذلك ضرب ابن أخته، وكسر رأسه، وطرده من المزرعة، وأهانه وحقره في البلد!...

ـــ أواه يا ذا الحليب الفاسد أواه!..

ـــ الأشد من ذلك: إنه رجل عديم الدم ما أن يرى امرأة حتى يهجم عليها مثل حصان شبق، ولا يراعي أنها عاملة أو مسكينة، وكم من الشُّبَّان أخذ زوجاتهم من أيديهم!...

استاءت المرأة من ذلك:

ـــ مثل دوران الأعرج...

ـــ ماذا يساوي دوران الأعرج بجانبه؟ ابن حرام لا يشبع من المرأة. للرجولة شرفها. لا يجوز الاعتداء على كل امرأة تراها. أما أن تحبك المرأة، وأن تحبها أنت....ها؟...

فهمت المرأة، وضحكت:

ـــ عند ذلك؟

ـــ تسير الأمور على ما يرام.

أمسكت يد الرجل وقبّلتها بشهوة، ثم سألته دفعة واحدة:

ـــ هل كانت الفتاة جميلة؟..

لم يفهم حبيب:

ـــ أي فتاة؟

ـــ التي أخذها من يد ابن أخته...

ـــ الفتاة البوشناقية؟..

تذكَّر مطاردته لها لكي يخنقها.

ـــ وهل تكفي كلمة جميلة؟

ـــ من أين تعرفها؟..

لم يقل "كدت أخنقها" لم يرَ مبرراً لذلك.

ـــ أيمكن أن لا أعرفها؟ المزرعة تدعى الآن "مزرعة السيدة". أما سابقاً فكان القرويون يدعونها فيما بينهم "مزرعة عديم الدم"، رأيت الفتاة في تلك الفترة، لكنها كانت فائقة الجمال!...

صمت. كان يعيش تلك الذكرى. لحظة كسر باب غرفتها ودخل عليها، كانت المرأة الشابة مثل سمكة داخل ثوب نومها الأبيض. تدلَّت من النافذة وألقت بنفسها على الأراضي النديَّة، وراحت تركض بقدمين عاريتين، وثوب نومها الشفاف القصير ويتطاير، وفي الخلف بيوت المزرعة تحترق بنيران حمراء، برتقالية.... دخل الغرفة دون أن يضيع لحظة، وقفز من النافذة التي تدلَّت منها المرأة قبل قليل، وجرى خلفها. لم تكن تستطيع الجري، قدماها العاريتان تغطسان في التراب الندي، وتنزلق إحداها وتلتوي أحياناً.

ـــ في النهاية ألقى الجميع المسؤولية عليك!

سألها الرجل أيضاً بارتياب:

ـــ من قال ذلك؟

ـــ الرقيب.

انزعج الرجل لسماعه كلمة "الرقيب". وفكَّر لماذا لا يمكن أن تكون هناك علاقة من نوع مابين هذه المرأة وبين الرقيب. طالما أنها استندت إليه في مواجهة دوران الأعرج، فلابد أن علاقتها بالرقيب...

ـــ إذن كانت المرأة جميلة جداً؟...

ـــ سمع لكنه لم يفهم...

أحسَّت المرأة بانزعاج الرجل. أمسكت بيده، ونهضت ووقفت على قدميها وسألته:

ـــ لماذا شردت؟

ـــ هل شردت؟..

ـــ نعم شردت.

ـــ من يدري؟..

ـــ من سيدري، أنت!..

سحب الرجل يده من يد المرأة:

ـــ هاجر أنت تعجبينني جداً، ولكن..

طار صواب المرأة:

ـــ ولكن؟

ـــ إذاً في يوم من الأيام، كيف أقول....

ـــ ....؟

ـــ لساني لا يطاوعني، نعم لا يطاوعني، إذا رأيت فجورك...

ـــ إذا رأيت؟

ـــ اعلمي أنك انتهيت!

التفت المرأة بعنق الرجل. قبَّلته وقبَّلته، ثم أسندت رأسها إلى صدره وهي تبكي، كان الرجل يذوب تحت وطأة رغبة طاغية، وأحس بالندم، لماذا كسر قلبها مرة أخرى؟

رفعت المرأة رأسها بحدَّة عن صدر الرجل وقالت:

ـــ إذا رأيت أو سمعت بفجوري، اقتلني يا حبيب. دمي حلال لك!..

فأجابها الرجل بدم بارد:

ـــ لا تذكري سيرة الرقيب مرة أخرى أمامي!

فهمت المرأة كل شيء فقالت:

ـــ حسناً، حسناً، لكنك تتضايق منه بلا سبب!

ـــ بسبب أو بدون سبب.

ـــ حسناً، لماذا تتضايق منه؟

ـــ كيف لا أتضايق؟ لقد عشت هذا العمر، ورأيت ما رأيت إلى أن قابلتك. لقد لجأتِ إليه ليحميك من دوران الأعرج، وهو رجل. وهل استطعت أنا أن أصمد أمام امرأة جميلة؟أنا هارب، معرَّض للقتل في كل لحظة، وإذا لم أُقتل يُلقى القبض عليَّ وأجرُّ إلى حبل المشنقة. والرقيب إنسان، والرقيب رجل، وهو يحمل نفساً مثل غيره... ثم هناك هارب في الموضوع... البرقية تلو البرقية، والهاتف تلو الهاتف، الأمر سري. فكم أنتما صديقان بحيث لا يتحرَّج من الحديث أمامك!

أصيبت المرأة بالغثيان للحظة، البكاء، والإنكار، واليمين، وأغلظ الإيمان لا تجدي، لا يحيد عن شكه، كيف وبماذا تقنع هذا الرجل؟ سحبت يدها بقسوة من يد الرجل، وقالت له:

ـــ انظر إلي!

نظر الرجل:

ـــ نظرت.

ـــ انقلع من هنا وغادر فوراً!

صار وحشاً:

ـــ أتطردينني؟

ـــ نعم أطردك.

ـــ هكذا؟..

ـــ نعم.

تداعى الرجل، وتهدَّلت أطرافه، وقد فهم ردَّ فعل المرأة. فأي امرأة كائنة من كانت لا يمكنها أن تحتمل هذا الاتهام. فعلاً فقد تشبث بمسألة الرقيب، وراح ينهش المرأة بشك قذر.

استدار بهدوء وصعد من الغرفة السفلية إلى الأعلى، ومسدسه في يده،

وفيما هو يمشي صوب باب الغرفة، هرعت المرأة والتفت به من الخلف:

ــ اقتلني واذهب.

لم يكن يريد الذهاب إنما كان يتظاهر، ويختبر المرأة، لكنه وجد لـذة في الاستمرار بالتظاهر.

التفت إليها:

ــ ألم تطرديني؟

ــ لم أطردك، كلا، لن تذهب!

ــ لكن أنا...

أسندت ظهرها إلى باب الغرفة المغلق:

ــ لا تستطيع الذهاب قبل أن تقتلني!

ابتسم الرجل، فتابعت:

ــ مادمت لا تستطيع التضحية بي، فلماذا لا تصدقني؟ لماذا لا تريد أن تفهمني؟ بماذا أسأت إليك؟ لو كانت لي علاقة بالرقيب فما حاجتي إليك؟.. أيمكن للقلب أن يهوى اثنين، لماذا تنهشني؟

اقتنع، اقتنع تماماً، فهم المرأة، أخذها بين ذراعيه، وقبَّل طرف أذنها. ثم....

قالت المرأة وقد فهمت الأمر:

ــ انتبه ها!

استاء الرجل وقال:

ــ لماذا، ماذا هناك؟

ــ هنا لا يمكن!

ــ لماذا لا يمكن؟

ــ لا يمكن هكذا، قد يستيقظ الطفل. فلنصعد إلى الأعلى كما في النهار...

أما يدا الرجل فكانتا ترتجفان وتعبثان بلا توقف في أكثر أنحاء جسم المرأة إثارة، فتهيِّجان المرأة، وتمسحان السقيفة من رأسها. رضخت، فلا فائدة. شيء واحد لم يُمسح من رأسها :

ـــ إذن فقد كانت المرأة جميلة جداً.

وللإجابة فقط قال الرجل بصوت متهدج:

ـــ جداً.

ورغم أنها كانت منهزمة تماماً قالت:

ـــ مصيبة!

ـــ لماذا؟

ـــ هي جميلة جداً.

فهم الرجل في النهاية فقال:

ـــ يا روحي، لم تكن جميلة بالنسبة لي، بالنسبة لي أنـــت الجميلـــة، أنـــت أجمل منها بكثير!

لم يعد في ذهن المرأة، لا السقيفة، ولا الغرفة التي ينام فيها حســين، ولا مداهمة الدرك، كانت هناك خلف عينيها المغمضتين لذة مجنحـــة تتطـــاير فـــي عروقها. ثم وكأنها في أرجوحة أحست بنشوة فـــي داخلهـــا، ومُســـحت الـــدنيا بأكملها.

في هذه اللحظة تقلَّب حسين من جنب إلى جنب. ألم تمسح الدنيا؟ إذن لـــم يسمعا قرقعة الأريكة.

استيقظ حسين تواً، واستوى على الأريكة وقد أحسَّ بأشياء. شاهد أباه وأمه خلف الباب، ماذا يجري؟.. حذار، هل يحاول أبوه خنق أمه؟..

نزل من الأريكة بحذر. وتقدَّمت قدماه العاريتان بهدوء، تقدَّم، لكنـــه رأى مالم يره حتى اليوم. فعلاً حذار من أن يخنق أبوه أمه. أبوه. أبوه الرائع...

راقب يوماً مع زينلْ في طرف البلدة الراعي مع زينب المجنونة، ثم جمعا حجارة وطاردا زينب المجنونة. حينها كان الوضع هكذا. أَيُعقَلْ أن تصير أمـــه مثل زينب المجنونة؟ وإن صارت فسيعمد أطفال البلدة إلى الجري وراءها فـــي الأزقة والأسواق وإلى رميها بالحجارة تماماً مثل زينب!

أجهش بالبكاء

انتبها، ولملما نفسيهما.

هرعت إليه المرأة:

ـــ ولدي!

أما الرجل فقد أمسك المسدس بيد، وراح يزر أزرار بنطاله بيده الأخرى.

سألت المرأة الطفل وهي تداعبه بيدها:

ـــ متى استيقظت؟

ـــ قبل قليل.

سأله الرجل:

ـــ هل راقبتنا؟

كان الطفل يبكي، ولا يريد أن يلتفت إلى أبيه، الذي يريد أن يجعل أمه مثل زينب المجنونة، ويرد على سؤاله.

احتضنت المرأة طفلها، وأخذته ومددته على الأريكة، وسألته:

ـــ هل استيقظت منذ فترة طويلة؟...

ـــ ....؟

ـــ هل راقبتنا؟..

ـــ ....؟..

ـــ لم تراقبنا أليس كذلك؟ لماذا تبكي؟ هل خفت؟

اقترب الرجل منهما منزعجاً:

ـــ مابه؟ لماذا يبكي؟...

لم يكن الطفل ينظر في وجه الرجل، بينما انتبهت المرأة فجأة إلى الماء الذي بدأ يغلي فوق بابور الكاز، فأسرعت إليه.

تقدَّم الرجل واحتل المكان الذي خلا بذهاب المرأة، والتصق بالطفل. هو أيضاً كان قد شاهد وهو طفل أباه وأمه في إحدى الليالي، لذلك فهم سبب تضايق الطفل، وسبب بكائه وعدم رده على الأسئلة. سحب الطفل بقليل من الصعوبة، وضمه إلى حضنه، وراح يداعب شعره.

ـــ لا تبكِ، إن بكيت فلن أشتري لك دراجة بثلاث عجلات.

مسحت كلمة "دراجة بثلاث عجلات" كل شيء من ذهن الطفل ورمته

جانباً. فنظر إلى أبيه بعينين دامعتين أولاً، ثم ضحك مثل شمس تطلع من بين السحب الماطرة، وبمرور ذراعه فوق عينيه، لم تبق في عينيه دموع ولا شيء سوى أن أمه صارت زينب المجنونة!

جهزت المرأة ماء الاغتسال فنادت:

ــ هيا!...

ومن حضن أبيه نظر الطفل إلى أمه نظرات اشمئزاز، وكأن الذنب ذنبها وحدها. نعم ذنبها وحدها لأنه صار يرى في وجه أمه كلما نظر إليها وجه زينب القذر المليء بالعضَّات والبقع الزرقاء!

دنت منه المرأة ببطء:

ــ لماذا تنظر إلي مغاضباً يا روحي؟..

هزَّ الطفل كتفيه دون أن ينظر إليها، وتشبث بأبيه.

استحت المرأة تحت ثقل وطأة الذنب:

ــ تعال إلى أمك!

ابتعد الطفل عنها:

ــ لا آتي.

ــ لماذا؟

ــ هكذا.

ــ كيف؟

نظر إليها بازدراء نظرات جانبيه:

ــ أنت صرت زينب المجنونة!..

كانت المرأة تعرف زينب المجنونة، لكنها لم تكن تعرف أن ابنها وزينل حفيد هاشم آغا شاهداها يوماً مع الراعي. فقالت:

ــ هل حلمت حلماً؟ هل رأيت زينب المجنونة في حلمك؟

هزَّ الطفل كتفيه ثانية.

ــ تماماً. قالت المرأة. حلم حلماً، ولابد أنه رآني في الحلم مثل زينب

المجنونة.

ــ من زينب المجنونة هذه؟

ــ إنها مجنونة بلدتنا.

سأل الرجل الطفل الذي في حضنه:

ــ هل حلمت حلماً؟...

قالت المرأة:

ــ حلمت حلماً أليس كذلك يا حسين؟ طبعاً يا روحي حلم حلماً، ولــو لــم يحلم لما بكى!...

قال الرجل بارتياب:

ــ ألا يبكي؟

أجابته المرأة ببساطة:

ــ لا يبكي.

ــ غمز الرجل بعينه وهو يقول:

ــ هل تعنين أنه معتاد؟

ــ على ماذا؟

ــ على المشاهدة.

ــ لم أفهم؟

ــ أردت أن أقول هل هو معتاد على رؤيتك مع الآخرين؟

أجفلت المرأة وكأن ناراً لسعتها:

ــ الله لا يأخذ روحك! ألا تستحي من قول ذلك؟

قهقه الرجل ضاحكاً.

احتدت المرأة جداً وهي تقول:

ــ سبع سنوات، سبع سنوات طوال وضعت على الجرح ملحــاً. امــرأة مثلي.... (رفعت رأسها بحدة)، أيمكن الارتياب بأن تفعل امــرأة مثلــي هــذه الأشياء.

ندم الرجل، ولمس ذقنها ورفعه، كانت عيناهــا مغــرورقتين بالــدموع.

ضربت يد الرجل وحرَّرت ذقنها:

ــ اترك، هيا اترك.

أمسك ذقنها مجدداً:

ــ لماذا؟

قالت محتدَّة:

ــ يعني هو معتاد على رؤيتي ومشاهدتي مع الآخرين. نعم صحيح. امرأة مهجورة، تركها زوجها ورحل، تنتهز الفرصة التي تواتيها فتنام مع كل رجل تصادفه... إني أرملة منذ سنوات، وأقسم بأني لم أعرف رجلاً غيرك.

خطرت بباله فكرة "لماذا لا تكون فعلاً كذلك؟." لكنه لم يقف عندها طويلاً. أمسك برسغ المرأة:

ــ مزحنا مزحة، وأطلت الموضوع جداًا!

ــ طبعاً أطيله. وهل في هذه الأمور مزاح؟

ــ ألا يمكن؟

ــ لا يمكن طبعاً. حتى لو تركني زوجي ورحل، حتى لو كنت نصف أرملة ..... أنا أيضاً لي شرفي، اترك الشرف. إذا نامت المرأة مع كل رجل تصادفه، تصبح زينب المجنونة، ماذا تظن؟ أوَّلهم دوران الأعرج... الرجل جيبه: مليء... لو قلت نعم لأغرقني بالمال، لا سمح الله. لماذا تقيس على نومي معك؟

قال الرجل بحدته الرجولية التي تذوب فيها المرأة:

ــ كفى يا.. اقطعي!

امتنَّت المرأة فهذه الـ"كفى يا.اقطعي". التي قالها بحدَّة، أكدت لها أنه كان يمزح فعلاً.

قال الطفل:

ــ لتكن الدراجة ذات الثلاث عجلات زرقاء اللون إن أردت.

ماسمع الرجل هذا، ولا سمعته المرأة.

نهض الطفل نصف غاضب، فمددته المرأة في مكانه على الأريكة!

ـــ نم أنت، سوف أغسل ظهر أبيك بالليف والصابون!

أغمض الطفل عينيه لكي لا يرى وجه أمـــه الـــذي يشـــبه وجـــه زينـــب المجنونة.

ـــ نم يا بني أليس كذلك؟

وبعينين مغمضتين هزَّ رأسه بالإيجاب وهو ممدَّد.

المرأة في الأمام، والرجل خلفها، نزلا إلى الأسفل، خلع الرجـــل ملابســـه بسرعة، وحاول فك ضمادات جرحه، وساعدته المرأة في ذلك. وفيمـــا كانـــت تحاول فك عقدة الضماد بأسنانها، اقتربت من طرف أنـــف الرجـــل، اختلطـــت أنفاسهما الحارَّة، وتهيَّجا.

همس في أذنها:

ـــ هل غضبت مني؟

نظرت المرأة إليه بحدة ممزوجة بدلال أنثوي:

ـــ ممن؟

ـــ مني.

هزَّت كتفيها.

أحاط خصرها بذراعه، فتمنَّعت وقالت:

ـــ كن عاقلاً!

ـــ لماذا؟...

ـــ الطفل مستيقظ!

ـــ وما الذي يُدريه؟

ثارت وتمنَّعت:

ـــ أمجنون أنت؟

فكت عقدة الضماد، وكشفت الجرح، لم يكن ذا بال، نزف دماً قلـــيلاً هنـــا وهناك، وجفت الدماء.

ـــ كيف؟

ـ ماذا؟

ـ جرحي.

ـ جيد. نزف قليلاً، إذا اغتسلت الآن جيداً بالصابون لا يبقى شيء. اجلس على المقعد.

قال قبل أن يجلس:

ـ انظري إلى الطفل.

كان ذلك يناسبها أيضاً، كيفما كان هما سيغتسلان.

مشت على رؤوس أصابعها نحو السلم ذي الدرجات الثلاث المؤدي إلى الأعلى، ونظرت إلى الطفل. كان نائماً كما مدَّدته!

عادت إلى الرجل بشيء من السرور:

ـ إنه نائم كما تركته.

تناولت لوح الصابون، وبدأت تغسل رأسها.

كانت تغسل رأسها، وكانت تتحرق وتذوب، تريد أن لا يستمع الرجل إليها، وأن يتحرش بها، وأن يمسك بها من هنا ومن هناك، وأن لا يعبأ بتمنّعها وبحججها، وبالطفل، وأن يدخل فيها مثل عاصفة!

انزلقت الصابونة من يدها، وحطَّت أمام الرجل، بل بين ساقيه تماماً، وعندما مالت لتلتقطها لم يحتمل الرجل، فأمسك برسغها الناصع البياض، تظاهرت بسحب رسغها، لم يتركها الرجل، سحبت، تشبَّث بها، تمنعت، وسحبت رسغها:

ـ توقف!

ـ أخفضي ضوء المصباح، وتعالي!

ـ لا يمكن.

ـ أقول لك أخفضيه!

ـ لا يمكن، لا يمكن، أمجنون أنت؟ ما زال الطفل مستيقظاً....

ـ ....؟

ـ ....

لم يعد الرجل يحتمل، نهض عارياً، وبدون أن يبالي بممانعات المرأة

الخفيضة ذهب وأخفض ضوء مصباح الصيد الصغير، وعاد. قالت المرأة إنـــه مستيقظ، والله إن الطفل مستيقظ، بالله إن الطفل مستيقظ، طفل كبير، يعرف كل شيء، أنت ستفضحني. ما أسعرك يا.....

في هذه اللحظة جاء صوت الطفل من الأعلى:

ــ ماماااا !

بردا كلاهما، وأجابته المرأة:

ــ أمي؟

ــ إني خائف!

نفسَّ الرجل مثل بالون مثقوب، واشتد حنقه، اللعنة، اللعنة علـــى مـــن؟ لا يعرف. لا يعرف ولكن مع ذلك اللعنة. لينطمر في قعر الأرض!

وبدأت محاورة بين المرأة وابنها:

ــ ما الذي يخيفك؟

ــ ....؟

ــ هانحن هنا أنا وأبوك، إني أغسل رأسه بالصابون، وسوف ينتهي الآن، لا تنم، سوف آتي وأجهز المائدة كي نشبع بطوننا، أليس كذلك؟

شتم الرجل بصوت منخفض.

لكزته المرأة في كتفه:

ــ سوف يسمع!

ــ تقول لـــه لا تنم. حسناً إني أسألك...

ــ انظروا إلى المجنون، إن قلت لطفل لا تنم ينـــام، وإن قلـــت لـــه: نـــم لا ينام!...

ثم أردفت تخاطب الطفل:

ــ أنت لا تغفو أليس كذلك؟

ــ إني نعسان!

ــ ألست جائعاً؟

ــ لا أعرف، إني نعسان!

خطرت بباله الباميا والقدر، وبلا إرادة قفز عن الأريكة. وأسرع بقدميه الحافيتين إلى حيث قدر الباميا، رفع الغطاء:

ــ أواه.... الباميا محترقة تماماً!

وفيما كانت تتلوى بين ذراعي الرجل القويتين المتشبثتين بها. أجابت:

ــ محترقة يا ولدي. نعم، إذا نُسيت فوق النار....

ــ ماما!

ــ مابك؟

ــ هل آكل اللحم؟

ــ كل، قالتها بصوت مرتجف. كل ولكن لا تنسَ أن تمد المائدة!

ومن خلال شهوته للحم المحترق المقرمش سمع صوت أمه المرتجف لكنه لم يشعر بارتجافه، وبلمحة عثر على خرقة المائدة، فمدَّها أمام الأريكة. وبقطعة من الخبز انقض على اللحم المحترق. كان اللحم محترقاً لكنه يقرمش بين أسنانه، وكان يحب جداً اللحم هكذا، وعندما يذهبون إلى المدينة البعيدة، البعيدة جداً، حيث ستصبح لديه دراجة بثلاث عجلات، سوف يجعل أباه يشتري له اللحم، وسوف يطلب طبخه هكذا وسوف يأكله ويقرمشه هكذا. عندما يأكل الطفل لحماً كثيراً يكبر بسرعة، وعندما يكبر بسرعة يصبح رجلاً كاملاً، وعندما يصبح رجلاً كاملاً لا يخاف من أحد، وعندما لا يخاف من أحد يستطيع أن يضرب من يشاء، وعندما يضرب من يشاء يصبح لديه مال كثير، وعندما يصبح لديه مال كثير....

استمر شريط الخيالات هذا إلى أن صعد أبوه وأمه بشعريهما المبللين. وكانا يبدوان متعبين جداً.

استلقى الرجل على الأريكة:

ــ أوه!

نظرت إليه المرأة بحدة وقد طار صوابها. أما الرجل فلم يرها.

أشبع الطفل بطنه تماماً:

ــ ماما!

ردَّت المرأة المتعبة:

ـــ هيه؟

ـــ لا تغسليني، ألا يمكن؟

لم يكن في نيتها غسله، مع ذلك قالت لكي لا يشك:

ـــ لا يمكن، كيف يمكن عدم غسلك يا روحي؟ إنك متسخ!

ـــ لا لست كذلك!

ما أسوأ هذا، هل هذه المرأة أمه، أم أنها زينب المجنونة؟

ـــ منذ كم يوماً اغتسلت، ليس البارحة، قبل البارحة...

سكتت المرأة ولم تجب.

أما الطفل فأردف:

ـــ لن تغسليني أليس كذلك؟ ها ماما؟ ألن تغسليني؟

ـــ مادمت لا ترغب بذلك، فامسح يديك وفمك ونم!

غلب النعاس الطفل تماماً، فمسح يديه وفمه، وتكوَّم على الأريكة.

أحضرت المرأة خرقة المائدة، ومدَّتها من جديد، ووضعت فوقها الخبز والماء والكاسات والشوكات والملاعق...

تربَّعا متقابلين حول المائدة، فقال الرجل:

ـــ أحبُ الباميا كثيراً.

لمست المرأة شعرها المبلل بيدها وقالت:

ـــ وأنا كم تحبني؟

ـــ لا أحبك أبداً.

ـــ أنا، لا تحبني؟

ـــ طبعاً أنت.

ـــ أنا؟

ـــ نعم أنت.

ـــ وأنا أزعل!

ـــ ازعلي.

نظرت إليه بقسوة نظرات جادة:

ـــ أزعل؟

قال الرجل متقصداً العناد:

ـــ إن زعلت فازعلي.

انزعجت المرأة، وانسحبت من المائدة.

فمال الرجل عليها وأمسك برسغها:

ـــ مجنونة!

ـــ لماذا؟

ـــ ألا تعرفين إن كنت أحبك أو لا أحبك؟

ـــ المعرفة وحدها لا تكفي!

ـــ ماذا إذن؟

ـــ قل أحبك، قل أحبك كثيراً، قل لم أحب حتى الآن امرأة كما أحببتكِ!

ـــ لا أستطيع قول ذلك.

ـــ لماذا؟ لو كنت تحبني لقلت، الرجل المحب يصبح بلبلاً. أنت لا تحبني، أنت فقط تشبع رغبتك بي....

ـــ وأنت هل تحبينني؟

هزّت كتفيها:

ـــ لا أعرف.

ـــ أرأيت؟ ألا يجب أن تكوني أنت أيضاً مثل البلبل؟

نظر بطرف عينه إلى الطفل الممدد على الأريكة:

ـــ لقد غفا!

أجفلت المرأة:

ـــ ماذا يعني؟

ـــ لا شيء، يعني...

ـــ لقد اغتسلنا للتو، كل، هيا كل!

ـــ إني آكل، ولكن...

ـــ ولكن؟ ألأنها محترقة؟ ليتك انتبهت وما حرقتها، وهل الذنب ذنبي؟

ـــ دعينا من الذنب الآن، إني أشتهي أن آكلك!

نظرت بطرف عينها إلى يدي الرجل، وفكرت كم من النساء أمسكت بهن هاتان اليدان القويتان و هصرتاهن وطقطقتا عظامهن كما هصـــرتاها وطقطقتـــا عظامها!

دبت في داخلها غيرة أنثوية.

لم تكن بقية النساء ذوات أهمية، ولكن زوجته؟..

سألته:

ـــ هل كانت زوجتك جميلة؟

نظر إليها:

ـــ وزوجك؟

ـــ لا تدخل زوجي!

ـــ وأنت لا تدخلي زوجتي...

ومرت فترة صمت.

كان الطفل المستلقي على الأريكة قد أدار ظهره لهما، ومثل إشارة استفهام كبيرة سحب رجليه وألصقهما ببطنه. وتخيَّل نفسه ممتطياً دراجته ذات العجلات الثلاث في زقاق صغير لا يعرفه في المدينة الكبيرة في البعيد البعيــد. هنـــاك سوف يضرب الزمور كثيراً، حيث لن يكون هناك علي ابن شـــريفة، ولا أولاد يعيرونه بين الحين والحين بعدم وجود أ ب له، ويسبون ويشتمون وهم يرمـــون بيته بالحجارة. هناك هو أيضاً سوف يكون طفـــلاً صـــاحب دراجـــة بـــثلاث عجلات، مثل أي طفل آخر صاحب دراجة بثلاث عجلات، وسرعان ما غـــط في نوم عميق.

وبعد كم من الوقت، تفقدته المرأة، ولما رأت نومه الهـــادئ عـــادت إلـــى الرجل مسرورة:

ـــ تعال، تعال إكراماً لله وانظر إلى هذا النوم الهادئ!

وبلا رغبة ذهب الرجل إليها، وأحاط خصرها بذراعه.

قالت المرأة مجفلة:

ـــ كن عاقلاً!

ـــ ماذا حدث؟

ـــ اسحب يدك!

لم يجبها، ولم ينظر إلى الطفل. غسل يديه وفمه بالمــاء والصــابون فــي طست بجانب الغرفة، وفيما كان يجفف يديه وفمه بمنديله، اتجه بهدوء وصــعد السلم. وألقى بنفسه على فراشه.

راقبت المرأة الرجل وهي بجانب طفلها، هل غضب يا ترى؟ لماذا؟ هــل لأنها قالت لــه: "اسحب يدك!"، وما الذي يغضبه في هذا ؟ ألم تعاشره معاشرة الأزواج، وليس بينهما عقد نكاح، وليس هو بزوجها رسمياً بعد؟ انزعجت.

لكنه مليء دماً وحيوية وحرارة ورغبة، نعم إنه شاب قوي. ولقد استمتعت معه، ولكن لكل شيء حد. التصقت بابنها.

دب في نفسها شعور بالانزعاج لأنها أغضبته، لو لم يستمتع لما مدَّ الرجل يده، وبما أنه استمتع... ثم ماذا سيحدث؟.. مرة، أو مرتان، أو ثــلاث مــرات، بالزائد بالناقص ما الفرق؟

نظرت إلى ابنها من جديد.

ثم، اتجهت إلى السُّلَّم، وصعدته بلمحة.

* *

IX

التأم جرح حبيب، وبنى قشرة، سقطت أثناء الحك، وبدا مكانها زهرياً.

سألته بعد أن قبَّلت الموضع الزهري مرات لا يعرف أحد عددها:

ـــ وإذا ما بادروا فعلاً إلى تفتيش البيوت؟..

لم يكن يرغب في فتح هذا الحديث، إذ كان يعرف أنه إذا ما بوشر بتفتيش البيوت، فسيأتي الدور على بيت هاجر، وعندها سوف يكتشفون وجوده، فتوضع القيود في يديه، وربما يساق بين دركيين ويرمى في سيارة جيب عسكرية ويؤخذ إلى أضنه.

وبعدها؟

بعدها المحكمة، والمحاكمة، ثم خشبة الإعدام في صبيحة أحد الأيام!

ـــ إذا ما بادروا إلى تفتيش البيوت فسوف يعثرون علي ويأخذونني.

سألته رغم أنها كانت تعرف جيداً:

ـــ إلى أين؟

ـــ إلى السجن، والمحكمة والمحاكمة، وبعدها...

أغلقت فم الرجل بيدها:

ـــ اسكت اسكت، افتح فمك على خير!

كانت تعرف أن بعدها "خشبة الإعدام" ولا تريد أن تتخيل ذلك. التفت بعنق الرجل بلهفة وهي تشهق بالبكاء. احتضن الرجل المرأة الملتفة بعنقه، وضغطها على صدره بقوة، فطقطق عظامها، امتنت المرأة بل وارتاحت لذلك. إنها تحب

هذا الرجل، تحبه كما لم تحب أي رجل آخر، حتى زوجها.

كانت المشاعر والأحاسيس نفسها تعتمل في داخل الرجل. قال في نفسه: "ـ أحبها!"، وبدلاً من فراقها في أحد الأيام، ليته ينفذ ما تحدثوا عنه مرات ومرات، فيأخذها هي وابنها، بعد منتصف إحدى الليالي، ويعبر بهما إلى الطرف الآخر من الجبل! أشبع المرأة قُبلاً. فقالت:

ـ روحي.

كانت لحية الرجل قد طالت، لكنها كانت تستمتع بحك وجهها بهذه اللحية الخشنة، وتحس بقربه منها أكثر وأكثر.

قال الرجل:

ـ إذا فقدتني يوماً...

ـ أموت.

ـ النباهة في عدم الموت، في الحياة!

ـ أعرف، ولكن يبدو لي أنني أموت!

ـ لا تدعيه يبدو كذلك، الموت سهل، الحياة صعبة، وعلى ابن آدم أن يتمسك بالصعب، وأن لا يستسلم بسهولة. لماذا قتلتُ مظفر؟ كانت الأمور بالنسبة لي طبيعية. أنا قتلته من أجل أبناء قريتي المظلومين، من أجل مصلحتهم. ولهذا السبب أيضاً حرَّضت على إحراق المزرعة!

ـ ما أحلى كلامك...

ـ لكني أدرك الآن أن الأمور لا تحل بالحرق والهدم والقتل. هذه أعمال مغايرة، مغايرة جداً، إني أدرك ذلك الآن، كان في قريتنا رجل يدعى الأسطى محسن، هو سائق جرار، لكنه كان يحسن مختلف الأعمال، إذا نظرت إليه فإن شكله لا يملأ العين لكنه يتكلم مثل كتاب، هو هكذا قال.....

ـ ماذا قال؟

ـ قال لي الضرب والقتل والحرق والهدم لا يحل أي مشكلة، فأقلع عن أفكارك هذه. لكني لم أسمع نصيحته. لقد كان الرجل على حق.

ـ ....!

ـ ....؟

تحدثا حتى وقت متأخر، وأعجبه تفهمها له، لقد كان مخها شغَّالاً ولو أنهما يضعا كتفاً لكتف من الآن فصاعداً، فيعبرا جبال كاوور، إلى أي بلـد عربـي وراءها، فيعيشا فيه سنين، ويتعلما اللغة العربية، ولو يصدر عفو بعـد ذلـك، فيعودا!

خطرت بباله زوجته التي خلفها وراءه في القرية مع ابنها الذي في المهد، وهرب. نعم أولئك كانوا موجودين خلفه لكنه الآن لا يفكر في أي منهم. فمـاذا يفيد التفكير وحده؟

تنهَّد.

سألته المرأة المسندة رأسها على صدره:

ـ ما هذا؟

ـ لا شيء.

ـ لماذا تنهدت؟

ـ هكذا..

ـ أتخفي عني؟

ماذا يمكنه أن يفعل إذا تم تفتيش البيت في لحظة غير متوقعة مطلقاً، وإذا ألقي القبض عليه؟ ولكن لابد أن يقرعوا الباب أولاً. وعندما يقرع الباب سـوف يسرع بالصعود إلى السقيفة، ويذهب إلى الطرف المطل على الزقاق الخلفـي، فيرفع الأخشاب التي كان قد قلع مساميرها وجهَّزها، ويتدلى إلى الزقاق، ويبتعد عن البلدة ببطء دون أن يلفت انتباه أحد.

لكزته المرأة:

ـ هيه؟

ـ ماذا؟

ـ أتخفي عني؟

ـ لا يا روحي.

ولكن هناك احتمال حدوث الأسوأ. وبالمئة ألف! إذ قـد يحاصـر رجـال

الدرك البيت، ويطوقونه، بل إن هذا مؤكد. وعندها؟ مـــاذا يفعـــل؟ مـــن غيـــر المعقول أن يفتح النار على رجال الدرك. لماذا يريق دم أبناء الوطن بلا ذنـــب ولا سبب؟ أن يستسلم؟ لكن هناك في النهاية حبل المشنقة. أن يتغلغل بين رجال الدرك وأهالي البلدة كمن يتوغل في غابة، وأن يطلق النار يميناً ويساراً ويفـــتح لنفسه طريقاً...؟ هراء، ماذا سيفيد سوى أن يُقتل في النهاية؟..

تضايق جداً.

تنهَّد ثانية، لكن المرأة لم تسأله هذه المرة، كانت تدرك أنه مستاء جداً.

فعلاً كان في ضيق خانق. أن يعتقل، ويعلق علـــى الحبـــل، أو أن يُقتـــل برصاص رجال الدرك أثناء هروبه. هذا كله يمكن أن لا يكون مهمـــاً، المهـــم ماذا سيحدث للمرأة التي تعلقت به إذا ما ألقي القبض عليه على حـــين غـــرة، وماذا سيحل بالطمأنينة التي أحس بها الطفل وهو يظنه أباه الحقيقي؟ وبالأحلام والخيالات التي يعيش عليها؟ الموت لن يحل هذه الأمور كلها!

إنه يفكر ويفكر بعمق منذ أن لجأ إلى هنا، وخاصة عندما كانـــت المـــرأة تخرج لإيصال الغسيل لأصحابه أو لشراء بعض الحاجيات من السوق، فلا يجد طريقة واحدة للنجاة. إنه إنسان ميت لا محالة نتيجة ما اقترفه من ذنوب. ولقـــد تلاشت فكرة عبور جبال كاوور بمفرده، واجتياز الحدود إلى بلد أجنبي، وذابت مثل ثلج تعرض لأشعة شمس، إنه لا يستطيع الذهاب، حتى لو ذهب هو يعرف أن قلبه سوف يبقى هنا. فكل الموجود موجود في هذه المرأة، لقد تعلَّـــق بهـــا، وانجذب إليها، وماعاد يستطيع تركها. وماعاد هناك ما وراء جبال كاوور، ولا عشه الذي هدم بسبب تحريضه الفلاحين على إحراق المزرعة!

هاجر أيضاً تعلَّقت به مثله تماماً، كانت تعرف كم هـــي محبوبـــة، كـــذلك أحبَّته. حتى أن الفكرة التي أخافتها منذ أيام حين خطر ببالهـــا "ـــــ وإذا عـــاد زوجي؟"... ماعادت تهمها الآن، بل إنها تجد في نفسها القدرة على أن تقول له: "ــ لا أحبك، عد من حيث أتيت، ارجع إلى مـــن عاشـــرتهم ســـبع ســـنوات، وعاشرهم ثانية".

يجب أن لا يلقى القبض على هذا الرجل، يجب أن لا يساق إلى المحاكم، والأهم من ذلك كله يجب أن لا يُعدم، وإذا حدث شيء من هذا، فلن تعيش هي أيضاً، ستذهب وتلتقي به في الحياة الآخرة!

لم يعد يهمها دوران الأعرج، أو أي أحد في البلدة. فهي تشعر الآن بقوة،

وتتمنى أن يظهر دوران أمامها كما في السابق، وأن يتعرض لها وهي تجمع الحطب من خارج البلدة.

كانت تحمل السكين ذا النصاب المعدني، الباقي لها من زوجها، وتذهب إلى الغابة وغيرها وهي تحمله. هل ستستعمل هذا السكين عندما تقتضي الضرورة يا ترى؟.. لا تظن، مع ذلك لا يمكن الجزم. ولماذا لا تستعمله؟ فهناك الآن في حياتها رجل تحمل شرفه، رجل هو الوحيد الذي أحبته بجنون خلال حياتها كلها، رجل أحبته فعلاً لأنه يستحق الحب، إنها لـــه وحده. المال والملك والنقود والدنيا في طرف، وحبيب في الطرف الآخر!

خرجت من البيت في ذلك اليوم، كعادتها في كل يوم، تحمل غسيلها المغسول والمكوي. فاجتازت أزقة البلدة المغبَّرة بسرعة. لم يخطر ببالها دوران الأعرج، بل ولا حتى ابنها حسين، كان في ذهنها حبيب، وحده حبيب!

كانت تفكر في الليل، وفي اللحظات الممتعة التي قضتها بين ذراعي الرجل القويتين في الليل، وتتحرق شوقاً لأن تنهي عملها بأسرع ما يمكن لتعود إلى البيت.

وأثناء مرورها من أمام المخفر توقفت فجأة: لمحت مجموعة من الضباط ورجال درك جدد...

طار صوابها، هل سيحاصر هؤلاء الدرك الجدد القرية، وهل سيفتشون بيوتها يا ترى؟...

دخلت في الزحام، كان فيه كثير من معارفها من أهل البلدة.

ـــ ما هؤلاء الدرك؟

همس رجل أسود ناحل من معارفها، كمن يفشي سراً:

ـــ سوف يفتشون البلدة، لقد هرب أحدهم وجاء إلى هذه الأنحاء واختبأ هنا...

فهمت هاجر كل شيء، فحثت خطاها وأسرعت لاهثة وهي تفكر بحبيب. يجب أن تسلِّم الغسيل بسرعة، وأن تخرج إلى الغابة لجمع الحطب لغسل غسيل الغد.

وفيما هي تسلِّم الغسيل أصغت إلى ما يدور من أحاديث، كانت كلها تؤكد:

تفتيش البيوت بيتاً بيتاً!

عبرت طرقات القرية بخطوات متعثرة، ودلفت إلى الغابة. ستسرع وتنهي عملها قبل دقيقة، وبعد أن تشتري ما تحتاجه من السوق، سوف تسرع إلى البيت، إلى الرجل الذي تحبه، وسوف تشرح لـــه الوضع على حقيقته، رغم أنها تدرك أنه لا يحب الخوض في هذا الموضوع، ولكن ماذا يمكنها أن تفعل، فعدم الرغبة لا يدفع الخطر المقترب!

دلفت إلى الغابة.

كانت الغابة الكبيرة تضج بزقزقات مختلف أنواع العصافير المختفية مختلطة بصرير الحشرات. والأشجار الضخمة والكثيفة المتشابكة العالية، تخفي وتحجب حتى الشمس الحارقة.

وضعت جانباً حقيبة الخضار من باذنجان وبندورة وفليفلة خضراء، اشترتها من البقالية التي تقع خلف مقهى كاوور داخل السوق، وذلك بعد أن سلمت الغسيل. وراحت كما في كل يوم تجمع الأغصان والعيدان، كانت أغصان الأشجار الجافة كثيرة، فكسرتها وجمعتها في جانب، حتى صارت كومة كبيرة، وفيما كانت تحزمها وتربطها بحبلها:

ــ هل أساعدك يا هاجر؟

التفتت بقوة، رأته، إنه دوران الأعرج.

وبحدَّة أجابته:

ــ كلا!

"ــ كلا"، ولكن هذا دوران، وهل هو من الذين ينزلون عن كتفها بسهولة؟ اقترب:

ــ لماذا؟

انتصبت هاجر:

ــ دوران اذهب وابتعد، وإلا ستسوء الأمور!

اقترب القميء أكثر ويده خلف ظهره حتى صار بجانبها. كان أقصر قليلاً من المرأة، لكن جسمه كان ضخماً.

ـــ إذن ستسوء الأمور؟

ـــ دوران!

ـــ روحي؟

ـــ طلعت روحك. بَلاكَ الله ببلاء.

كانت حذرة متيقظة، فهي تعرف أن الكلب قد يباغتها قريباً ويهجم عليها ويحاول أن يأخذها تحته، أدخلت الحبل تحت كومة الأغصان الجافة، وسحبته ورصَّت الكومة، وربطت الحبل جيداً، وفيما كانت سترفعها على ظهرها. جذب دوران الكومة، فانقلبت هاجر على ظهرها مع كومة الأغصان.

هجم عليها دوران الأعرج.

ـــ هل سأنشغل معك أيها الملحد ابن الملحد؟

ونشب بينهما عراك.

كانت هاجر كالمجنونة، تحاول الوقوف على قدميها، وهي تشتمه بحنق:

ـــ أموت ولا أسلمك نفسي.

فيجيبها دوران الأعرج المصمم:

ـــ ستسلمين!

ـــ لن أسلم!

ـــ أقول لكِ ستسلمين يا هاجر!

ـــ لن أسلِّم، لن أسلِّم، لن أسلِّم!

ـــ ... ...

ـــ ... ...

تمزقت ثياب المرأة، وتشعث شعرها، وهي تعارك بحقد وبضراوة وبكل ما تملكه من قوة. كانت تجاهد للتخلص من قبضتي الأعرج القويتين، وقد احمرَّ بياض عينيها، وملأت الخدوش رقبتها وحلقها. لن تسلِّم مهما حصل، تموت ولا تسلِّم نفسها لرجل آخر غير حبيب.

ـــ هاجر دعي العناد. انظري إننا بمفردنا، ولا أحد هنا غيرنا، كوني عاقلة، فلا أخبر أحداً، وأعطيك ما تشائين من مال!...

ـــ فلتتمزَّق الأموال فوق رأسك، كلب ابن كلب!

ـــ أنا؟ أتقولين هذا لي؟ لي أنا؟

ـــ طبعاً لك، أنت كلب، كلب ابن كلب!

ـــ ... ...؟

ـــ ... ...

احتدم العراك من جديد، وراحت صفعات ورفسات ولكمات المرأة تنهال على وجه دوران المحترق تماماً تحت أشعة الشمس، لكنه لم يكن يبالي، بل كان يستمتع بذلك. لم يكن يهمه حتى سكين أو مسدس هذه المرأة التي يتحرق ويتحسر عليها منذ سنوات، لا صفعاتها ولكماتها فحسب.

رفسته فجأة رفسة أقوى من كل مرة.

هذه الرفسة التي أصابت فك دوران الأعرج جعلته يترنح ويسقط على ظهره على الأرض، فاستلت هاجر سكينها ذا النصاب المعدني اللماع، وطعنت الرجل الذي هاجمها مثل ثور هائج، عدة طعنات عشوائية، أصابت بطنه وخاصرته. سقط دوران على أثرها على الأرض وهو يخور، فأمسكت هاجر نعليها بيدها وجرت هاربة بشعرها الأشعث وثيابها الممزقة.

وصلت البيت. كان أهل الحي جميعاً وعلى رأسهم شريفة في غاية الحيرة، دخلت هاجر التي لم تلاحظ شيئاً، من باب الحوش، وأحكمت إغلاقه ثم أوصدته بالمزلاج الخشبي، وركضت فدخلت الغرفة مسرعة، وصارت فجأة أمام حبيب وابنها.

كان حبيب جالساً وسط الغرفة يصنع لحسين عربة بعجلات من بكرات الخيطان.

هبَّ واقفاً:

ـــ ما هذا؟

قالت هاجر التي كاد يغمى عليها:

ـــ أسرع واصعد إلى الأعلى واختبئ!

ـــ ماذا هناك؟ ماذا حدث؟

ـــ تعرَّض لي دوران الأعرج الكلب في الغابة، فطعنته بالسكين، ولابد أنهم سيحضرون لإلقاء القبض عليَّ. اصعد إلى السقيفة واختبئ فوراً!

اهتزَّ حبيب للحظة كمن تلقى صفعة. وغامت عيناه، الآن اكتمل الأمر، سوف يحضرون بعد قليل ليلقوا القبض على المرأة...

ثم؟..

لم يكن هناك متسع للتفكير في ثم. إذ تجمهر الجيران وتجمعوا حول البيت، وراحوا يتحدثون عن هاجر بصخب ولغط كبيرين:

ــ ولِك، ماذا كانت حالة تلك المرأة؟

ــ والله، لم أعرف شيئاً...

ــ كانت ثيابها ممزقة، وشعرها منكوشاً.

ــ ووجهها ويداها ملأى بالخدوش والجروح...

ــ هل هاجمها ذئب في الغابة يا ترى؟

ــ أي ذئب هذا؟

ــ ذئب، يعني ذئب!

ــ ... ...

ــ ... ...

رغم أنها كانت تسمع أقاويل وظنون الجيران وعلى رأسهم شريفة، إلا أنها لم تفكر في الرد عليهم.

ناداها حبيب:

ــ اصعدي إلى فوق.

لم تر هاجر ابنها الجالس على الأريكة بجانبها، يرمق أمه بعينيه الدامعتين وما أن سمعت صوت الرجل ينادي عليها نهضت من مكانها وذهبت وصعدت السُّلَّم –تفضل؟

كان الرجل مشوشاً جداً:

–ماذا سيحدث إذا جاؤوا لأخذك؟

–لا أعرف.

–اشرحي لي ماذا حدث؟

–ظهر لي دوران الأعرج في الغابة وتعرض لي، وأنا..

–وأنت سحبت السكين وطعنته؟

–ماذا كان بإمكاني أن أفعل غير ذلك؟ هل كنت أنام تحت الرجل؟

–لم أقصد هذا.

–لم تكن هناك وسيلة أخرى، انظر إلى خدوش رقبتي وحلقي!

–اذكري هذا كله في إفادتك.

–سوف أذكره.

نزلت السُّلَّم، ثمّ حملته وأنزلته إلى الغرفة السفلية، وأغلق الرجل باب السقيفة من الأعلى. والآن ماذا عليه أن يفعل؟ بعد قليل، ربما بعد نصف ساعة سوف يحضرون ليأخذوا المرأة، وربما يأخذونها إلى المدينة، إلى السجن أخرج علبة سجائره بضيق شديد، كاد أن يشعل سيجارة، لكنه انتبه لنفسه كان بحاجة إلى سيجارة في هذه اللحظة أكثر من احتياجه لها في أي وقت مضى، ولكن لا يمكن، فالبيت محاط بالجيران ذوي الألسنة السوداء الطويلة.. اكتفى بشم علبة السجائر.

اللعنة. لماذا لم يسرعوا ويرحلوا من هنا؟ من كان سيدري؟ لو أنهم خرجوا من البيت بهدوء في إحدى الليالي، وساروا في طريق الجبل. وهناك كانوا يفكرون بأسهل ما يمكن عمله...

شمَّ علبة السجائر ثانية.

أصاخ السمع إلى الخارج: صخب الجيران قد ازداد. زحف إلى طرف السقيفة المطل على الزقاق الخلفي، ونظر من ثقب إلى الأسفل، كان الجيران رجالاً ونساءً وأطفالاً، يقلبون أطراف هذا الموضوع، محاولين الوصول إلى سبب هذه الحالة الرثة التي كانت عليها هاجر، والتي لم يشاهدوها عليها من قبل. ولم يكن أحد يعرف السبب الحقيقي حتى اللحظة.

فعلاً فإن السبب الحقيقي لم يكن يمكن معرفته، ولو لم ينتبه دوران الجريح ويلملم نفسه بعد عشرين دقيقة، ويتجه نحو المخفر، ويشرح الموضوع لرئيس المخفر، لما أمكن معرفة السبب الحقيقي.

أسرع معارفه وأصدقاؤه الذين شاهدوه متجهاً من الغابة نحو المخفر مضرجاً بالدم، وأخبروا عمه. وحين دخل هاشم آغا المخفر غاضباً وسوطه الشركسي ذو المقبض الفضي بيده، كانت إفادة دوران تؤخذ.

سأله بعنف:

ــ ما هذه الحالة ولَك؟

لم يحر دوران الأعرج جواباً، كيف يستطيع الإجابة، وهو إضافة إلى أنه لم ينجح في محاولته الاعتداء على المرأة، تلقى منها طعنات بسكين أيضاً!

قال المساعد الأول:

ــ طيش شباب. آه من الشباب!

اقترب هاشم آغا من الطاولة:

ــ قل أيها الرقيب من طعن ابن أخي؟ أخبرني من طعنه لأجعل الدنيا زنزانته، هيَّا قُل!

قال المساعد الأول هامساً كمن يفشي سراً:

ــ المسألة ليست هكذا يا آغا، اسكت فقد أفسد ابن أخيك كيس تين..

ــ ماذا حدث؟

ــ ماذا سيحدث؟ صادف هاجر في الغابة، ولكم أن تخمنوا بمفهومكم ما حدث بعد ذلك...

رفع دوران يده عن بطنه، فتدفق الدم.

غرق هاشم آغا في حيرة شديدة وهو يسأل:

ــ يعني هل طعنتك امرأة؟

خفض دوران رأسه إلى الأسفل.

ــ تفو... وتربي شاربين وتمشي بين الناس على أنك رجل أليس كذلك؟..

اتجه نحو باب المخفر وسوطه بيده، توقف، التفت، وقال:

ــ أنا ليس لي ابن أخ يُطعن بسكين امرأة ويشتكي إلى المخفر! فليعرف حاله. ولك الدنيا والعالم يسخر من الواحد يا!

خرج وغادر.

نظر دوران الأعرج مقهوراً خلف عمه المغادر، ثم نهض واقفاً:

ــ أنا لست مدعياً على أحد يا رقيبي. سأنتقم لنفسي فيما بعد إذا اقتضى الأمر. دع المحضر وسواه!

احتدَّ المساعد الأول:

ـــ هذه ليست سبورة. يوجد حق عام في الوسط. إن تنازلت أنت عن دعواك، فالحق العام لا يتنازل!

ـــ إن كان لا يتنازل، فإني ذاهب.

ـــ لا يمكن...

ـــ لماذا؟

ـــ أنت جريح، مطعون بسكين، ستؤخذ إفادتك، وسوف تتم مداواتك مداواة أوليَّة. وإلا سوف أكون مسؤولاً!

ـــ ... ...

ـــ ... ...

طبعاً، اتخذت كافة الإجراءات اللازمة، وعندما علم الضباط ورجال الدرك الذين دخلوا المخفر في تلك الأثناء بحقيقة الأمر، انفجروا بالضحك.

ـــ خصمك امرأة إذن؟

قال دوران الحانق:

ـــ امرأة ولكن، ما أدراني أنها تحمل سكيناً بنصاب معدني؟

ـــ يا روحي المرأة مرأة كيفما نظرت إليها...

ـــ امرأة ولكن، بذاك الشكل!

ـــ في أي شكل كانت، إنها امرأة كيفما نظرت إليها.

خلال نصف ساعة انتشر الخبر وصارت قصة دوران الأعرج على كل لسان، وصار سخرية في البلدة كلها، وليس في المخفر فقط.

كان جمع غفير من أهالي البلدة يسير خلف رجال الدرك الذين قدموا لإلقاء القبض على هاجر، وكان الجمع يضحك ويشيد بالمرأة:

ـــ لله در هذه المرأة!

ـــ لله درها، لله درها.

ـــ الحقيقة أنها امرأة جريئة تماماً...

ـــ قولوا إنها البطلة قره فاطمة!..

ـــ مثل هذه المرأة يقال عنها عثمانية...

ـــ ... ...

ـــ ... ...

زحف حبيب ثانية إلى طرف السقيفة وقد سمع وقع أقدام رجال الدرك والأهالي، وسمع أحاديثهم. نظر إلى الأسفل: وإذ بالجموع تحتشد أمام باب الدار.

ضربوا الباب بقبضاتهم:

ـــ سيدة هاجر!

كانت هاجر تنتظر بطبيعة الحال. نهضت عن الأريكة بعينين دامعتين مع ابنها المتمسك بأذيال ثوبها، وخرجت وفتحت باب الحوش:

ـــ نعم؟

سمعت ما قاله رئيس المخفر، ولم تفهم شيئاً، لكنها أيقنت أنها مطلوبة إلى المخفر، حيث ستؤخذ إفادتها، ثم تعتقل وترسل إلى محكمة الجرائم المشهودة في المدينة، وربما تسجن.

لم تبد أية معارضة، ولم تسأل أي سؤال. بل بادرت فأقفلت باب الغرفة أولاً، ثم سحبت باب الحوش وأقفلته بعينين دامعتين، ومشت أمام الجموع مع ابنها. لم تكن تسمع أصوات الجموع التي تتزايد خلفها. إذ كانت تفكر فقط بحبيب. ماذا سيفعل في السقيفة؟ كيف سينزل إلى تحت؟ وحتى إذا نزل بماذا سيشبع بطنه؟ صحيح أنه يوجد طحين وبرغل، وقليل من السمن في قعر الجرَّة، بل ويوجد خبز أيضاً، ولكنه رجل، كيف سيدبر أموره؟ وماذا ستكون نهايته؟

لهذا كانت تبكي!

اقترب منها المساعد الأول وقال:

ـــ يا سيدة... حدث الذي حدث، لا فائدة من البكاء. لا تقلقي لقد اعترف دوران أفندي في إفادته بأنه هو الذي تعرض لك، وسجلنا ذلك في المحضر. بل وتنازل عن دعواه، طبعاً القانون لا يتنازل... ولكن لن تُحكمي كثيراً!...

حبيب، لو لم يكن حبيبها محشوراً في السقيفة لما همَّها أن تُحكم كثيراً أو قليلاً. لم تكن نادمة على طعنها دوران، بل لقد كانت قادرة على قتله في تلك اللحظة، ولكن ماذا سيحدث لحبيب؟

كان ابنها حسين يبكي أيضاً، أما سبب بكائه فكان احتمال عدم مغادرتهم هذه البلدة، وعدم الذهاب إلى المدينة البعيدة، ويبدو أن كل شيء انتهى الآن، المدينة البعيدة، وأبوه الذي في السقيفة، ودراجته ذات الثلاث عجلات.

لم تنقطع الجموع التي خلفها عن الحديث:

ــ المرأة على حق...

ــ طبعاً على حق...

ــ بأي حق يهجم عليها مثل الوحش؟

ــ لكن، لله در هذه المرأة. إنها محافظة على دكّتها.

ــ أيْ...إذا لم تحب النفس، هل يمكن أن يكون هناك حب بالإكراه؟

ــ هل يمكن؟.. هناك عقل، وهناك منطق!

ــ ... ...

ــ ... ...

ــ ... ...

وصلوا إلى المخفر. كان دوران هناك أيضاً. منع رجال الدرك الفضوليين من الدخول، أُغلق الباب. وبوشر بالتحقيق مع هاجر.

وفيما كانت هذه الإجراءات تتخذ، كان دوران في أحد جوانب المخفر ينظر غاضباً. مع أنه كان يعرف تماماً أنه هو المذنب، إذ هجم على المرأة مثل الوحش، وحاول اغتصابها بالإكراه، من حيث أنه مذنب هو مذنب، مع ذلك فهو يشعر بحقد عجيب بكرامته الرجولية المنكسرة، ويفكر بالانتقام لنفسه بنفسه لاعن طريق الدرك والمحكمة والسجن، وهذا شيء لابد منه، وإلا فإن سيرته ستصبح على كل لسان في البلدة. كذلك شرف عمه وكأنه لا يكفي أنه جعله يساوي ليرتين، فإنه لن يستطيع رفع هذا الشرف عن الأرض التي رماه عليها.

سينتقم مهما كلفه ذلك من مال أو سواه!

هذه الأفكار وأكثر منها، بل والمخيفة منها سالت في مخه مثل السيل حتى داخل سيارة الجيب التي أقلّتهم إلى المدينة. ماكان يبالي بالطعنات ولا بكمية الدماء الكبيرة التي فقدها. لكن كلام عمه الذي وجهه إليه في المخفر سحقه، وكان غضبه يزداد ويزداد كلما فكر فيه.

رفع رأسه لوهلة، ونظر إلى هاجر التي تحتضن ابنها في حضنها بشدة، والتقت نظراتهما.

غمغم دوران الأعرج:

ـــ هذا دين سوف أرده لكِ، فلا تنسيه!

أجابته هاجر بلا ذرَّة خوف:

ـــ فليكن ولَك، هل تهددني؟

ـــ لا أعرف، هل هو تهديد، أم شيء آخر...

ـــ إن قصَّرت في فعل ما تستطيعه يداك، فليس هناك أسفل منك!

جُنَّ جنونه:

ـــ ولِك لا تجمعي الجنَّ فوق رأسي!

قالت متحفِّزة:

ـــ لتجتمع ولَك، لتجتمع وسنرى، ماذا سيحدث؟

تدخل الدرك المسلحون بينهما لتهدئة الموقف، ولكن هاجر كانت منفعلة جداً، بحيث لو زاد الرجل قليلاً، كانت ستدفع ابنها عن حضنها وتهجم عليه.

تنهَّدت بحسرة:

ـــ لماذا، آه لماذا لم تقتل هذا الديوث؟..

إذن في هذه الحالة، أو في مثل هذه الحالة من الانفعال ينقلب الإنسان إلى مجنون ويرتكب جناية؟ لذلك لم يقولوا عبثاً: "ـــ الانفعال أحلى من العسل...".

خطر ببالها حبيب.

هو أيضاً إذن قتل المزارع الكبير مظفر بيك، ثم حرَّض الفلاحين على إحراق مزرعته، بسبب انفعال أحلى من العسل؟ نعم، نعم، إنها تدرك وتدرك جيداً أن: القاتل وليس القتيل على حق!

حسناً، ولكن ماذا سيفعل الآن وهو خلف أقفال وأقفال، بين غبار وتراب سقيفة ضيقة منخفضة، جائع، عطشان وبلا سجائر؟ لم تكن تفكر بسجائره بل بعطشه، ولكن لا لم يكن بلا ماء، فهناك ماء في الطست وفي الخابية!

قال ابنها بصوت خافت خائف:

ـــ ماما..

ـــ أمي؟

ولما وقعت عينا الطفل على دوران الأعرج قال:

ـــ لاشيء.

فهمت المرأة أن هناك ما يشغل بال ابنها فقالت:

ـــ كيف لا شيء؟

ـــ ... ...؟

ـــ تكلم!

قال وعيناه على دوران الأعرج:

ـــ إني أخاف من هذا!

نظرت إليه المرأة بقسوة، التقت نظراتهما.

ـــ ما الذي يخيفك منه؟

لكن لم يكن هذا ما يريد الطفل قوله، مال بفمه على أذن أمه وهمس:

ـــ أبي!

ـــ مابه أبوك؟

ـــ وإن غادر ثانية هذه الليلة؟

ـــ إلى أين؟

ـــ إلى حيث أتى!

تنهدت.

هي أيضاً كانت تفكر بهذا. إن ذهب هذا أيضاً مثل زوجها ولم يعد ثانية؟ أو إذا ألقي القبض عليه، وأودع السجن ثم علِّق إلى حبل المشنقة...

اغرورقت عيناها. لماذا هذه الدنيا هكذا؟.. لماذا تمنع الإنسان من أن يعيش حياته كما يرغبها؟ كانوا قد خلقوا دنيا لا معة براقة لثلاثة أشخاص. حيث سيذهبون إلى مدينة كبيرة بعيدة جداً، ويعيشون حياتهم كما يرغبونها بعيداً عن الجميع!

... ...

حبيب أيضاً كان في السقيفة يفكر في الأمور نفسها تقريباً، لماذا لا يُترك

الناس يعيشون حياتهم على أهوائهم؟

شمَّ علبة السجائر التي في يده، بنهم.

هيا لنقل بأنه هو ليس لـــه حق في حياة مريحة بعد الآن؛ فقد قتل رجلاً، وحرَّض على إحراق مزرعته.. "ــ حسناً ولكن هل حصلت هذه الأمور بلا سبب.؟ إذا كنتُ قد قتلتُ مظفر، أفلم يستحق القتل ألف مرة؟ أن تسند ظهرك على مدى السنين إلى حكومة أي حزب حاكم، وكأنه لم يكفك أن تضع يدك على الأراضي البور التي لا صاحب لها والتي ربما خلفها الله للفقراء والمساكين، فتعتدي على أملاك الناس المسجلة بأسمائهم، وتؤذي أعراضهم وشرفهم، وأن تعتمد على المسدس الذي على خصرك، وعلى العربة التي تحتك، وأن تصفع الرجال أمام الحشود، وأن تضرب وتكسر وتحرق وتهدم، وأن لا تحسب حساباً لأحد... إي ي ي؟ من أنت يعني؟ هل أنت الله؟ توبة أستغفر الله. لا لست كذلك. أنت أيضاً مخلوق عبد مثلي. فأين عسلك؟

شمَّ سجائره مجدداً.

"ــ رغم أنك استحققت القتل عشرة آلاف مرة لا ألف مرَّة فقط، فإن الأسطى محسن على حق. إني أدرك ذلك. فقد قال: الأمور لا تُحلُّ بقتل رجل وبإحراق مزرعة يا حبيب، إذا حاول كل صاحب حق قتل مَنْ سلبه حقه ليحصل منه على حقه، لا يبقى في الدنيا رجل واحد!"

تنهَّد بضيق.

إنه يدرك أن الأسطى محسن على حق، فلن يقضي على هذه الأمور بقتل رجل ولا بإحراق مزرعة. لا الظلم سينقضي، ولا الإقطاعيون الظالمون سينتهون، فإن قتلت واحداً سيليه خمسة أو عشرة، وفي هذه الحالة؟

"ــ في هذه الحالة يجب أن تكون هناك وسائل أخرى لتنظيم هذه المسائل!"

شمَّ علبة سجائره مجدداً.

كيف سيتصرف الآن؟ سيقضي أياماً بلا هاجر، لن ينزل إلى الأسفل، لن يستطيع تدخين السجائر، لن يستطيع اللعب مع حسين.

ما أسوأ ذلك!

هل من الأفضل أن يشهر مسدسه ويخرج، فيقاتل ويقاتل حتى يُقتل إذا اقتضى الأمر؟ لقد صارت قريته وبيته وزوجته وابنه الذي في المهد حراماً

عليه من الآن فصاعداً، وزالت فكرة الهروب من هذه الدنيا المحرَّمة، إلى دنيا أخرى جديدة كل الجدَّة تلائم تفكيره، ليعيش فيها، ببيوتها الجديدة، وأزقتها الجديدة، وأماكن عملها الجديدة، وأناسها الجدد، ومادام الأمر كذلك، فماذا لو وضع بيده حداً لحياة جسمه المضطر للعيش في دنيا المحرَّمات والممنوعات، وليس كما يريد هو؟

تناول مسدسه من جانب فراشه، وقع خيط ضوء متسلل من ثقب في أخشاب السقيفة، على القسم المعدني من المسدس فأضاءه. لحظة جنون: بوم. وبعدها لاحب، لا حرص على الحياة، لا عذاب ضمير ولا مخاوف مختلفة.

قرَّب مسدسه من صدغه، وتوَّضعت إصبعه تلقائياً على الزناد لحظة، لحظة صغيرة جداً، وبعدها يستوي كل شيء!

لكنه تذكَّر فجأة طعم متعة الليالي التي قضاها مع هاجر، الحقيقة أن هاجر كانت امرأة حتى أزرارها. ولا يذكر أنه صادف مثيلتها في النساء خلال سنوات عمره، بما فيهن زوجته، النساء جميعهن متشابهات من ناحية، لكن هذه مختلفة، وطالما كانت تمنحه متعة مختلفة الطعم، فلابد أن تكون مختلفة عن بقية النساء!...

أعاد المسدس إلى حيث تناوله.

ثم، ماهو الموت؟ إنه الأمر الأسهل. ماذا كان يقول الأسطى محسن؟

" ـــ الموت سهل، العيش هو الصعب يا ولدي. وعلى الإنسان أن يجابه ويتغلب على ماهو صعب. الموت لـــه وقته. أما الحياة... وإلا فالموت انتحاراً لتتخلَّص من الصعاب محض أنانية. بل هي سفالة، وأدنى أشكال السفالة!"

لا بأس، ولكن إذا ألقي بهاجر في السجن ولم تعد لعدة أشهر إن لم يكن لسنوات؟ إنه لا يستطيع انتظارها هنا لأشهر ولو أراد. إذن عليه أن يعمد في إحدى الليالي إلى أن يرفع الأخشاب التي قلع مساميرها وأن يتدلى بهدوء إلى الزقاق الخلفي، وأن يسير منه نحو الجبال. أَوَ لم يكن هذا هدفه منذ البداية عندما لجأ إلى هنا؟ يجب أن يحتفظ بهاجر في نفسه كذكرى حلوة جميلة لا تنسى، وأن يجتاز إلى الطرف الآخر. فقد تسهل عليه الحياة في الطرف الآخر، وقد يستفيد من عفو يصدر بعد سنوات، فيعود إلى وطنه.

أضاء في نفسه بصيص من أمل جديد في الحياة.

وقد لا يسجنون المرأة، فقد فهم مما سمعه من أحاديث المحتشدين أمام باب الحوش أن الجرح عادي جداً، وأن الجريح سحب شكواه، وتنازل عن دعواه. وإذا كان الأمر كذلك فقد لا يحكم القاضي فعلاً بسجنها. وهكذا قد تعودهاجر وابنها خلال بضعة أيام.

نعم، نعم، يجب أن لا يهلك نفسه، وأن لا يرمي بنفسه إلى الزقاق الخلفي ويتجه إلى الجبال، فليس هناك من داع للعجلة والتسرع!

شمَّ علبة سجائره للمرة التي لا يعرف عددها.

قاضي المحكمة والمدعي العام هما إنسانان في النهاية. سوف يستمعان إلى المرأة، وسوف يدرسان القضية ويضعان يديهما على وجدانيهما ويفكران:

امرأة في هذا الوضع ماذا يمكنها أن تفعل غير أن تطعن مهاجمها؟ لو كانت زوجتي أو ابنتي أو إحدى قريباتي في مكان هذه المرأة، وتصرفت مثلها تماماً، لمن كنت أعطيت الحق؟ هل يمكنهما القول: "كلا لا يجوز ماكان يجب أن تطعنيه، كان يجب أن تنتظريه يجثم فوق صدرك ويفعل بك ما يفعل من إساءات، ثم تذهبي وتشتكي عليه"؟ لا يظن ذلك.

ثم لو لم يكن القاضي قاضياً، بل لو كان محامياً عن قريبته التي اقترفت هذا الجرم، فكيف كان سيدافع عنها؟

هزَّ رأسه.

لا بد أن يفكر المدعي العام مثل القاضي أيضاً، ولا بد أن يصل هو أيضاً إلى نتيجة مفادها أنه لم يكن أمام المرأة إلاَّ أن تطعن مهاجمها، وأن يجد في الموضوع "قوة قاهرة" وأنه "دفاع عن النفس".

ربما تُحكم بالبراءة يا!

ازداد الأمل واتسع في نفسه، وسيسحب الليل بحبل لو اضطر حتى يصل إلى الصباح، كان هناك إحساس قوي بتبرئة هاجر يزداد في داخله، وحينها، حينها سينزلون سوية إلى الطريق، ويعبرون سوية جبال كاوور، ويجتازون سوية إلى مدينة عربية بعيدة، بعيدة جداً.

تمدَّد على فراشه وتمطى بارتياح.

لا يعرف المرء طعم السعادة التي يعيشها إلا بعد أن يفقدها، آه لو كانت هاجر بجانبه في هذه اللحظة!

تذكَّر إحدى الليالي التي قضاها مع هاجر، واحترق بنار الرغبة، ثم انقلب وتمدَّد على بطنه، وراح يتلظى بنيران شهوته لأنحاء وأجزاء لا ينساها من جسم المرأة الدافئ.

أحسَّ بظمأ شديد! فانقلب على ظهره، ثم استوى وجلس في الفراش، وبعد قليل اتجه إلى فتحة السقيفة التي أغلق بابها بيده، وفتح الباب، ونظر إلى الأسفل، إلى الغرفة الخالية من هاجر ومن حسين نظرة عصفور وجل.

ردَّد بصوت مسموع:

ــ هاجر!

كان يرغب في ذكر اسمها رغم معرفته بعدم وجودها، غير موجودة، غير موجودة، سحقاً، من يدري كم هي بعيدة عنه الآن؟ كيف ستنقضي هذه الليلة والليالي القادمة بعد ذلك بدونها؟

عدم التفكير هو أفضل شيء! عليه أن ينزل إلى الأسفل وأن يشرب حتى يرتوي، وأن يأكل شيئاً إن وجد، ثم أن يصعد إلى سقيفته ويتمدد على ظهره في فراشه، ويفكر في "هاجر".

تدلى من السقيفة، ولم تكن الغرفة تحته كثيرة العمق، فأفلت يديه وقفز إلى الغرفة، وسار بقدميه الحافيتين وعثر على الماء، فملأ المشربية النحاسية وشرب منها حتى ارتوى، كان الماء متوفراً في الطست وفي الخابية، لكن الماء لا يحلُّ الأمور كلها!

فتح الخزانة أولاً، فوجد مجموعة من الكؤوس، وكاسات الشاي وفناجين القهوة، وملاعق كبيرة وصغيرة، وعدة الحلاقة التي حلق لحيته بها، أغلق الخزانة، التفت يميناً ويساراً، وقع بصره على خرقة المائدة، فتناولها وفتحها: خبز، بل هي صمنة كبيرة، يستطيع أن يسكت جوعه بها اليوم وغداً إذا اقتضى الأمر. اقتطع قطعة وضعها بين أسنانه القوية.

جاء إلى تحت السقيفة التي قفز منها إلى الغرفة قبل قليل، رفع يديه إلى الأعلى، وقفز إلى فوق، وأمسك بجانب السقيفة، ورفع نفسه إلى الأعلى، وأغلق الباب من جديد.

سينتظر يوم عودة هاجر.

**

X

الذبابة التي تقع من وجه هاشم آغا عم دوران الأعـرج، تتمـزق ألـف مزقة، هل هذا أيضاً سيحل على رأسه بعد هذا العمـر؟ أن لا تهـتم بسـمعة عمك، وأن تلاحق امرأة غسالة سعرها خمس ليرات، فلا تجد منهـا تجاوبـاً، فتلجأ إلى العناد، وتحاول أن تكرهها على التجاوب معك، فلا تستطيع، وفـوق هذا كله تأكل منها طعنة سكين وتصل إلى محكمة "الجرم المشهود"!

جاءت زوجته وابنته عنده حيث كان ممدداً على الكرسي الطويل في شرفة البيت، يفكر بسوداوية.

قالت زوجته:

ـــ يا روحي يا آغا، لقد كبَّرت هذا الموضوع جداً يا رجل!

وتدخلت ابنته قائلة:

ـــ ابن أخيك ليس أنت يا بابا! السمعة، أليس ابن عمي رجـلاً؟ إن كانـت هناك إساءة للسمعة، فهي تخصه هو، لماذا تزعج نفسك؟ ألم تكن تقول: كل شاة برجلها تناط؟

زفر هاشم آغا زفرة طويلة وقال:

ـــ لكن رجل البطة ليست كذلك يا بنيتي، طالما سيسيء إلى سـمعته ليتـه قتلها، لرأى كيف كنت أنقذته من حبل المشنقة. لكن الأمر ليس كذلك. هاشم آغا بمركزه ووزنه لا يدافع ولا يعمل لإنقاذ ابن أخيه الذي تلقَّى طعنات من سـكين امرأة، ليس فقط لا يدافع، بل ولا يستطيع مواجهة الناس من شدَّة العار!

كانت الشمس تغرب رويداً رويداً خلف الجبل المقابل.

وقطيع الثيران العائد من المرعى وهو يتناطح، يثير في الجو سحب الغبار.

صاح من الخارج صوت أجش:

ــ هاشم آغا!

جلس في كرسيه الطويل ثم نهض وذهب ونظر إلى الأسفل:

ــ من هناك؟

رئيس المخفر، والمختار، والأعضاء، وبضعة أفراد من أهالي البلدة...

قال رئيس المخفر:

ــ انزل قليلاً يا آغا:

حار في الأمر:

ــ ماذا هناك؟

ــ سنثقل عليك...

نزل. كان متلهفاً. إن كانوا سيرجونه النزول إلى المدينة والتوسط لابن أخيه، فلا إمكانية لذلك، لا ينزل، لا يمكن أن يتوسط لابن أخيه الذي أساء إلى سمعة عمه المحترم، لا يمكن أن يضحي بِظِفره من أجل ابن أخ تلقى علقة وطعنات سكين من امرأة.

لكنهم كانوا قد جاؤوا لموضوع مغاير جداً.

قال المساعد الأول:

ــ فتَّشنا بيوت البلدة كلها تقريباً خلال الأيام الماضية، وجاء الدور على بيت هاجر هذه، أنا أرى أنه ليس هناك داع لتفتيشه فقد ذهبت المرأة إلى محكمة "الجرم المشهود"، وبيتها مقفل، لكنَّ الملازم يصرُّ على تفتيشه، فكن أنت أيضاً معنا لنكسر القفل، وندخل ونفتشه حسب الأصول.

أجاب هاشم آغا الذي لم يكن بوسعه معارضة المساعد الأول:

ــ حسناً طبعاً.

والتفت إلى زوجته وابنته اللتين تنتظران بلهفة خلف الباب وقال:

ـ أنا سأعود بعد قليل!

ـ هل نجهز الطعام؟

ـ جهزوه...

وسحب الغبار التي أثارها قبل قليل قطيع الثيران التي تخور وتتناطح عائدة من المرعى، تخيم على البلدة الآن كالضباب.

كانت هذه البلدة شبه قرية كبيرة، وكان أهلها نصف قرويين لذلك كان الغبار والتراب وروث الحيوانات... أشياء اعتادوها.

انضم إليهم في الطريق الملازم ورجال الدرك الذين سيقومون بالتفتيش، وساروا جميعاً باتجاه بيت هاجر، كان رأي هاشم آغا أيضاً مثل رأي المساعد الأول والمختار: لا حاجة لتفتيش بيت هاجر، ألم يجد هذا القاتل، حارق المزرعة المحكوم عليه بالموت مكاناً آخر يختبئ فيه في هذه البلدة الكبيرة، فاختبأ في بيت هاجر؟

قال الملازم الشاب:

ـ سيدي، لا يمكن معرفة ذلك!

فأجاب المختار مصراً:

ـ الأمر واضح!

لم يكن الملازم الشاب أقل منه عناداً:

ـ كيف واضح يا مختار آغا؟

تردَّد المختار ثم قال:

ـ واضح من هذا، لماذا طعنت المرأة دوران؟ لأنه حام حول شرفها، منذ أن تركها زوجها وغادر قبل سنوات عديدة ولم نسمع عنها أي سمعة سيئة. أيعقل لمثل هذه المرأة أن تخبئ في بيتها هارباً غريباً لا تعرفه أبداً؟ حتى لو دخل البيت بالإكراه، ما الذي يمنعها من أن تخبر عنه؟

أجاب الملازم:

ـ يبدو الأمر صحيحاً للوهلة الأولى، لكنَّ للعملة وجهها الآخر.

تساءل هاشم آغا:

ـــ مثل ماذا يعني؟

ـــ شوهد في حالات كثيرة، أن يعمد الهارب، خاصة إن كانت جريمته القتل، فيشهر مسدسه، ويدخل إلى أي مكان يريده من حلاوة الروح، وبتهديد المسدس يمسك بأحد أفراد العائلة، ربما الابن أو الزوجة أو البنت أو الأب أو الجد، ويجعله رهينة لديه، وإكراماً لهذه الرهينة التي بين يدي الهارب لا يفتح أهل البيت فمهم بحرف واحد، حتى لو قابلوا رجال الشرطة أو الدرك!

ـــ... ... ...؟

ـــ... ... ...

ـــ... ... ...

وصلوا أمام بيت هاجر، وقد كبرت المجموعة بانضمام الرجال والنساء والأطفال إليها، طيلة مرورها من خلال الأزقة الضيقة، ولما انضم إلى القافلة جيران هاجر ذوي الألسنة السوداء زاد الازدحام أكثر وأكثر.

انبرت شريفة التي يدل كل شيء فيها على أنها وإن لم تكن فاجرة، فهي خفيفة لعوب، وقالت تتقصع في الكلام:

ـــ هل ستفتشون بيت هاجر؟

أجاب الملازم الشاب:

ـــ أجل!

قالت بارتياح:

ـــ فتشوا فتشوا. فُتشت بيوت البلدة كلها، فلماذا لا يُفتش بيتها؟

ابتسم الملازم:

ـــ هل قلنا ما يدل على أن بيتها لن يفتش؟

استاءت قليلاً:

ـــ لا، ولكن، يعني...

كان حبيب الذي يرى ويسمع كل هذه الأمور من مكان اختبائه في السقيفة، ممسكاً بالمسدس في يده وإصبعه على الزناد. وقلبه يخفق بشدة، لم يعد لديه شك في اقتراب نهايته، سوف تكسر أقفال الأبواب وسوف يفتش داخل البيت

بدقة، وسوف يأتي الدور على السقيفة حيث يختبئ، وهناك سوف يحشر، لم يفكر "ــ ماذا سأفعل؟". إذا كان مقتنعاً بأن الموجود في حسائه سوف يخرج في ملعقته، فقد حدثت أشياء لم تكن في الحسبان، سوف يموت وهو يقاتل إذا اقتضى الأمر!

اضطرب فجأة، وقد أحسَّ بأن المدة الفاصلة بينه وبين الموت خمس أو عشرة دقائق، مع أنه كان يريد الحياة الآن أكثر من أي وقت مضى، لم يرد العيش أبداً كما يريده الآن، ولم ينفر من الموت كما ينفر منه الآن، هذا النفور سببه أن موته الآن هكذا هنا سوف يحط من شرف امرأة دافعت عن شرفها بسكينها، وسوف يجعله يساوي قرشين، إذن فالموت أيضاً فيه الشريف وغير الشريف؟ فإن لم يستطع الفرار والهروب الآن، وإن قُتل برصاص رجال الدرك فسيكون موته هذا موتاً غير شريف، بل وسيكون موتاً سافلاً بحق المرأة، إذ ستصبح هاجر في نظر أهل البلدة "عاهرة تخبئ في سقيفة بيتها رجلاً غريباً". وليس له حق في ذلك.

زفر بضيق:

ماذا يمكنه أن يفعل؟

لمعت في ذهنه فكرة فجأة، ألا يمكنه أن يقول ويدعي " ــ المرأة لا علم لها بوجودي، دخلت واختبأت هنا دون علم منها!"؟ أو "ــ دخلت من أجل السرقة، أنا لا أعرف هذه المرأة...".

لكنه تذكر الفراش الذي قضى فيه الليالي، طالما بقي هذا الفراش مفتوحاً هنا فكيف سيفسر هذا للقادمين؟ طبعاً هكذا، إذا كان لصاً، أو إذا دخل واختبأ هنا دون علم المرأة فما هذا الفراش؟ ثم إن الفراش بكيس القنب المفتوح تحته، وبالملاءة البيضاء وبالوسادة فوقه، كان يصيح عالياً بأنه فراش مخصص للرجل.

كانوا تحت يحاولون كسر قفل باب الحوش بالفأس، أخيراً كُسرت الحلقات، وقال المختار الذي دفع الباب:

ــ تفضلوا.

زحف حبيب كالمجنون إلى حيث فراشه، فحمله بما فوقه وبما تحته... كان يريد أن يرميه من فتحة السقيفة إلى الأسفل، لكنه عدل عن ذلك، فقد يزول

شك الداخلين إلى هنا بعد قليل، من وجود شخص مختبئ في الأعلى.

عَدَلَ.

رمى الفراش وتوابعه إلى أقصى الطرف الآخر من السقيفة وأعتم نقطة فيها. فعلاً كان الظلام دامساً هنا، فحتى الضوء الخافت المتسلل من شقوق الأخشاب إلى ظلمة السقيفة، لا يمر من هنا، ولا يمكن تمييز سواد الفراش إذا لم ينظر إليه بدقة وانتباه شديدين.

دخل الملازم والمساعد الأول وهاشم آغا والمختار وأعضاء الهيئة الاختيارية، وبعض الجيران، وكانت شريفة بين الداخلين، كانت سعيدة جداً وهي تدخل بيت عدوتها، ولكن ما الفائدة؟ من الواضح جداً عدم وجود هارب مختبئ هنا، ليته كان مختبئاً، آه لو كان!

وكانت تتضايق من هذا قليلاً، فهذه الزوجة التي تركها زوجها منذ سبع سنوات ولم يسأل عنها بسطرين، لم تكن تنظر إلى أحد، ولم تكن توسخ ذيل ثوبها، مع ذلك فأزواجهن يقولون هاجر ولا يقولون شيئاً آخر!

طالما هم يذكرونها ولا يذكرون شيئاً آخر، فلتفتش إذن.

خيَّب باب الغرفة المقفل أيضاً بعد باب الحوش، آمال شريفة نهائياً. وكان الملازم قبلها قد فقد تفاؤله، إذ كيف يدخل "الهارب" إلى مكان مقفل بقفلين؟

سأل المختار:

ـــ هل نكسر هذا القفل أيضاً، هل هناك حاجة لذلك؟

كان الملازم أيضاً على قناعة بأنه لا حاجة لكسر القفل، لكنه بدأ مرَّة فليكمل، فقال:

ـــ لنكسره.

تدخل هاشم آغا:

ـــ أنا أرى أنه تعب لا طائل منه، مع ذلك أنت أدرى يا ملازمي!

كانت إرادة الملازم صلبة فقال:

ـــ ليكن.

قال المختار:

ـــ هل فعلاً تضع احتمالاً لاختباء الهارب هنا؟

ــ لماذا لا يكون؟

ــ كيف يكون؟

قال بضيق:

ــ شرحت لكم قبل أن نأتي إلى هنا، يدخل الهارب إلى البيت بقوة السلاح، ويأخذ أحد أفراد العائلة رهينة، لنفرض أنه دخل هكذا إلى هنا، وأخذ ابن المرأة رهينة...

قال المساعد الأول:

ــ لقد أرسلنا الطفل إلى المدينة برفقة أمه يا سيدي.

لم ينظر الملازم إلى المساعد الأول، واستمر بتذمر:

ــ أخذه رهينة، ثم توطدت العلاقة، ولنقل بأنه نشأت بينهما قصة حب.

تدخلت شريفة هذه المرَّة قائلة:

ــ تنشأ تنشأ، امرأة بلا زوج منذ سبع سنوات...

ــ طعنت المرأة أحدهم، وسوف تساق إلى المدينة، ويستدعي الأمر اصطحاب طفلها معها، فإن عشيقها أي الهارب يعطيها إياه. لأن أكبر رهينة لديه الآن صار قلب المرأة الذي سرقه، ولم يكن تفتيش البيوت بحثاً عن الهارب في الحسبان، والرجل الهارب لا يريد الآن أن يُكتشف ويلقى القبض عليه في بيت حبيبته لئلا يلطخ سمعتها، ألا تعرفون جميعاً بأن المرأة شريفة جداً؟

غمغمت بضعة أصوات:

ــ أشهد بالله...

ــ أبصم بأصابع يدي الاثنتين أنها هكذا.

ــ لا نستطيع القول بأننا لاحظنا عليها أي سوء...

ــ ... ...

ــ ... ...

أردف الملازم:

ــ انتهى، سوف يعتبر الهارب إلقاء القبض عليه الآن في بيت المرأة نوعاً من السفالة، لذلك سوف يتهرب من إلقاء القبض عليه حتى وإن كان لديه

مسدس، وتفيد المعلومات الواردة أن لديه مسدساً، فإنه لا يستعمل المسدس بسهولة، فالمسألة كلها تنحصر لديه الآن في عدم تلطيخ سمعة المرأة، هل هذا صحيح؟

كان الجميع مقتنعين بصحة ذلك، حتى المياه الجارية تقف أمام هذا المنطق، لكنه مع ذلك لا يتعدى أن يكون احتمالاً بنسبة واحد إلى ألف.

أعاد الملازم تلخيص الوضع باختصار مجدداً:

ـ هرب قاتل شاب قوي البنية يحمل مسدساً، قد يواجه عقوبة الإعدام عندما يلقى القبض عليه، تفيد المعلومات أنه هنا في هذا المركز هرب عبر الغابة، وهذا يعني أنه ربما اخترق البلدة وعبرها وتجاوزها، وربما ما زال موجوداً فيها، وبما أن الحدود لم يخترقها حتى الطير الطائر. انتبهوا جيداً، فالاحتمال الأقوى أنه ما زال موجوداً في البلدة، لقد فتشنا بيوت البلدة كلها، ولم نعثر عليه، بقي هذا البيت فقط أيها السادة.

غمغم المختار بحنق:

ـ طالما عالم الممكنات، طالما ممكن، لماذا لا يمكن أن يكون الهارب قد دخل إلى حوش المرأة؟ وراقب داخل البيت طويلاً، ولما علم أنها تغسل الغسيل بمفردها في ساعة متأخرة جداً من الليل، شهر مسدسه، فاستسلمت المرأة وخبأته في بيتها خوفاً، وقد شرحت ذلك مطولاً قبل قليل...

مع ذلك لم يكن أحد مقتنعاً تماماً بإمكانية وجود الهارب في الداخل في هذه اللحظة.

أحس الملازم بذلك فقال:

ـ لم يقدم أي ادعاء يفند فرضياتي، ماذا تقولون؟

هزَّ المختار رأسه قائلاً:

ـ هو كذلك.

ـ إذا كان كذلك، فاكسروا القفل يا سيدي!

كان الدركي قد نزل بالفأس بكل قوته على حلقات القفل، وكانت كل ضربة فأس تئن في الظلام الذي بدأ يخيم، وتصفر صغيراً في دماغ الرجل المختبئ في السقيفة.

أدرك لما بدأت ضربات الفأس تنزل على قفل باب الغرفة، أنه لم يعد لديه

أي أمل للخلاص، فأحس بالموت، وبالأصح بالموت السافل في داخله.

كان سيموت موتاً عديم الشرف!

ضربة أخيرة، كُسر القفل، وفتح مصراع الباب.

أفسح المختار الطريق:

ــ تفضلوا!

دخل الملازم فوراً وألقى نظرة عابرة على الغرفة الفارغة، ولعله لم يكن يريد المكوث، ولعله اقتنع وقال في نفسه: "ــ إني مخطئ" حين بادرت شريفة بالقول:

ــ لهذه الغرفة غرفة تحتها، ولها سقيفة!

التفت الملازم ونظر:

ــ فعلاً!

ــ أيمكن الاختباء؟

ــ نعم.

ــ طبعاً، طبعاً، كانوا يغتسلون في الغرفة السفلية، أما السقيفة فلا يختبئ فيها شخص واحد فقط، بل يمكن أن يختبئ فيها خمسة أشخاص!

نظر المساعد الأول والمختار إلى شريفة نظرات ازدراء.

ارتبكت شريفة وقالت:

ــ طبعاً إذا أريد الاختباء، أنا لم أرَ الرجل يختبئ هناك...

سألها الملازم:

ــ أنت جارتها أليس كذلك؟

ــ نعم.

ــ كيف تعرفينها؟

كيف تعرفها؟ شابة جميلة حلوة، لو أرادت لأدارت رؤوس رجال الحي، لكنها لم تلاحظ منها مثل هذا السلوك، وكانت مستاءة منها لا لأنها تدير رؤوس الرجال، بل لأن الرجال يحلمون بها عروساً لهم، ولم يكن للمرأة أي ذنب في هذا، وهي على كل حال لن تمدح الآن امرأة لا تعرفها جيداً.

أجابت عنها امرأة مسنة:

ــ شابة شريفة طاهرة.

أردفت شريفة مضطرة:

ــ نعم، ليس لي أي كلمة على شرفها وناموسها...

قال المساعد الأول:

ــ وماذا أكثر من هذا؟

قال المختار:

ــ لا يستطيع أحد في هذه الأنحاء أن يتكلم على شرفها كلمة واحدة. تركها زوجها منذ سبع سنوات طوال وذهب، ولا يُعرف فيما إذا كان قد مات أو ما زال حياً حيث ذهب، مع ذلك لا يستطيع أي رجل أن يدَّعي بأنه لمس يدها بيده!

والتفت إلى هاشم آغا متسائلاً:

ــ أليسَ كذلك يا آغا؟

هزَّ عم دوران الأعرج رأسه موافقاً وقال:

ــ أشهد بالله كذلك!

مع ذلك ولكي تستكمل الإجراءات أعطى الملازم الشاب أوامره:

ــ فتشوا الغرفة السفلية والسقيفة بهدوء.

هو أيضاً كان مقتنعاً منذ زمن بأن الهارب الذي يبحثون عنه ليس مختبئاً في السقيفة، ولا في الغرفة السفلية، وطالما الأمر كذلك فما المانع من التفتيش بلحظات؟

دخل رجال الدرك الذين سيفتشون الغرفة بناء على أمر قائدهم، هم أيضاً لم يكونوا مقتنعين بأنهم سوف يعثرون على الهارب في هذه الغرفة، وكانوا مدركين بأن قائدهم كان متضايقاً من المختار وغيره.

نزل أحدهم إلى الغرفة السفلية، فيما فتش الآخر الغرفة لا أحد، لا يوجد أحد.

ــ لا يوجد أحد يا سيدي!

ــ اصعد إلى السقيفة وانظر!

لم يكن الدركي يعرف كيف ومن أين يمكن الصعود إلى السقيفة.

قالت شريفة:

ــ لا بدَّ من وجود سلَّم.

فأجاب الدركي الذي كان يفتش الغرفة السفلية قبل قليل:

ــ السلَّم في الأسفل، إنه مسند إلى الحائط.

قالت شريفة:

ــ تماماً، إنه سلَّم السقيفة...

أمر الملازم:

ــ اجلبوه!

هرع دركيان ثم عادا يحملان السلَّم إلى الغرفة.

ــ أسندوه!

مع غروب الشمس في الخارج أعتمت الغرفة تماماً.

قدح الملازم قداحته.

ــ انظروا هناك حلقات على جانبي فتحة السقيفة، علِّقوا السلَّم على الحلقات!

عُلِّق السلم بهدوء.

ــ ليصعد أحدكم وليفتح باب السقيفة!

صعد دركي متوسط القامة بتثاقل، وفتح الباب وألقى نظرة على السقيفة التي كانت غارقة في ظلام دامس يخفي كل شيء، ولم يستطع الضوء الباهت المتسلل من شقوق الأخشاب إضاءة هذا الظلام الحالك.

ــ لا يوجد أحد يا سيدي!

مع ذلك صاح الملازم:

ــ أليست لديك قداحة؟

ــ لدي يا سيدي.

ــ اقدحها!

أخرج الدركي المتوسط القامة قداحته وقدحها، لكن لهب القداحة الأصــفر المرتجف لم يستطع إزالة الظلام الحالك، فقد كان اللهب وكأنه يرتجــف خوفــاً على جدار الظلام، على أنه لو أضيء مصباح كبير في السقيفة لظهر الفــراش المرمي في آخر السقيفة و "الهارب" المختبئ خلفه قبل كل شيء.

انطفأت القداحة:

ــ لا يوجد أحد يا سيدي!

ــ حسناً، انزل...

لم يلاحظ الابتسامات الخفيفة التي ارتسمت على شفاه المختار والمســاعد الأول.

ارتجفت الابتسامة نفسها على شفتي حبيب أيضاً، فلقد اتسع الأمل فجأة في مواصلة العيش والحياة.

ملأ الصوت الصادر عن حذاء الدركي الذي قفز إلــى أرضــية الغرفــة الخشبية، قلب حبيب فرحاً وسروراً، فقد انزاحت جبال عن كاهله، واستمر هــذا الفرح طيلة فترة خروج القادمين للتفتيش، من الغرفة أولاً ثم من البيــت وقفــل باب الغرفة وباب الحوش بقفلين أحضروهما معهما وختموهما بالشمع الأحمر، وأثناء أخذ تواقيع الذين حضروا التفتيش، على محضر التفتيش الذي نظم. ولما انسحبت ا لأقدام، وخيم سكون الليل العميق، تراخت أعصاب حبيــب المشــدودة للغاية، وغلبه النعاس، فأحضر الفراش وكيس القنــب وفرشــهما مــن جديــد، واستلقى على وجهه، وسرعان ما غط في نوم عميق.

وما أن استغرق في النوم العميق حتى بدأ حلم براق يتلألأ. كانت هذه دنيا جديدة لثلاثة أشخاص هم حبيب وهاجر وحسين بدراجته ذات الثلاث عجــلات. كانوا في مدينة كبيرة وبعيدة، بعيدة جداً، يعملان، ويعودان من العمل متعبــين منهكين، إنما سعيدين مسرورين، إلى بيتهما المؤلــف مــن غــرفتين، حيــث يستقبلهما حسين في زقاق الحي الضيق بدراجته ذات الثلاث عجلات.

تراءت لـــه هاجر بجانبه للحظة تقول له:

"ــ لقد جئت!"

حار حبيب في حلمه:

"ــ كيف جئتِ ولكِ؟"

"ــ هكذا جئت!"

"ــ ألم يأخذوكِ إلى المدينة، إلى محكمة الجرائم المشهودة؟"

"ــ أخذوني."

"ــ طيب، كيف جئت إذن؟"

"ــ دع هذا الآن، وهيا ضمَّني!"

ضم حبيب المرأة في الحلم كما في الحقيقة، وإذ بزوجته التي تركها في القرية تصرخ فيه فجأة:

"ــ أنت يا من لا تستحي ولا تخجل، من هذه المرأة؟ وماذا تفعل أنت هنا؟"

حار حبيب:

"ــ حسناً، لكنك كنت تخافين مني خوفاً شديداً، فكيف جئت إلى هنا؟"

أجابته المرأة بحدة:

"ــ جئت هكذا، جئت لكي أفضحك، ولكي أسلِّمك!"

كان على وشك أن يصفع زوجته. أفاق. كان يتصبب عرقاً، وكانت يد على جبهته!

أمسك الرسغ:

ــ هاجر!

سمع الرد:

ــ روحي.

قفز من فراشه:

ــ أنت ها؟

ــ نعم، أنا.

ــ هل فعلاً أنت؟ لا أحلم أليس كذلك؟

ــ أي حلم؟ إني أنا!

ــ حسناً، ولكن كيف نجوت بهذه السرعة؟

ضحكت:

ــ أنا أيضاً دهشت، ذهبنا إلى المدينة. أسـئلة وتحقيـق... فـي النهايـة وجدوني غير مذنبة، كما أن دوران قبل واعترف بصراحة بأن الذنب ذنبه...

ــ وبعد؟

ــ وبعد، أعادوني بسيارة الجيب التي أخذوني بها: هل فتشوا هنا؟

ــ ممن سمعت؟

ــ من المساعد الأول.

ــ المساعد الأول مرة أخرى؟

ــ أماناً منك أنت، ليس المساعد الأول فقط، الدنيا كلها لا تسـاوي شـيئاً عندي بدونك!

ــ فتشوا.

ــ كيف لم يعثروا عليك؟

شرح لها.

انفعلت هاجر جداً وهي تستمع إليه، أمسكت بيده:

ــ ألم تخفْ؟

ــ عدم الخوف؟ ولكِ كنت أرتعد خوفاً!

ــ حسناً، ولكن كيف لم يعثروا عليك؟

ــ أنا أيضاً لم أفهم، ولكن كانت الشمس قد غربت، وصار المكـان هنـا معتماً بإذن الله...

ــ ألم يخطر ببالهم أن يشعلوا مصباحاً أو سواه؟

ــ أشعل الدركي قداحته، لكن الهواء...

ــ طيب، ولو كانوا عثروا عليك؟

مدَّ يده وتناول المسدس من جانب الفراش وسدَّد فوهته إلى صدغه.

ــ بوم!

ارتعدت المرأة:

ــ آي... أحقاً؟

ـــ لم يكن هناك خيار آخر.

ـــ وماذا كنت سأفعل أنا حينها؟

ـــ أنت أيضاً كنت تعملين ما يمليه عليك وضعك، لأني لو عُثـر علـي، تمام. الحبل. اتركي الحبل، كنت فضحتك للدنيا أنت المرأة المعروفة بالشـرف هنا!

قالت هاجر بارتياب:

ـــ إذن اقتنعت بذلك فعلاً؟

ـــ اقتنعت.

ـــ كيف اقتنعت؟

ـــ حتى جارتك، عدوتك شريفة لم تستطع أن تغبِّر على شرفك!

أجهشت المرأة بالبكاء لشدة فرحها، أسندت رأسها إلـى صـدر الرجـل القوي، وبكت، ثم رفعت رأسها وقالت:

ـــ حبيب، حبيبي!

ـــ روحي!

ـــ أتعرف ماذا سنفعل؟

ـــ ماذا سنفعل؟

ـــ سوف أبيع هذا البيت على وجه السرعة!

ـــ لماذا؟

ـــ لنهاجر إلى مدينة بعيدة، بعيدة جداً!

قال حبيب متأثراً:

ـــ هذه رغبتي أيضاً، هل تذهبين معي حيث أذهب؟

وبدون أدنى تفكير أجابت:

ـــ أذهب.

ـــ إلى الموت؟

ـــ إلى الموت

ـــ وتعطيني هوية زوجك...

ـــ أعطيك.

ـــ أنت وأنا وحسين... أين حسين؟

ـــ أنمته في مكانه على الأريكة، لقد غفا في الطريق.

ـــ لنعيش من أجل بعض...

ـــ لنعيش.

ـــ لكن...

ـــ ماذا؟

ـــ يجب أن نفكر ونخطط كيف سنتحرك...

ـــ لنخطط يا سكَّري. طبعاً كما تراه أنت مناسباً!

ـــ ليس أسرع من الغد، اعرضي البيت فوراً للبيع!

ـــ أعرضه.

ـــ ادفعيه فليذهب مهما دفعوا.

ـــ ليذهب.

ـــ ثم نذهب نحن.

نذهب!

ـــ... ... ...

ـــ... ... ...

رغم ذلك لن يكون ذلك سهلاً للغاية بالنسبة لحبيب، مع أن بيع البيت واستلام الطريق يبدو سهلاً، لكن كيف يخرج حبيب من هنا؟ وحتى لو خرج كيف سينجو من أولئك الذين ما زالوا يبحثون عنه بشدة يميناً ويساراً؟

سألته هاجر بم يفكر.

فأسهبه حبيب في الشرح.

كانت هاجر قد فكرت في كل شيء بدقة:

ـــ أبيع البيت، وأحدد يوماً معيناً لتسليمه، وقبل أن يحين اليوم المعيَّن

أُخرجك بعد منتصف إحدى الليالي إلى طريق الجبل، حيث تنتظرنا في مكـان ملائم، بل وتتقدَّمنا متخفياً لفترة، ومن إحدى المحطات الجبلية نستقل القطار...

لمعت عينا حبيب ببريق الأمل، فصاح:

ــ هاجر، حبيبتي!

ــ روحي.

ــ أنتِ فعلاً...

ــ دعكَ من مدحي!

ــ أنا لا أمدحكِ بل أقول الحقيقة...

ــ ضمَّني!

ــ... ... ...

ــ... ... ...

التفَّ الرجل الشاب بعنق المرأة الشابة برغبة أكثر كثيراً مـن أي وقـت مضى، ثم تدحرجا إلى الفراش.

كان الوقت صباحاً عندما استيقظا.

قفزت هاجر ونهضت، ونظرت إلى الأسفل، كان حسين مستيقظاً أيضـاً، يلعب فوق الأريكة بالعربة ذات العجلات التي صنعها لـه "أبوه" مـن بكـرات الخيطان.

كان الطفل مستغرقاً في اللعب.

وبدون أن تصدر أي صوت راقبته هاجر برهة.

بدا الطفل وكأنه يقود عربته في طرق جبلية، وهو يكلم نفسه:

ــ... ... هوب، من هنا، إلى اليمين، إلى اليمين، أنا وأمي، وأبـي، أبـي يحضنني، وأمي بجوارنا، الطرق الجبلية نازلة صاعدة، عربتنا سليمة، الهـواء حار، الطقس مشمس، مالي ولهذه البلدة؟ نحن ذاهبون إلـى المدينـة البعيـدة، المدينة التي في البعيد جداً، حيث لا يمكن لدوران الأعرج الوصول إليها، حتى ولو جاء لا يستطيع العثور علينا، وإن عثر علينا فتلك مدينـة، الـدرك لـديهم سيارة جيب. أنا ركبت سيارة الدرك الجيب وكـذلك ركبهـا دوران الأعـرج، وأمي. علي ابن شريفة لم يستطع ركوب سيارة الجيب، ابن شريفة لا يسـتطيع

المجيء إلى مدينتنا، أبي سيشتري لي في المدينة دراجة زرقاء بثلاث عجلات، إني أحب أبي وأمي كثيراً! علي لديه دراجة، لكن دراجة زينل أجمل منها، دراجتي أيضاً ستكون مثل دراجة زينل، دراجته حمراء أما دراجتي فزرقاء...

رفع رأسه للحظة، فلمح أمه في فتحة السقيفة، ضحك بأسنانه البيضاء.

ضحكت المرأة أيضاً، ونزلت إلى الأسفل وهي تقول:

ــ صعدت لأرى فيما إذا كان الغطاء مكشوفاً عن أبيك.

خفض الطفل بصره إلى عربته وسألها:

ــ متى؟

ــ للتو، قبل قليل.

امتلأ الطفل خجلاً، قال دون أن يرفع بصره عن عربته:

ــ كاذبة!

ارتبكت المرأة وقد أحسَّت بأشياء فسألته:

ــ لماذا؟

ــ نمت ليلاً معه، أتخدعينني؟ ولكن نامي، أليس أبي؟ كيف تنام أمهات الجميع مع آبائهم؟

سحبت المرأة طفلها من ذراعه وضمته إلى صدرها:

ــ حسين!

ــ هه؟

ــ سوف نبيع بيتنا ونرحل إلى المدينة، هل تعرف؟

ــ أعرف.

ــ من أين تعرف؟

ــ سمعت، عندما كنت تتكلمين ليلاً مع أبي في الأعلى!

أدركت المرأة أن الطفل سمعهما طوال الليل، فأردفت:

ــ وسنشتري لك دراجة بثلاث عجلات.

نسي الطفل كل شيء وسأل ببهجة:

ــ مثل دراجة زَينل؟

ـــ مثل دراجة زَينل.
ـــ لا أريدها من نوع دراجة علي...
ـــ وأنا لا أريد.
ـــ لكن يجب أن تكون زرقاء.
ـــ كما تريد أنت!
ـــ هل سيحسدني بقية الأطفال على دراجتي ذات الثلاث عجلات؟
ـــ طبعاً سيحسدونك!
ـــ وإذا عثروا على أبي في المدينة؟
ـــ لا يمكنهم العثور عليه.
ـــ وما أدراكِ؟
ـــ المدينة كبيرة.
ـــ هل هي ضخمة؟
ـــ ضخمة.
ـــ ألا يعرف فيها أحد أحداً؟
ـــ لا يعرف.
ـــ متى سنذهب؟
ـــ عندما نبيع بيتنا.
ـــ لمن سنبيعه؟
ـــ لمن يشتريه.
ـــ فلنبعه غداً فوراً!
ضحكت المرأة وقالت:
ـــ لكنه لا يباع فوراً...
ـــ متى يباع إذن؟.
ـــ عندما يشاء الله.
جاء صوت حبيب من الأعلى:
ـــ العافية!

نظر حسين إلى أبيه بسرور.

بينما قالت هاجر:

ــ لمَ لا تأتي؟

نزل حبيب ببطء، وتربع على الفراش، فراش المرأة، وقال وهو يشم بـــنهم علبة السجائر التي في يده:

ــ ليلاً، في حلمي... خيراً إن شاء الله...

رددت هاجر، وحسين:

ــ خيراً إن شاء الله.

ــ رحلنا إلى المدينة!

التفت حسين إلى أمه بانفعال:

ــ أمي!

ــ حبيبي؟

ــ هل تتحقق الأحلام؟

ــ أغلبها يتحقق.

صفق ببهجة:

ــ يعيش... سوف نرحل! لو يباع هذا البيت بسرعة...

احتضن حبيب ابنه وقال:

ــ سوف يباع، البيت سوف يباع، وفي أحد الأيام نستقل القطار تووووت!

لم يكن الطفل قد رأى القطار لكنه سمع عنه كثيراً، مع ذلك سأل:

ــ ما هو القطار بابا؟

شرح حبيب بجدية:

ــ القطار، عدة عربات متصلة ببعضها، تسير علـــى ســـكتين حديـــديتين متوازيتين، ويكون طويلاً...

ــ كيف يسير؟

ــ باه تشي، باه تشي، باه تشي...

ــ ألا يصفِّر؟

ـــ يصفِّر.

ـــ كيف؟

ـــ تووووووووووت توت توت توت!

ـــ هل يزحف مثل ثعبان أسود؟

ـــ يزحف مثل ثعبان أسود.

ـــ ألا يلحقه شيء؟

ـــ لا يلحقه شيء.

ـــ ولا الشاحنة؟

ـــ ولا الشاحنة.

ـــ الجيب؟

ـــ ولا الجيب.

ـــ السيارة الصغيرة؟

ـــ ولا السيارة الصغيرة.

ـــ الطائرة؟

ـــ ولا الطائرة، لكن قف، الطائرة تلحقه، بل وتسبقه إذا أرادت...

ـــ الرصاصة؟

ـــ والرصاصة تلحقه.

ـــ بابا!

ـــ أبي؟

ـــ هل يقف القطار عندما يصل إلى المدينة؟

ـــ يقف.

ـــ هل القطار ذو روح فيقف؟

ـــ ليس ذا روح، لا يقف من تلقائه، يوقفونه...

ـــ من يوقفه؟

ـــ سائق القاطرة التي تجر القطار.

ـــ... ... ...

ـــ... ... ...

نهضت هاجر وتركتهما، فأشعلت بابور الكاز ووضعت إبريق الشاي فوقه، ثم فتحت خرقة المائدة، ووضعت عليها خشبة العجين التي يستعملونها كطاولة، وقسَّمت الخبز:

ـــ ما أجمل ما اشتريته البارحة من باذنجان وبندورة وفليفلة، ولحمة مفرومة، كنت سأطبخ لكم محشي باذنجان، وفيما كنت أتعارك في الغابة تبعثرت كلها.

ـــ تشترين غيرها اليوم.

ـــ بإذن الله سأشتري حاجيات المحشي، كما سأقابل المختار لأبحث معه مسألة بيع هذا البيت، فقد أصبت ببرود شديد من هذه الأنحاء.

قال حسين:

ـــ وأنا أيضاً.

ضحك حبيب وهاجر.

شربوا الشاي خلال ساعة، ثم تركت هاجر الأب والابن وحيدين في البيت ونزلت إلى الطريق، كانت قد صارت بطلة في البلدة في غضون يوم واحد، وصار كل من يصادفها في الطريق من الأصحاب والأصدقاء والمعارف، بل حتى ممن لا يعرفونها، يقولون لها: "حمداً لله على السلامة"، وكانوا يضيفون بعد أن يلتفتوا يمنة ويسرة:

"ـــ سلمت يداكِ، ما أحسن ما فعلتِ يا سيدة هاجر، فليفهم أنه ما كل طائر يؤكل لحمه!".

لم يعد لدى هاجر أي ميل لهذه الأرجاء مهما قالوا، ومهما فعلوا سوف تبيع بيتها دون أن تسأل عن السعر هل هو غال أم رخيص، وستضع المال في جيبها، وسترحل مع ابنها ومع الرجل الذي أحبته إلى البعيد، هناك في البعيد المدينة، وفي المدينة زحام، زحام لا معارف فيه، ولا من يتحدث عنك بسوء من خلفك، زحام مستغرق في شغله وعمله، فإذا ما استأجروا بيتاً في أحد الأحياء المحيطة بالمدينة، اووووه!

سألها المختار بعد أن استمع إليها مطولاً:

ـــ هل لك أحد من الأقارب في المدينة؟

فابتدعت هاجر:

ـــ لي يا عمي المختار، لي خالتي، وبنات خالتي... وأنت أدرى بأنني قرفت، وضقت ذرعاً بأقاويل الناس ومضايقاتهم لي هنا على مدى سنوات طويلة، اصطحب ولدي، وأذهب إلى مدينة كبيرة وأريح رأسي على الأقل.

ـــ وإذا جاء زوجك في يوم من الأيام؟

ابتدعت أيضاً:

ـــ سوف أعطيكم عنواني عندما أذهب، لكني لا أظن أبداً بأنه سيعود، الرجل الذي لم يسأل ولو بسطرين خلال هذه السنوات، لا بد أنه مات.

ـــ لا يعلم الغيب إلا الله.. ماذا أقول لك؟ ليفتح الله طريقك ويسهِّل لك. مني هذا القدر فقط...

رغم كون المختار من الحزب الديمقراطي، إلا أنه لم يكن يحب ابن حزبه دوران الأعرج مطلقاً، وكان أكثر ما يكره فيه تجاوزه على العرض والشرف.

قال كمن يفشي سراً:

ـــ هذا الأعرج الكلب لن يريحك إذا بقيت هنا... لذلك فإن رحيلك أنسب. المدينة كبيرة. وفيها إلى جانب غسل الغسيل أعمال أخرى أكثر من هنا بكثير...

ظهر خلال ثلاثة أيام راغبون كثر في شراء بيت هاجر لا راغب واحد، وبمساعدة المختار بيع البيت لمن دفع سعراً أعلى، وتمت كافة إجراءات البيع اللازمة، ولما استلمت هاجر ثمنه، جلبته وأرادت تسليمه بالكامل إلى حبيب.

جلس حبيب وسط الغرفة متربعاً، وقد مدَّ ساقيه جانباً، نظر هكذا إلى كيس المال الذي قدَّمته له هاجر، وقال:

ـــ ما هذا؟

ـــ ألم نبع البيت؟ المال...

ـــ لماذا تعطيني إياه؟

ـــ ليبقَ معك!

دفع حبيب كيس المال بظاهر يده وقال:

ـ ليس من عادتنا أن نمد يدنا إلى مال المرأة!

ثم أخرج من جيب بنطاله كمية من المال، رُزماً من فئة الخمسين ليرة، ومن فئة المئة ليرة، ومدَّها إلى المرأة.

نظرت المرأة إلى المال بدهشة وقالت:

ـ خيراً؟

ـ أموالي!

ـ ما بها؟

ـ لتبقَ معك... لتبقَ هذه الأموال أيضاً معكِ!

فهمت المرأة الرجل، فعمدت هي أيضاً مثله تماماً، ودفعت المال بظاهر يدها وقالت:

ـ عندنا أيضاً لا يمكن أخذ مال رجل لم يعقد نكاحه علينا، فليبقَ مالك معك الآن، وليبق مالي معي. اتفقنا؟

ـ تما ا ا ا ا ا م!

* *

XI

لم يكن دوران الأعرج الذي "تلقى طعنات في بطنـــه وأحشـــائه بســـكين امرأة" في حالة يحسد عليها، بدايةً عمه ما عاد يكلمه، أما زوجة عمه وابنـــة عمه والجيران، وأصدقاؤه وحتى أقرب صديق لــــه تِلّي جمالي، فكانوا جميعاً ينظرون إليه نظرة استغراب.

رغم أنه تصرَّف برجولة، واعترف بشجاعة بأنه هو المذنب والمعتدي، إلا أن ذلك لم يكن كافياً ومقنعاً لأحد، فقد طُعن من قِبَل امرأة وبسكين امرأة، وهذا لم يكن لائقاً بالرجولة والشهامة والشجاعة!

كان الوقت أول المساء، كان مبكراً للشراب، ولكن لا بأس يتســـلَّى قلـــيلاً بمفرده، ويفكر بروية في هذه الحادثة التي تحمِّر الوجه، فلقد التقطت أذنـــاه أن هاجر باعت بيتها، وسوف تغادر الأرجاء خلال هذه الأيام، وإذا ما غادرت قبل أن ينتقم منها فلن يتخلص مطلقاً من هذا الوضع المزري، وسوف يسير طـــوال حياته مطأطئ الرأس أمام أهل البلدة. لذلك عليه أن يفعل ما بوسعه للتخلص من هذا الوضع المزري، عليه أن يقوم بعمل تعجب به البلدة كلها.

انعطف في المنعطف، والتقى بشريفة جارة هاجر وعدوتها، سمراء يابسة العود، لكنها لعوب مقبولة ومرغوب بها، توقفت وهي تتكسَّر:

ــ معافى يا دوران آغا! إلى أي حال أوصلتك هذه المرأة العاهرة... لكـــم تأثرت عندما سمعت، وددت لو أستطيع خنق العاهرة!.

تظاهر دوران الأعرج بعدم الاكتراث وقال:

ــ ممكن، هذه أمور تافهة، لا تبالي...

ـــ أيمكن أن يكون أمراً تافهاً يا دوران آغا؟

ـــ ولماذا لا يكون؟

سيرتك على لسان أهل البلدة كلها، أن تطعن شاباً مثل الجبل بالسكين، وهي مجرد أنثى...

قال دوران الأعرج محاولاً أن يخفي انفعاله:

ـــ دعكِ من هذا الآن، فأنا أعرف أنك تكرهين هاجر كما تكرهين حرامك. أليس كذلك؟

أجابت وهي تصيخ السمع بأذنيها:

ـــ صحيح، لا أحبها.

ـــ إذا كان ذلك صحيحاً فاسمعيني: إنك فقيرة، وموارد زوجك ضئيل وتعانون من ضيق العيش...

ـــ أجل نعاني، الدين الإسلامي صريح...

أخرج من جيب سرواله الأسود رزمة من الأوراق المالية، سحب منها ورقة من فئة الخمسين ليرة، وبضعة أوراق من فئة العشر ليرات، قدَّمها لشريفة قائلاً:

ـــ خذي هذا المال، وسوف أعطيك المزيد.

انقضَّت على الأوراق المالية انقضاضاً:

ـــ دمت سالماً!

ـــ دمت سالمة أنتِ أيضاً، تعرفين، لقد باعت هذه المرأة بيتها، وسوف تهرب إلى المدينة، ربماَ إلى المدينة، وربما إلى مكان آخر... الله أعلم، أتستطيعين أن تعقدي معها صداقة متينة كأنها تمتد منذ القدم؟

ـــ كيف يعني؟

ـــ كيف ستكون؟ ألم تبع بيتها وسوف ترحل؟ تستطيعين أن تطلبي منها رفع البرود الذي بينكما، وأن تبيني لها أنك نادمة على أقاويلك التي تقوّلتها عنها، وأن هذا يحزُّ في نفسك... ثم لو تتقربي منها، وتعرفي منها متى وإلى أين ستذهب، وتعلميني بذلك فوراً... اتفقنا؟

فكرت شريفة برهة: هذا غير ممكن، فهاجر حريصة جداً، وهل يمكن أن

تقع في الفخ؟ ثم أجابته:

ـــ لا يمكن.

ـــ لماذا؟

ـــ لا تثق بصداقتي.

ـــ حسناً، كيف سنعرف هذه المعلومات التي طلبتها منك؟

ـــ تخطر ببالي فكرة أخرى، طالما غايتك معرفة هذه المعلومات، فلا لزوم لهاجر مطلقاً!

ـــ أليس لها لزوم؟ تعيشي يا... كيف؟

ـــ أليس لدى ابن أخيك زينل دراجة حمراء بثلاث عجلات؟

ـــ أجل لديه.

ـــ أتستطيع أن تعيرها لابني لبضعة أيام؟

ـــ أستطيع، ولكن أعتقد أن ابنك لديه دراجة...

ـــ دعك منها، إنها مهترئة، دراجة زينل هي اللازمة لنا!

ـــ لنذهب فوراً، وخذيها!

ـــ تماماً، ولا تسل عن البقية..

ـــ جيد.

أعطى دوران الأعرج دراجة ابن أخيه زينل الحمراء ذات الثلاث عجلات لشريفة فوراً ذلك المساء، وعندما عادت بالدراجة إلى البيت، تجمهر خلفها كل أطفال الحي الفقراء، ودخلوا الحي بشكل تظاهرة طفولية صاخبة، وكان هذا ما تريده شريفة، إثارة انتباه ابن هاجر!

هي تعرف هوس الطفل بمثل هذه الدراجة الضخمة ذات الثلاث عجلات، وتعرف أنه تعارك مع ابنها علي بسبب ذلك، لهذا فهي متأكدة من أن حسيناً ما إن يرى هذه الدراجة فسوف يفعل ما بوسعه لكي يتقرَّب من علي ويصادقه، وما إن يصادقه سوف يسهل عليها استدراجه في الكلام بحيلة وبراعة.

فعلت التظاهرة الطفولية الصاخبة التي جرت في الزقاق، فعلها في ذلك اليوم نفسه، فقد أخرجت حسيناً الصغير ابن هاجر إلى باب الحوش، ولو لم تأت أمه المتعبة بعد قليل وتدخله إلى الداخل، لربما كان سرعان ما أعاد مصادقة ابن شريفة لكي يتمكن من امتطاء دراجته.

سحبت هاجر الطفل من ذراعه بعنف إلى الداخل، وأغلقت الباب.

أما الطفل فقد دخل إلى البيت مرغماً، وعيناه إلى الخلف، وعقله عند الدراجة. ألم تكن هذه الدراجة دراجة زينل؟ لماذا أعطيت لأولئك؟ هل أعطيت لهم بشكل دائم؟ أم اشتروها جديدة؟ آل شريفة أناس فقراء، كيف يشترون دراجة ضخمة مثل دراجة زينل بزرد وأضواء وزمور؟ أبوه أيضاً سيشتري له واحدة ولكن عندما يرحلون إلى المدينة البعيدة، البعيدة جداً! فلا يتباهى علي. أبوه سيشتري له دراجة زرقاء مثل هذه الدراجة تماماً.

الزرقاء أجمل من الحمراء، طبعاً أجمل، وإن لم يصدِّق علي فليسأل أمه.

تحدث أبوه وأمه مطولاً حتى ساعة متأخرة من تلك الليلة عن كيفية الخروج من البلدة، أما هو فلم يهتم لحديثهما، إذ كانت الدراجة التي أحضرتها شريفة لعلي تشغله وتهمه، هل هي دراجة زينل؟ إذا كانت كذلك فلماذا أعطيت لهم؟ وإذا لم تكن كذلك فمن أين وكيف اشتروها؟

سمع الحديث كله عن كيفية هروب "أبيه" من هنا، وأين وكيف سينتظرهما، سمع لكنه لم يفهم، المهم لديه الدراجة، دراجة زينل الحمراء. لماذا جاءت لهؤلاء؟

كان والداه مستمرين في الحديث:

ــ بعد منتصف الليل، أي عندما تنام البلدة، وتخلو دور السينما من روّادها، أرفع أخشاب السقيفة...

نظرت هاجر إلى الرجل بانفعال:

ــ أخشاب السقيفة؟

ضحك حبيب:

ــ طبعاً.

ــ متى فككتها؟

ــ في الحقيقة أنا لم أفكَّها، الأخشاب مهترئة متآكلة، أنا نزعت المسامير فقط...

ــ لماذا؟

ــ هل هناك لماذا؟ لكي أستطيع الإفلات عند أية مداهمة مفاجئة!

ــ طيب، ولماذا لم تفاتحني بهذا مطلقاً؟

قال حبيب بعد أن شمَّ بغرور علبة السجائر التي في يده:

ــ لا يصح أن يثرثر ذوو الخصوم والأعداء...

ــ أي أنك شككت بي، ولم تثق بي أليس كذلك؟

ــ لو كان الأمر كذلك لما فاتحتك الآن...

ــ حسناً، وبعد؟

ــ أرفع أخشاب السقيفة، وأهبط إلى الزقاق مثل ظل.. تفهمين أليس كذلك؟

ــ فهمت.

ــ أنتظركم، هناك دغلة كبيرة على طريق الجبل، هل تذكرينها؟

ــ أذكرها، قبل الوصول إلى المفارق الأربعة...

ــ تماماً، أنتظركم هناك، من سيهتم بأمري؟

ــ خاصة، وأن تلك المسألة قد أُغلقت، فقد أعلموا الجهات العليا بتفتيش البيوت، وعدم العثور على الهارب... وبحسب قول المساعد الأول فقد انتشر عناصر البحث والتحري في القرى السفلية، وسوف يبحثون هناك!

ــ ليبحثوا، ولكن...

نظرت المرأة بارتياب:

ــ ماذا؟

ــ لا شيء.

أصرَّت:

ــ فعلاً ماذا؟

ــ إنك تزعجينني!

ــ لماذا يا؟

ــ المساعد الأول، المساعد الأول...

أدركت المرأة أنه لو لم يحبها لما غار عليها، فقالت:

ــ الدنيا كلها بجانب، وأنت بجانب! أدخل هذا في رأسك: ليس لي رجل آخر سواك في هذه الدنيا. هل فهمت؟

مع ذلك قال حبيب نصف مازح:

ــ والله؟

ـ والله.

ـ بالله؟

ـ بالله، تا لله، هل اقتنعت؟ ألست مسلماً يا هذا؟

ـ اقتنعت، إني مسلم، مسلم...

ـ إي؟

ـ... ... ...

ـ... ... ...

ـ... ... ...

سمع حسين هذا كله لكنه لم يفهمه. أو بالأصح فهمه بشكل ما: فأبوه سوف يرفع أخشاب السقيفة عند منتصف إحدى الليالي، وسوف يقفز بهدوء من طرف السقيفة إلى الزقاق الخلفي، وليس من باب الحوش، وسوف ينتظرهم خلف دغلة في مكان بعيد في الجبل، ثم سوف يستقلّون ما يتيسر لهم، سواء سيارة صغيرة أو عربة، ويرحلون إلى المدينة البعيدة، فقدت حتى الدراجة الزرقاء التي ستشترى له في المدينة البعيدة أهميتها.

المهم الآن دراجة زينل الحمراء ذات الثلاث عجلات التي جاءت لآل شريفة!

لماذا جاءت؟ هل أعطاهم إياها دوران الأعرج؟ لماذا أعطاهم إياها؟ هل أعارهم إياها؟ ألن يستعيدها؟

لم يهضم حصول علي قبله على دراجة بثلاث عجلات: "ـ أنا أيضاً ستكون لدي واحدة، وزرقاء، طبعاً زرقاء، الزرقاء أجمل من الحمراء، إذا أعطاهم إياها عمي دوران الأعرج فهي قديمة، أبي سيشتري لي واحدة جديدة!...".

تجسَّد في ذهنه علي ابن شريفة، وكأنه يعترض عليه:

"ـ هه سيشتري!"

"ـ طبعاً سيشتري، ولم لا يشتري؟"

"ـ لأنه ليس لديك أب!"

"ـ أنت تظن ذلك!"

"ـ هل لديك أب؟"

"ــ أجل لدي!"
"ــ كاذب..."
"ــ أنت الكاذب!"

"ــ طالما لديك أب، فأين هو؟ لماذا لا يخرج إلى الزقاق مثل سائر الآباء؟"

لو لم تنتبه إليه والدته وتهزه من كتفه في تلك اللحظة، لربما صرَّح بمكان وجود أبيه.

ــ بم تفكر؟

قال كمن أحس بالذنب:

ــ لا شيء.

ــ كيف لا شيء؟

ــ لا شيء هكذا...

لو قال شيئاً، فهو يعرف أن أمه التي تعرف هوسه وتعلقه بالدَّراجّة ذات الثلاث عجلات، قد تصطحبه معها غداً خشية من أن يخرج إلى الشارع، مع أنه يجب أن يظل غداً في البيت، ويجب أن يعرف من أين حصل آل شريفة على تلك الدراجة وكيف ولماذا، وهل حصلوا عليها بشكل دائم، أم على سبيل الإعارة لبضعة أيام؟ يجب أن يعرف ذلك كله، لأنهم يجب أن يعلموا بأنه ستكون لديه هو أيضاً في القريب، وفي القريب العاجل جداً دراجة ذات ثلاث عجلات مثل هذه تماماً، إنما زرقاء اللون! أجل ستكون لديه دراجة، ويجب أن يعرف علي ذاك هذا. يجب أن يعرف هذا ولا يغتر. ثم أبوه... سوف يرحلون من هنا إلى البعيد غداً أو بعد غد، وربما لن يعودوا إلى هنا ثانية، وطالما أنهم لن يعودوا، فيجب أن يعرف علي أن لحسين أباً، فإن لم يعرف ذلك الآن، فإنه سيظل يقول في نفسه كلما خطر حسين بباله حتى ولو بعد سنوات: "ــ ذاك لم يكن له أب في وقت من الأوقات!". له أب، ثقب السجن وهرب وجاء بعد سبع سنوات، أضف إلى أنه أطول قامة من جميع الآباء في هذه البلدة، وساعده أقوى. يستطيع أن يضرب جميع الآباء في هذه البلدة. هجم عليه في السجن خمسة أشخاص فلم يكترث بهم، وبلكمة واحدة لكل منهم...

فيما كان أبواه يتحدثان بسعادة حتى منتصف الليل، عن السفر، وعن المدينة البعيدة، وكيف سيعيشون فيها، كان هو دائم التفكير في الدراجة ذات

الثلاث عجلات التي جاءت لابن شريفة، بحيث لم يعرف كيف غفا هناك في ساعة متأخرة من الليل، ومتى وكيف حملته أمه ومدَّدته في مكانه على الأريكة؟

كان أول ما فعله عندما استيقظ صباحاً، أن نظر حوله، فشاهد أباه وأمه ملتفين ببعضهما يغفوان في فراش واحد مثل سائر الآباء والأمهات.

لم يهتم بذلك، نهض من الأريكة بهدوء تام، ومشى على رؤوس أصابعه نحو باب الغرفة، ففتحه برويَّة وخرج إلى الحوش، دون أن يسحب الباب ويغلقه بضجة، من عادة أم علي حلب البقرة في هذه الساعة!

اجتاز الحوش بهدوء. ونظر إلى الخارج من ثقوب مسامير الباب، كان الوقت مبكراً جداً، لذلك لم يكن يوجد أحد في الخارج، لكن باب حوش آل شريفة كان مفتوحاً، ومن خلال الباب المفتوح ظهر حوش آل شريفة، وفي الحوش بدت الدراجة الحمراء ذات الثلاث عجلات، مسحت الدراجة الحمراء كل شيء من ذهنه، وملأت عليه كيانه، هل أعطاهم إياها دوران آغا الأعرج؟ بشكل دائم؟ لماذا؟ هل ستُشترى دراجة جديدة لزينل؟ حتى لو كانت ستشترى له، لماذا أُعطيت هذه لهذا الوسخ؟ أبوه أيضاً سيشتري له دراجة ألا يصدقون؟ لا يصدقوا. أبوه أقوى من الجميع في هذه البلدة، يستطيع أن يضرب أي واحد. طرح خمسة أشخاص أرضاً بلكمة لكل منهم وهرب من السجن يا!

بعد تردد بسيط فتح الباب وخرج إلى الخارج.

أبوه وأمه لا يستيقظان في هذه الساعة.

هل الدراجة الحمراء دراجة زينل يا ترى، أم أنهم اشتروها جديدة؟

كان صدره يعلو ويهبط.

بركضة خفيفة سرعان ما يذهب ويشاهد ويعود، لكنها كانت تشبه كثيراً دراجة زينل، وقد لا تكون هي، وإذا لم تكن هي، فمن أين حصلوا على المال فاشتروها؟

مشى على رؤوس أصابعه وذهب إلى باب حوش شريفة، توقف. نظر إلى الدراجة الحمراء ذات الثلاث عجلات عن كثب: إنها دراجة زينل يا روحي، ألا يعرفها؟ إطاراتها العريضة، زمورها، حتى الصدأ على مقودها إنها دراجة زينل، ربما أعطاها دوران الأعرج لعلي نكاية بأمه هاجر.

إذا أعطاها فليعطها، أبوه سيشتري له أجمل منها، وزرقاء، والزرقاء أجمل من الحمراء، وماذا يعني اللون الأحمر؟ إنه لون الدم، الإنسان ترتبك

أحشاؤه من لون الدم، كان كلما شاهد الذبائح في الأعيـاد، أعيـاد الأضـحى، ترتبك أحشاؤه، ويشعر بالغثيان.

ــ اوووه... حسين. أهلاً وسهلاً!

نظر وقد ثاب إلى رشده: إنها شريفة وفي يدها إناء الحليب، وقد خرجـت من الإسطبل واقتربت منه دون أن يشعر.

سألها على حين غرة:

ــ لمن هذه؟

ــ لعلي!

ــ من أعطاه إياها؟

ــ لا أحد، اشتراها لــه أبوه.

متى؟

ــ البارحة.

دخل، واقترب من الدراجة بحسد وضغط على زمورها، ولكن هل يمكنها خداعه؟ هذه الدراجة دراجة زينل!

أردف:

ــ بكم اشتراها؟

ــ والله لا أعرف، هل بمئة وخمسين أم بمئتين؟

ارتفع الدم الساخن إلى رأسه، فاحمرت وجنتاه:

ــ أنا أيضاً ستكون لي واحدة! أمي ستشتريها لي!

لم تفلت المرأة طرف الخيط فسألته:

ــ متى؟

ــ عندما نذهب إلى المدينة البعيدة، عندها سيشـتري لـي أبـي دراجـة زرقاء...

انطلق السهم من القوس، سكت الطفل بخوف، أما المرأة فتصرفت كأنها لم تفهم وسألته:

ــ متى ستذهبون؟

ــ ليس غداً، بعد غد، سينتظرنا أبي...

ـــ إي؟

ـــ لا شيء لا شيء أبي لم يثقب السجن ولم يهرب!

ـــ إذن فسوف ترحلون بعد غد؟

امتطى الدراجة.

استشفت شريفة أموراً فسألته:

ـــ لماذا لا يذهب معكم، ولماذا سينتظركم في الطريق؟

ـــ أبي هارب يا، طبعاً!

قاد الدراجة وعبر بها الحوش مرة واحدة وعاد أدراجه:

ـــ أنا أقود هذه أفضل من الجميع، فقط زينل، أقودها أفضل من زينل أيضاً، لكن... حسناً، ماذا ستفعلون بدراجة علي ذات الثلاث عجلات القديمة؟

ـــ أخذها أبوه وباعها، ووضع مالاً فوق ثمنها واشترى هذه، إذن سيشتري لك أبوك واحدة أيضاً عندما ترحلون إلى المدينة البعيدة؟

مُسحت الدنيا كلها من ذهنه وهو يمتطي الدراجة الحمراء:

ـــ سيشتري لي طبعاً، وسيشتريها زرقاء!

ـــ الزرقاء أجمل من الحمراء، أنا أحب اللون الأزرق، وأنت؟

انفعل الطفل وقال:

ـــ أمي قالت لنأخذها حمراء، أما أبي فقال زرقاء، طبعاً يا، هل أمي تعرف أفضل أم أبي؟ ألا يعرف الآباء أفضل من الأمهات؟

ـــ إذن فقد ثقب أبوك السجن وهرب؟

تاب إلى رشده فقفز عن الدراجة بخوف، وقال بارتباك شديد:

ـــ لا، أبي لم يثقب السجن، ولم يهرب ويأت، ولن ينتظرنا في الدغلة. لقد خدعتكِ، أبي...

وبارتباك شديد، غادر المكان مسرعاً.

علمت شريفة أموراً كثيرة من حيث لم تتوقع، ألا يعقل أن يكون في ثرثرة الطفل شيء من الحقيقة؟

وضعت إناء الحليب على درجة السلم وخرجت إلى باب الحوش.

كان باب حوش آل هاجر مفتوحاً على مصراعه، لم تكن هاجر تترك هذا

الباب مفتوحاً هكذا مطلقاً، بالكثير الكثير كانت تواربه فقط.

مشت على رؤوس أصابعها صوب باب حوش هاجر المفتوح، توقفت، وبعد أن راقبت المكان جيداً ولجت إلى الداخل، كان باب الغرفة مغلقاً، اقتربت بقلبها الشديد الخفقان وأصاخت السمع: كانت هاجر توبخ ابنها بعنف، وللحظة طرق سمعها صوت رجل أجش، هناك أحدهم في الداخل، إذن فقد انزلق لسان الطفل، حذار من أن يكون "الهارب" هو زوج هاجر الذي لم يعد منذ سبع سنوات.

لمعت عيناها فجأة، واشتد خفقان قلبها، إذا كان الأمر كذلك، وأخبرت عنه وساعدت في إلقاء القبض عليه، فهناك في النهاية مكافأة تقبضها!

سارت في طريق المخفر متناسية كل شيء.

خطر ببال الطفل باب الحوش الذي تركه مفتوحاً، لو يخرج ويغلقه...

خاف.

لكن يجب إغلاق الباب، قفز فوق الأريكة، وأزاح الستارة البيضاء وكمن نظر إلى الخارج فلاحظ أن باب الحوش مفتوح صاح:

ــ آ... باب الحوش مفتوح ماما!

هرعت هاجر مرتبكة إلى حيث ابنها، ونظرت فرأت وانفعلت وصاحت:

ــ ولك إياك أن تكون أنت قد خرجت إلى الخارج وتركته مفتوحاً؟

ــ لا.

ــ لا، كيف فُتح إذن؟

ذهبت وهي تغمغم، فأغلقت الباب بضجة وعادت:

ــ قل الصدق ولَك، هل أنت تركته مفتوحاً؟

اقترب الرجل أيضاً منهما:

ــ قل الصدق، وإلا فإنهم يلقون القبض علي ويرمونني في السجن ثانية!

تضايق الطفل تماماً، لكنه قال لمجرد الحديث:

ــ تهرب أيضاً.

ــ لا أستطيع الهروب مرة أخرى!

ــ ماذا يحدث إن لم تستطع الهروب؟

ـــ يعلقونني إلى حبل ويشنقونني!

انزعج الطفل فعضَّ على شفته سوف يرحلون بعد غد، وسوف يتخلصون من هنا، وسوف يشتري لـــه أبوه دراجة مثل تلك الموجـــودة فـــي حـــوش آل شريفة، بلون أزرق، لقد كذبت شريفة، هل هو طفل؟ هل يصدقها؟ ألا يعـــرف أنها دراجة زينل القديمة؟

تضايقت هاجر وقد أحسَّت أن ابنها يخفي سراً بصـــمته، وأحـــس حبيـــب الإحساس نفسه أيضاً، وراح يفكر فيما يجب عليه فعله.

نظر الطفل للحظة بعينيه الواسعتين المفتوحتين إلى أبيـــه، كانـــت هاتـــان العينان مليئتين خوفاً.

قال حين التقت نظراته بنظرات أمه فجأة:

ـــ ماما!

أجابت باهتمام:

ـــ ماماتي؟

ـــ لا شيء لا شيء.

ـــ لماذا قلت ماما يا بني؟

ـــ متى سنرحل؟

ـــ بعد غد، لماذا تسأل؟

ـــ لا شيء، هكذا.

كان يشيح ببصره عن أمه وعن أبيه، وحين تخيَّـــل وجـــه أبيـــه الأزرق المعلق إلى الحبل، نظر إلى أبيه فزعاً، وقد تذكَّر الوجه الأزرق لرجل كان قـــد رآه مشنوقاً في ساحة سوق المدينة التي ذهب إليها مع أمه منذ زمن، كـــان ذاك أيضاً طويل القامة مثل أبيه، قفز والتف فجأة برقبة أبيه واحتضنه وراح يبكـــي. ما استطاعت المرأة ولا الرجل أن يسألاه سؤالاً واحـــداً، فقـــد سُـــمعت فجـــأة أصوات أحذية عسكرية تتراكض من بعيد."كان الرجل يعرف جيـــداً أصـــوات الأقدام هذه، ترك الطفل، وصعد السلم مسرعاً، وفيما هـــو يـــدخل مـــن فتحـــة السقيفة قال:

ـــ الدرك!

أغلق باب السقيفة من الداخل.

حارت هاجر فيما تفعله، لكن يجب أن تكون إرادتها قوية ومتحكمة، وسوف تكون!

ــ حبيب!

ــ ها؟

ــ لملم فراشك وتوابعه وارمه إلى الأسفل!

فهم الرجل، ففعل ما طلبته المرأة.

ــ أغلق باب فتحة السقيفة!

قال قبل أن يغلقه:

ــ لا تفكري بي. سوف أنتظركم بعد غد في الدغلة هناك، كما تحدثنا وكما اتفقنا، لا تنسي!

قالت دون ارتباك ولا بكاء:

ــ فكِّر في هروبك ونجاتك، لا تفكر فينا يا حبيب، يجب أن لا تموت. لا تفكِّر فينا مطلقاً، سهَّلَ الله لك طريقك!

أغلق الرجل فتحة السقيفة.

كانت المرأة قد رفعت الفراش وتوابعه تماماً حين بدأ القرع بشدة على باب الحوش.

سألت هاجر من النافذة بحدة:

ــ من هناك؟

جاء صوت المساعد الأول:

ــ افتحي، أسرعي وافتحي الباب!

ذهبت مثل لبؤة، وفتحت باب الحوش بغضب:

ــ ماذا هناك أيضاً؟ ماذا تريدون أيضاً؟

لم يكن لدى المساعد الأول وقت للاستماع، أسرع إلى الغرفة ومن ورائه رجال الدرك المسلحون بالبواريد، نظر يمنة ويسرة، رفع رأسه إلى السقف، أين هو الهارب الذي أخبرت عنه شريفة؟

لمح فجأة على الأريكة علبة سجائر حبيب، فأسرع وتناولها، وبما أن هاجر لا تدخن، فلمن هذه العلبة إذن؟

التفت إلى هاجر المنتصبة عند الباب وسألها:

ــ لمن علبة السجائر هذه؟

ــ لي.

ــ أنت ما كنت تدخنين...

صرخت بغضب:

ــ أصاب الله هذه البلدة، وهذه الدنيا بالبلاء، لو بقيت هنا فترة أطول سوف تقولون عني بأني عاهرة. ما هذا؟ مداهمة، مهاجمة، وهذا وذاك.

قال المساعد الأول:

ــ دعي هذا التهويل، قيل بأنه يوجد رجل هنا!

حارت:

ــ رجل؟ وأي رجل؟

ــ رجل غريب!

من رآه؟

أدركت أن حبيب قفز وهرب قبل قليل، فضربت على صدرها وقالت:

ــ أصاب الله ذوي الألسنة السوداء الطويلة بالبلاء أيضاً، تفضلوا ابحثوا، ربما خبأته في الغرفة السفلية، أو في السقيفة...

نزل رجال الدرك بلمحة إلى الغرفة السفلية وبحثوا فلم يعثروا على أحد جلبوا السلم بسرعة وأسندوه إلى فتحة السقيفة، وصعد اثنان منهما وراء بعض، وبحثا جيداً في جميع أرجاء السقيفة، ولم يعثرا على أحد.

كان المساعد الأول في ذروة غضبه، سوف يسأل شريفة تلك بعد قليل، أما أقسمت يميناً مدَّعية بأنها سمعت صوت رجل في بيت هاجر؟

قال بغضب:

ــ هذه السجائر. هاجر لمن علبة السجائر هذه؟ قولي الصدق!

قالت هاجر بغضب أيضاً:

ــ هات هذه يا، وسحبت العلبة من يده وأخذتها. لمن؟ أقول لك إنها لي، فعلاً إنها لي، بدأت أدخن من شدة تأثري، كلها علبة سجائر يا!

ركزت السيجارة التي سحبتها من العلبة في فمها بين شفتيها، وذهبت فتناولت علبة الثقاب التي تشعل بها المصباح وأشعلت عوداً أشعلت به سيجارتها، وراحت تنفث الدخان.

لم يكن هناك ما يمكن فعله.

انسحب المساعد الأول ورجال الدرك وغادروا.

أما حسين فكان يراقب وجه السماء من النافذة التي رُفعت ستارتها البيضاء، كان في وجه السماء طائر أخاذ بجناحين كبيرين، لا يطير وإنما يخطر ماراً في السماء الزرقاء.

٢٠٠٤/١٠/٢٢

**

فاروق مصطفى في سطور

ـ مواليد حلب ١٩٤٥

ـ من قرية سلوى في أقصى شمال الوطن التَّابعة لمنطقة جرابلس بحلب.

ـ عضو اتّحاد الكتّاب العرب.

ـ عضو اللَّجنة المركزيَّة ـ عضو الهيئة الاستشاريَّة، مستشار الشؤون الثقافيَّة ـ عضو مكتب الفكر والنشر في حزب الاتّحاد الاشتراكي العربي الذي انتسب إليه منذعام ١٩٦٦.

ـ تنقَّل في طفولته وصباه في كثير من مناطق ومحافظات القطر مع والده بحكم وظيفته.

ـ نال الشَّهادة الثانويَّة العامة عام ١٩٦٣ من ثانويَة جول جمَّال باللاذقيَّة.

ـ سافر بعدها إلى تركيا لدراسة الطِّب في جامعة استانبول، لكنَّه لم يوفَّق، فعاد بعد أن درس اللُّغة التركيَّة لمدَّة فصل واحد في مدرسة اللُّغات الأجنبيَّة بكليَّة الآداب بجامعة استانبول، محسِّناً بذلك ومهذِّباً لغته التُركيَّة التي يتقنها أصلاً.

ـ انتسب إلى كلِّيَة الحقوق بجامعة حلب ثم جامعة دمشق ووصل إلى السّنة الثَّالثة ورسب فيها ثلاث سنوات رسوباً ظالماً وجائراً فترك الدِّراسة الجامعيَّة التي تعثَّرت نتيجة السَّفر والعمل الوظيفي والعمل السِّياسي إلى جانب الدِّراسة.

ـ عمل مدرِّساً للُّغة العربيَّة "مدرِّس ساعات متعاقد" في إعداديات اللاذقيّة في الأعوام الدراسية ١٩٦٥ـ ١٩٦٦ـ ١٩٦٧.

ـ ذهب إلى الجزائر مع البعثة التَّعليميَّة السُّوريَّة "معلِّماً من خارج ملاك التَّربية" وأمضى فيها عاماً دراسياً واحداً "الجزائر العاصمة" ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨.

ـ عمل معلِّماً وكيلاً في قريته وفي حلب في الأعوام ٦٨ ـ ٦٩، ٦٩ ـ ٧٠، ٧٠ـ ١٩٧١.

ـ عُيِّن موظَّفاً في جامعة حلب في ١٩٧١/٣/٣١ أمضى فيها ما يزيد على سبعة وعشرين عاماً متنقِّلاً في مناصب إدارية مختلفة منها: مدير مكتب المتابعة الخاص برئيس الجامعة ـ المدير الإداري للعيادات السِّنِّيَّة ـ مدير شؤون الطلاب بكلية طب الأسنان، حيث طلب إحالته إلى التَّقاعد وكان ذلك في ١٩٩٨/٥/٤.

ـ متزوِّج وأب لخمسة أولاد، إحداهن تحمل الإجازة في الاقتصاد، واثنان جامعيان والصُّغرى تحضِّر للشَّهادة الثانويَّة، والأصغر في المرحلة الإعدادية.

ـ يتقن اللُّغة التركيَّة، ويجيد اللُّغة الإنكليزيَّة، ويلمُّ بالفرنسيَّة وبالألمانيَّة.

ـ شارك في كثير من الأمسيات الأدبيَّة التي أقامها اتِّحاد الكتاب العرب في مناطق ومحافظات القطر، كما شارك في أمسيات أدبيَّة في النَّادي العربي للتَّمثيل والآداب والفنون بحلب، وفي أمسيات أدبيَّة في النَّادي العربي الفلسطيني بحلب.

ـ حَضَر كافَّة الملتقيات الفكريَّة والسِّياسيَّة التي أقامها حزب الاتحاد الاشتراكي العربي وشارك في عدد منها.

ـ نُشِرَت قصصه المترجمة في مجلّتَي الكفاح العربي والشِّراع اللبنانيَّتين، وفي مجلّة البيان الكويتيَّة، وفي مجلات الأسبوع الأدبي والموقف الأدبي والآداب الأجنبيَّة، الصَّادرة عن اتحاد الكتّاب العرب، يكتب في صحيفة الميثاق الناطقة بلسان حزب الاتحاد الاشتراكي العربي.

ـ يعمل في الترجمة عن اللغة التركيَّة منذ عام ١٩٧٨ للتَّعرف على جيراننا الأتراك الذين تربطنا وإياهم روابط عديدة.

ـ طبعت وصدرت له الأعمال التالية:

١ـ "القميص النَّاري: رواية للكاتبة التُّركيَّة خالدة أديب، دار العَلَم بدمشق عام ١٩٩١.

٢ـ "كيف ينقلب الكرسي؟" مجموعة قصص قصيرة للكاتب التُّركي السَّاخر عزيز نسن، دار الينابيع بدمشق عام ١٩٩٢.

٣ـ "أي حزب سيفوز؟" مجموعة قصص قصيرة للكاتب التُّركي السَّاخر عزيز نسن، دار المرساة باللاذقية عام ١٩٩٧.

٤ـ "صراع العميان" مجموعة قصص قصيرة للكاتب التُّركي السَّاخر عزيز نسن، دار عبد المنعم ناشرون بحلب عام ١٩٩٩

٥ـ "ثلاث مسرحيَّات أراجوزيَّة" مسرحيَّة للكاتب التُّركي السَّاخر عزيز نسن، وزارة الثقافة بدمشق عام ٢٠٠٠

قيد الطبع:

١ـ "الهارب" رواية للكاتب التُّركي أورهان كمال.

٢ـ "رجل اليوم" مسرحيَّة للكاتب التُّركي خلدون طائر.

٣ـ "إسكان العشائر في عهد الإمبراطوريَّة العثمانيَّة" للبروفسور الدكتور جنكيزا ورهونلو.

٤ـ "الأعمال المسرحيَّة الكاملة" المجلَّد الأوَّل للكاتب التُّركي السَّاخر عزيز نسن.

قيد الإنجاز:

١ـ "الأعمال المسرحيَّة الكاملة" المجلَّد الثَّاني عزيز نسن.

٢ـ "مختارات من أشعار ناظم حكمت"

٣ـ "الأوغوز (التركمان)" تاريخهم، تشكيلاتهم القَبَليَّة، ملاحمهم. للبروفسور الدكتور فاروق سومر.

٤ـ "غريب" رواية. يعقوب قدري.

٥ـ "العمود الأوسط" رواية، يشاركمال.

٦ـ "حبيبتي استانبول" مجموعة قصص قصيرة. نديم كَورسَل.

***